وزارة الثقافة والارشاد القومى

الادارة العامة للثقافة

فلسفة اليوجا

تأليف : يوجى راماشاراكا

ترجمة : عريان يوسف سعد

مراجعة : دكتور محمد مصطفى حلمى

فلسفة اليوجا

تأليف : يوجى راماشاراكا

ترجمة : عريان يوسف سعد

مراجعة : دكتور محمد مصطفى حلمى
استاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة والارشاد القومى
الاقليم الجنوبى
الادارة العامة للثقافة

ADVANCED COURSE

IN

YOGI PHILOSOPHY

AND

ORIENTAL OCCULTISM

By

YOGI RAMACHARAKA

Author of "Science of Breath" "Hata Yoga"
"Fourteen Lessons" Etc.

إهداء

الى الذين هزّ ما أوتوا من علم أركان دينهم وزعزع أسس ايمانهم .

والى الذين ليس لهم ايمان مثل حبة الخردل أقدم هذا الكتاب.

هذا الكتاب يجعل الايمان بالله مبدع الكون ونور السموات والأرض أمرا يحتمه المنطق ويتقبله العقل .

أما الذين حفظ الله عليهم نعمة الايمان ايمان العجائز فانه يرتفع بايمانهم الى مراتب اليقين .

انه يلقى الضوء على الطريق .

ويمهد السبيل الى الصراط المستقيم .

عريان يوسف سعد

كلمة الناشر

الدروس الاثنا عشر التى بين دفتى هذا الكتاب ألقيت محاضرات شهرية فى الفترة بين أكتوبر سنة ١٩٠٤ وسبتمبر سنة ١٩٠٥ وكانت دراسة عليا واستمرارا للدروس الأربعة عشر التى ألقيت فى السنة السابقة لتلك الفترة ، ولقد أصدرنا هذا الكتاب بناء على الكثير من الرجاء والالحاح مشتملا على هذه الدروس تعميما لفائدتها .

والدروس الأربعة الأولى شرح وتحليل للكتيب المسمى « ضوء على الطريق » وقد صادفت ارتياح محبى ذلك الكتيب وتقديرهم ، كما صادفت اعجاب طلاب التصوف وأساتذته حتى لقد قيل ان هذه الدروس الأربعة تفوق كل ما كتب عن هذا الموضوع .

والدروس الخامس والسادس والسابع تعالج مختلف نوع اليوجا وتحوى بيانا وافيا فى كثير من الايجاز .

والدرسان الثامن والتاسع يتناولان فلسفة الأخلاق فى اليوجا وقد استقبلهما أساطين الأخلاق فى مختلف المدارس أحسن استقبال فانهما يهيئان صعيدا مشتركا يلتقى عليه المختلفون .

والدروس الثلاثة الأخيرة تتناول نظريات اليوجا فى « ما وراء المادة » وتعاليمها المبنية على أسس علمية فى عبارة يدعو وضوحها واحاطتها الى الاعجاب : فيها اجابة جزلة سهلة مبسطة لأعقد المسائل النفسية والروحية ، اجابة توحى بها فلسفة اليوجا المتوغلة فى أقدم القرون بعبارة واضحة وتعبير يتمشى مع عصرنا هذا .

وكل ما تتمناه أن يصادف هذا الكتاب من الرضى ما قوبلت به تلك الدروس عند القائها .

والكاتب جريا على عادته أبى أن يقدم لهذه الدروس ، اذ يفضل أن يتركها تتحدث عن نفسها .

جمعية نشر اليوجا

الدرس الأول

بعض الضوء على الطريق

تحياتنا للطلبة القدماء الذين عادوا الينا لمواصلة الدرس شاعرين بأننا لن نجد داعيا لتكرار ما سبق أن فصلناه فى الدروس الماضية من المبادىء الأساسية التى كانت موضوع تلك الدروس ومادتها ولذلك فاننا سندخل فى صميم الموضوع اعتمادا على استعداد كل طالب منكم لتقبل ما يلقى اليه .

لقد قرأ البعض الدروس السابقة يدفعه حب الاستطلاع فمنهم من أغرته طرافة الموضوع فتعلق به يريد مواصلة درسه ومنهم من لم يجد فيه المثيرات التى توقعها وتطلع اليها ففصل عن القافلة ، ذلك هو الشأن دائما . كثيرون يتقدمون ولكن قليل منهم من يواصل السير . فمن ألف حبة تبذر فى الأرض لا تنبت سوى مائة ، ولكن حسب الزارع تلك المائة فان فى ثمارها ما يجزيه على تعبه ، أما نحن فاننا حين نبذر بذورنا هذه نشعر بارتياح أعظم مما يحسه زارع المائة النامية فان التسعمائة التى تتخلف ستدرك سابقاتها المائة أو تلحق بها فى وقت ما فى المستقبل فان التعاليم الروحية لا يصل الى

شيء منها الفنـــاء والعدم بل تثمر وتؤتى أكلهـــا فى أوان لابد وأن يحين .

نرحب بالطلاب — طلاب هذه الدراســة العليا — ونهنىء أنفسنا بهذا العدد الكبير منهم ، كما نهنىء الطــلاب أنفسهم بما وصـــلوا اليــه من مرتبة تحفزهم الى مواصلة الدرس وتجعلهم مستعدين للتقدم .

سنتخذ من « السبيل الى الوصول » أو الطريق . موضوعا لدرسنا الأول ولسنا نجد منهجا لتسديد خطوات الطــلاب على الطريق خيرا من الاشارة الى المبادىء التى حواها الكتيب المسمى « ضوء على الطريق » الذى وضعته « مابل كولنز » وهى سيدة انجليزية وضعته تلبية لطلب عقل قطع فى الطريق شوطا بعيـــدا (لا ندرى ان كان صاحب ذلك العقل فى هذه الدار أو فى الدار الآخرة) وبوحى منه .

لقد أشرنا فى آخر درس ألقيناه الى عزمنا على اخراج كتــاب يوضح (معالم الطريق) ولكننا بعد ترو رأينا أن نجعل ذلك الكتاب مادة لهذه الدروس بدل طبعه . ذلك لأننا رأينا أننا بهذه الطريقة نستطيع أن نتحدث فى اسهاب وفى غير تحفظ اعتمادا على أن الطلاب الذين أتموا المرحلة الأولى سيتفهمون ما نلقيه اليهم أكثر

مما يصل اليه فهم جمهرة القراء ، لذلك فإن الكتاب لن يطبع وستلقى مادته فى هذه الدروس .

سنقتطف من الكتيب (ضوء على الطريق) مبدأ بعد مبـدأ أو قاعدة بعد قاعدة مردفين كل قاعدة بشرح يلقى على مبهمهـا ضوءا يوضحها ويظهر ما خفى من معانيها .

ومن الخير فى هذا المقـام أن نعلن أن « ضوء على الطريق » كتاب من نتاج الالهام وأن عباراته صيغت صياغة معنيا بها الى الحد الذى يجعلها تحتمل الكثير من التأويل والتفسير ، انه يحمل رسالة تصلح لمستويات متفاوتة من مستويات الحياة يأخذ منها كل قارىء ما يتفق والمستوى الذى بلغه من التقدم ، فهو من هـذه الناحية يختلف عن غيره من المؤلفات ويجب أن يتهيأ القارىء لهذا الكتيب بشىء قبل ان يكون قادرا على أن يحصل منه على شىء .

لقد وضع كتاب « الطريق المضاء » تفسيرا لهذا الكتاب على أسس نفسية أو (كوكبية) شبه روحية ولكن تفسيرنا له سيوضع بحيث يكون هاديا للطالب المبتـدىء وقد هم بدخول الطريق ، سيوضع هاديا للمريد .

سـنحاول أن نفسر قواعـده الأولى ونشرحها فى ضـوء الـ « كارما يوجا » (العمل) أولا بأن نشير الى معناها القريب ثم المعنى المتصل بالغايات السامية والرغبة فى المستويات الرفيعة ،

وأخيرا نوضح هذه القواعد بالنسبة لتفتح الوعى الروحى ، وهو لب ذلك الكتيب ومفتاح مغاليقه فى نفس الوقت .

سنحاول أن نوضح للقارىء ما خفى من معانى ذلك الكتيب وأن نضع فى كلمات بسيطة ، من غير تجميل ، تلك المعانى والأفكار الخلابة التى يصوغها الشرق من خياله الشعرى .

لن يتعارض عملنا مع التفسير الذى جاء فى كتاب « الطريق المضاء » بل سيسير معه جنبا الى جنب فقط على مستوى من مستويات الحياة غير المستوى الذى وضع ذلك التفسير عليه .

وقد يلوح للبعض أنها جرأة منا أن نحاول تفسير تلك الدرة من درر التعاليم الروحانية الخفية « ضوء على الطريق » ولكن هذه المحاولة حازت موافقـــة أولئك الذين تظفر آراؤهم بكل احترامنا وتقديرنا ، كما أنها — وهذا ما يهمنا نحن أكثر — تصادف هوى فى (نفسنا العليا) ومهما كان عملنا غير ناضج فلابد من أن يكون قد قدر للبعض أن ينتفع به والا ما ألهمنا أن نعمله .

(هذه القواعد أعددناها لكل الطلاب . فالتزموها)

هذه القواعد وضعت حقا لكل الطلاب وانه لمن الخير لنـــا جميعا أن نلتزمها ، فان القواعد التى وضعت لهداية الروحانيين أهل الباطن وارشادهم كانت وستظل دائما واحدة فى كل عصر وفى كل بلد مهما اختلفت أسماء المذاهب . لأنها ترتكز على الحق ، وقد

جربت واختبرت على مر العصور منحدرة الينا عبر الأجيال الطويلة حتى تسلمناها وعليها آثار من تداولوها فى رفق وعناية من اخواننا فى الروح ، أولئك الذين قطعوا الطريق التى نهم الآن بدخولها ، الذين عرجوا على المرتفعات التى سنصل يوما لارتقائها . هـذه القواعد لكل السائرين فى الطريق وضعت لهم وليس ثمة خير منها ، وقد جاءتنا من أولئك الذين يعلمون .

(قبل أن تستطيع الأعين الابصار يجب أن تجمد فلا تستطيع أن تسكب الدموع ، وقبل أن تستطيع الأذن السمع يجب أن تفقد حساسيتها ، وقبل أن يستطيع الصوت ارسال الكلام فى حضرة المعلمين يجب أن يفقد القدرة على الايلام واثخان الجراح ، وقبل أن تستطيع النفس أن تقف فى حضرة المعلمين يجب أن تغسل قدميها فى دم القلب) .

قبل أن تستطيع العين أن تبصر بصفاء ابصار الروح ، يجب أن تتخطى مرحلة البكاء على الكرامة المجروحة والنقد الجائر والاساءة بغير حق والملاحظات العدائية واللمز والهزء والسخرية الى آخر مضايقات الحياة فى كل يوم والفشل وخيبة الأمل التى تحملها أطواء الحياة . لسنا نريد بذلك أن تقسو النفس وتتحجر ازاء هذه النازلات ، فان القسوة على النقيض ليست من التعاليم الروحانية فى شىء . الانسان فى حالته العادية على الصعيد المادى يجد نفسه

دائما تحت رحمة الغير من أمثاله وكلما ازداد احساسا بآلام الحياة التى تنصب عليه ممن حوله ، وكلما حاول رد الكيد بمثله ودفع الشر بالشر والوخز بالوخز ازدادت شبكة الحياة المادية اطباقا عليه وتقييدا له .

ان فرصته الوحيدة فى النجاة تنحصر فى ارتفاعه بنفسه عن مستوى الحياة المادية وتحليقه فى آفاق العقل والروح العليا ، وليس معنى ذلك أن يفر من العالم ، فان الانسان اذا حاول الفرار من العالم قبل أن يتم تعلم دروسه رد على أعقابه اليه مرة بعد مرة حتى يستقر فيه ويؤدى واجبه نحوه — يؤدى رسالته . ولكن مع هذا فان الانسان الذى وصل الى شىء من صفاء الروح يستطيع أن يعيش فى غمرة الحياة ، لا بل يستطيع أن يكون من زعماء هذه الغمرة وهذا الصراع ، ومع ذلك يحلق مرتفعا بنفسه عنها فيرى الدنيا على حقيقتها المجردة ، يرى فيها لعبة أطفال بين أشباه الأطفال من الرجال والنساء ، فهو وان اشترك فى اللعبة كأحسن ما يكون الاشتراك ، الا أنه يعلم علم اليقين أنها لهو ولعب وليست هى حقيقة الحياة ولا لبها . فى هذه الحالة يبتسم والدمع يترقرق من عينيه حين يتجندل فى زحمة اللعب ثم يكف عن البكاء اطلاقا وتحتل الابتسامة مكان الدموع ، ذلك لأن الأشياء اذا نظرت على حقيقتها لم يجد الناظر اليها بدا من الابتسام ساخرا من نفسه ومن غيره .

عندما يجيل الانسان النظر حواليه ويرى الدمى الصغيرة التى أوقف الناس عليها جهود حياتهم متناحرين فى سبيلها كأنما هى أهداف الحياة الحقيقية وغاياتها ، لا يتمالك نفسه عن الابتسام اذا استيقظت فى الانسان القدرة على تعرف الأشياء على حقيقتها ، يرى فى الدور الذى رسمه له القدر لكى يقوم به على مسرح الحياة ما يدفعه الى الابتسام . ليس هذا الذى نقوله أحلام حالم أو آراء فى مستحيل الخيال . فلو علمتم عدد كبار الرجال ، الذين يلعبون أدوارا رئيسية فى مسرحية الحياة ، الذين كشفت لهم هذه الحقيقة لعجبتم من كثرتهم .

كثير من هؤلاء الرجال يدل ظاهر الحال على أنهم يقومون بدورهم فى الحياة فى كثير من الحيوية والنشاط كأنما يسعون كغيرهم لتحقيق أطماع وآمال ، ذلك لأنهم يعلمون أن وراء هذه الحياة غاية وأن لها حكمة وأنهم أجزاء ضرورية فى آلة التطور ولكن فى قرارة نفوسهم لا يقدرون ذلك كله أكثر من قدره ويعلمون أنه خيال زائل .

يجب أن يكون سالك الطريق شجاعا وأن يكون مسيطرا على عواطفه الطبيعية ، والدموع التى أشير اليها ليست الدموع نفسها فان هذه الدموع قد تطفر من العين بغير ارادة فى وقت يشرق الوجه فيه بالابتسام . الغرض هو ادراك أن شيئا فى الوجود لا يستحق

البكاء ، ان الغرض هو الدافع على البكاء ، الدافع على سفح الدموع لا الدموع نفسها .

والدرس الذى تتعلمه من هاتين القاعدتين هو أن نرتفع فوق الأحداث الشخصية وأن نعمل على تحقيق الفردية ، وأن نسعى للوصول الى الوعى ، الى معرفة الذات = الأنا ، الى الشعور بالذات (أنا كائن) . وتكوين الشخصية الحقيقية التى تسمو على مشاغل الانسان الفردية وأن نعلم أن هذه المشاغل لا تؤثر فى الروح ولا تصل اليها وستغسلها مياه الأبدية من رمال الزمن .

كذلك يجب أن تفقد الأذن قوة احساسها بتفاهات المسائل الشخصية التى لا تسر قبل أن تستطيع الانصات الى الحقيقة فتسمعها واضحة ، خالصة من الأصوات المتعالية من احتدام معركة الحياة .

يجب أن يسمو الانسان حتى يستطيع أن يسمع هذه الأشياء وهو يبتسم مطمئنا لعلمه بحقيقة النفس وقوتها وبما قدر لها [١] .

يجب أن يكبر الانسان حتى يكون قادرا على أن يسمع الكلمة القاسية والنقد الجائر والتعريض الممض اللاذع بدون أن تترك فى نفسه أثرا ، يجب أن يدع هذه المنغصات فى مستواها المادى

---

(١) هذا هو صاحب النفس المطمئنة . (المترجم)

الذى يخصها ولا يسمح للنفس أبدا أن تهبط الى حيث يمكن أن تتأثر بها .

يجب أن يتعلم الانسان أن يسمع عبارات السخرية والاحتقار توجه الى مثله العليا ممن لا يفقهون اذ لا لوم عليهم لأنهم يفعلون مالا يدركون . دعوا الأطفال يلعبون فهذه طبيعتهم وسيأتى يوم يعانون فيه آلام النمو الروحى ويجتازون هـذه المرحلة التى تجتازونها أنتم الآن . لقد كنتم يوما مثلهم وسيكونون مثلكم يوما ما . اعملوا بالقول القديم ودعوا هذه الأشياء تدخل من أذن وتخرج من الأخرى ولا تدعوها تصل الى الاستقرار فى النفس ، عند ذلك تستطيع الأذن أن تسمع ما أعد لأن تسمعه وتهىء ممرا خاليا لدخول الحق .

نعم (وقبل أن يستطيع الصوت أن يرتفع بالكلام فى حضرة المعلمين يجب أن يفقد القدرة على أن يجرح) .

ان الصوت الذى يقدح ويكذب ويسىء ويشكو ويجرح لا يمكن أن يصل الى المستويات الرفيعة التى يقيم فيها الذين أوتوا العلم وارتفعوا درجات .

قبل أن يتكلم بحيث يسمعه أولو الألباب الذين سموا الى المستويات الرفيعة يجب أن يكون قد نسى منذ أمد بعيد كيف يهجو فيمض ويجرح .

الرجل السامى لا يتردد فى قول الحق حتى ولو كان قوله غير سار ان كان الصواب فى ذلك ، ولكنه يقوله بلهجة الأخ المحب الذى لا يوجه النقد ولسان حاله يقول أنا خير منك وأتقى . ولكن كمن يرى أخاه قد ضل فيرشده ويمد له يد العون .

مثل هذا يكون قد باعد بين نفسه وبين الرغبة فى المشادة وطعن الغير بالقاسى من الكلم ، يجب أن تنزع هذه الأشياء وتلقى جانبا كما ينزع الثوب البالى ، فان الرجل السامى ليس بحاجة اليها .

(قبل أن تستطيع النفس أن تقف فى حضرة المعلمين يجب أن تغسل قدميها فى دم القلب) .

هذا (قول قاس) على الكثيرين ممن يهمون بدخول الطريق وكثيرون يضلون عن حقيقة معنى هذه القاعدة لما يفهمونه من معنى كلمة القلب ، انهم يظنون أنه يعنى (خاصية الحب) ولكن ليس هذا هو المقصود ، فالتعاليم الروحانية لا تهدف الى قتل الحب الحقيقى ، انها تعلمنا أن الحب من أعظم خصائص الانسان وانه ينمو مع نمو الانسان الروحى حتى يسيطر على حياته كلها .

القلب هنا يراد به الشهوة الجنسية الغريزية التى تنبـع من العقل الحيوانى ، وهذه تكون فى حياتنا العادية ، قبل أن تتقدم ، جزءا له من الأهمية ما يجعل التخلص منها يشبه انتزاع القلب من بين الضلوع حتى ليكاد أن يتمزق .

فاذا تخلصنا من هذه الأشياء واحدا بعد الآخر ، تلك الأشياء التى كان يتعلق بها القلب ، شيئا بعد شىء كنا منتزعين القلب منها بكثير من الألم والعذاب حتى لكأن القلب يراق دمه فتغسل النفس قدميها فى دمائه المهراقة . فالشهوات ونداء الطبيعة الحيوانية لتلبية حاجات الجسد والعادات القديمة والعرف والتقاليد والأفكار المتوارثة وغرور الشعوبية وما يحسه الانسان كذبا من سمو جنسه على غيره من الأجناس كل هذه الأشياء غرائز سرت فى الدم وامتزجت باللحم والعظم والتخلص منها شيئا بعد شىء يصحبه أسى ولوعة وشكوك تدمى القلب فى أول الأمر حتى يصل الانسان الى درجة يدرك فيها حقيقة كل شىء .

ليست الغرائز البهيمية وحدها هى التى ننتزعها من القلب وننتزع القلب من تلافيفها ولكن يجب أن تتخلى عن الكثير من الأشياء التي كانت تبدو عزيزة علينا ومقدسة لدينا ولكنها تحت الضوء الذى يبدأ العقل الروحى يفيضه علينا تبدو كأنها تصورات صبيانية ، ومع ذلك وبالرغم من اكتشاف حقيقتها هذه فاننا نجد من المؤلم أن نفارقها فنبكى لفراقها وينفطر القلب أسى عليها .

وكثيرا ما نصل الى مفترق الطرق حيث نودع زمالة عقلية عزيزة اذ تترك الأصدقاء الأعزاء يسيرون فى طريقهم القديم أما نحن فنتخذ طريقا جديدا من طرق الفكر لا عهد لنا به من قبل

وفى هذا لنا ألم يزيده هول الوحدة العقلية والروحية التى نواجهها بعد أن نخطو الخطوات الأولى على الطريق الجديد ، انها احساسات (العهد) عرفتها نفوس الكثيرين من القراء الذين دخلوا الطريق ، شعور رهيب بوحـــدة موحشة لا تجد فيها أحدا يفهم حالك أو يقدر ما بك .

ثم يأتى بعد ذلك الاحساس الذى تولده رؤية معضلات الحياة بينما لا يرى الناس فى الحياة معضلة واحدة فى حاجة الى حـــل ولذلك يقطعون مراحل الحياة متحاربين متنافسين متباغضين تبدو عليهم كل مظاهر العمى الروحى ، بينما تقف أنت وحدك تشاهد المنظر المفجع وعندها ينسكب دم القلب للشعور بآلام العـــالم والفشل فى فهم سرها والعجز عن الوصول الى علاج لها ، كل هذا يدمى قلبك ومصدره يقظة روحك . أما الغـــارقون فى المـــادة السائرون فى فلك الحياة العادية فانهم لا يرون شيئا من هـــذه الأشياء ولا يحسون بوجودها .

حينئذ وقد اغتسلت قدما النفس فى دم القلب تبدأ العين ترى الحقائق الروحية وتبدأ الأذن تسمع أصواتها ويستطيع اللسان أن يتحدث بها للآخرين وأن يتجاذب أطراف الحديث مع الذين تقدموا سائرين على الطريق ، وتستطيع النفس أن تنتصب واقفة وجهـــا لوجه مع نفوس من سبقوا على الطريق لأنها بدأت تفهم أسرار

الحياة ومعنى ما يدور فيها ، لقد وقفت على شيء من الخطة العظمى للوجود وبدأت تدرك حقيقة نفسها وتقول (أنا موجودة) وهى تعى ما تقول ، لقد وجدت نفسها وقهرت الألم لأنها سمت فوقه .

اصطحب هذه الأفكار فى (الصمت) ودع الحقيقة تترسب فى عقلك عسى أن ترسل جذورها وتنمو وتزهر وتؤتى ثمارها .

١ — اقتل الطمع (أو الطموح) .

٢ — اقتل رغبة الحياة .

٣ — اقتل الرغبة فى الترف .

٤ — اعمل كما يعمل الطامعون الطامحون واحترم الحياة كما يحترمها الراغبون فى الحياة وكن سعيدا مثل أولئك الذين يعيشون وهدفهم السعادة .

كثير من حقائق الروحانيات الخفية يدون على شكل الأحاجى أو الألغاز لتظهر جانبى الدرع وهذا يتفق مع خطة الوجود ، وكل تعريف للحقيقة انما هو تعريف جزئى ولكل قضية وجهان سليمان فابحث تجد لكل حقيقة وجها آخر غير وجهها البادى . كل شيء كائن وغير كائن ، فكل تعبير يقصد به أن يشمل الحقيقة بوجهيها ، يجب أن يتخذ شكل الأحجية ذلك لأن وجهة نظرنا المحدودة تمكننا من ادراك ناحية واحدة فى الوقت الواحد ، أما لوجهة النظر غير المحدودة اللانهائية فان كل النواحى تظهر دفعة واحدة . أن

الكرة تظهر للنظر غير المحدود من كل جانب وحتى داخل الكرة يبدو لهذا النظر غير المحدود كما يبدو ظاهرها .

هذه القواعد الأربع أمثلة لما ذكرنا وهى فى نظر الرجل العادى لا تستحق الالتفات لتناقضها ولأنها غير مفهومة ومع ذلك فهى صحيحة يقرها العقل فلنجرب تفسيرها .

ان مفتاح فهم هذه الحقائق وما يماثلها انما هو القدرة على التمييز بين (النسبى) أو الأدنى ، (والمطلق) أو الأعلى من وجهات النظر ، اذكر ذلك جيدا فانه سيساعدك على الرؤية خلال زوايا تسودها الظلمة الكثيفة وتسهل فهم الكثير من الأقوال المستعصية ولنبدأ بهذه القواعد الأربع .

قيل لنا (اقتل الطمع أو الطموح) . ان الرجل العادى سيشمئز من هذا القول ويصيح قائلا ان اتّباعه يحيل الرجل مخلوقا تافها لا روح فيه فان الطموح هو أساس كل ما يحقق الرجل من غايات فاذا هم بالقاء الكتاب جانبا وقرأ القاعدة الرابعة (اعمل كما يعمل الطامحون) واذا هو لم ينظر الى القول بعين العقل الروحى فان الأمر يزداد عليه التواء وتعقيدا ولكن الأمرين سليمان وقابلان للاتباع . فالطموح أو الطمع المشار اليه فى القاعدة الأولى هو التفاخر والزهو والأنانية التى تدفع الانسان الى سحق كل من يعترض طريقه فى غير رحمة . هذا طموح زائف يختلف عن الطموح

الحقيقى وهو شبيه بالجوع الكاذب أو الرغبة الكاذبة فى الطعام اذا قيست بالجوع الحقيقى الذى يعبر عن فراغ المعدة وحاجة الجسم الى عناصر البقاء فى صورة الطعام ، وهو شبيه كذلك بحب الزينة الذى يدفع الناس الى ارتداء السخيف من أنواع الثياب بدل سد الحاجة بقليل من الثياب التى تدفع عن الانسان أذى الطقس ، أو كالرغبة فى اقتناء القصور الباذخة وما تجره فى أذيالها من أعباء مالية ثقال تهد الأعصاب وتقض المضجع بالتفكير فى الحصول عليها والاحتفاظ بها بدل ما يحتاج اليه الانسان من دار معقولة يأوى اليها ويسكنها . ونراه فى صورة أخرى فى اندفاع الكثير من الرجال والنساء فى مغامرات غرامية معربدة صاخبة بدل الصلة الطبيعية المشروعة بين الرجل وزوجه التى وضعت أصلا لحفظ الجنس واستمراره .

ان الرجل الطموح الطامع الشره يجن حبا فى الوصول الى أهدافه لأن الرغبة الطبيعية تحولت الى شذوذ وسعار ، انه يظن أن الأشياء التى يجرى وراء الحصول عليها ستجلب له السعادة الحقيقية ، انه يربط نفسه بهذه الأشياء التى صنعها خياله وتخيل فيها سعادته فيصبح عبدا لها شقيا بها ، بدل أن يكون سيدها الذى وجدت لخدمته .

انه لا يجمع المال لأنه وسيلة الحصول على الضرورات اللازمة

لغذاء الجسم والروح له ولغيره ، ولكنه يجمعه لذاته ، انه يجمعه بعقلية البخيل الشحيح ، انه يسعى لأن يصبح ذا نفوذ ارضـاء لكبريائه وغروره ، حتى يرى الناس أنه أكثر من غيره جاها وأعز نفـرا .

كل هذه أطماع صبيانية تافهة صغيرة لا تليق بالرجل الحقيقى ولابد للرجـل اذا أراد أن تنمو رجولته وأن يتقدم بين الرجال أن يكبر ويترفع عن هذه التفاهات والأمجاد الزائفة .

لعل هذه الدروس التى يتلقـاها هى الدروس التى يحتاجها لينمو وعيه وينضج .

ان الرجل ذا الأطماع غير العادية يعمل ليحصل على الأشـياء جريا وراء المنفعة الشخصية حتى اذا حققها خاب فأله لأنه انما يعتمد على أشياء لا خير فيها متى جد الجد ، ولا تنفعه ، انه يستند على قصبة مرضوضة تجرح يده ولا تسنده .

والآن لنلق نظرة على الجانب الآخـر من الدرع . تقـول القاعدة الرابعة (اعمل كما يعمل الطامعون الطامحون) ، ان من يعمل بهذه القاعدة يبدو للناس وكأنه نفس ذلك الطامع الطامح ولكن الشبه ظاهرى فهذا رجل حقيقى وذاك مزيف .

الرجل الذى يعمل العمل استجابة لما يجيش فى نفسه من الرغبة فى العمل لارضاء غريزة الخلق والابداع الكامنة فيه هو الرجل

الحقيقى ، هذا الرجل ينتج ما هو خير وأبقى مما ينتجه الآخر . ثم هو يظفر فى عمله بالسعادة لأنه يشعر بأنه يمكن قوة الخالق المبدع من الابداع بواسطته فيصنع العظائم ، انه ينجز عمله وهو سعيد به وبما ينتجه ، وما دام مخلصا لمثله العليا فانه يظل مطمئنا ثابتا فى سعادته هذه قائما بما فرض عليه من عمل حق القيام .

ولكن قد يحدث له وهو يرقى سلم النجاح فى الطريق أن يقع فريسة مغريات شديدة الاغراء . فيجرى وراء المطامع الدنيوية ويجعلها تتمكن منه .

ونتيجة هذه السقطة أنه يعود الى تعلم الدرس من أوله مرة بعد مرة حتى يحسن تعلمه .

ان كل رجل له فى الدنيا عمل يعمله وعليه أن يعمله كأحسن ما يستطيع وأن يعمله منشرح الصـــدر بكل ما يملك من حذق ومهارة ، وأن يترك لنفسه العنان لتجيد العمل كل اجادة وتبذل فيه كل مقدرتها حتى تبز كل من سبقها اليه لابغية الظهور عــلى الغير والانتصار عليهم ، ولكن لأن الدنيا تحتاج الى التحسين والتجديد .

ان الروحانية الحقيقية والتصوف الصحيح لا يدعوان الرجل الى أن يجلس طول يومه لا يعمل عملا الا التأمل وقد ثبت عينيه على (سرته) كما يفعل بعض جهلة فقراء الهنود ودراويشهم الذين

يقلدون اصطلاحات أساتذة اليوجا وكلامهم تقليدا غير صحيح يمرغون بذلك تعاليمهم فى الوحل ، بل على العكس ان من تعاليمها ان واجب الانسان والذى ميزه به الله هو أن يساهم بعمل من أعمال الدنيا وان من ينفع الناس بعمل لا عهد للناس بمثله يكون مباركا بين الرجال ويعتبر من المحسنين الى الانسانية .

انها تؤمن بوجود قوة الهية دافعة الى الخلق والابداع فى كيان كل رجل وكل امرأة وتحض على تمكين هذه القوة من أداء رسالتها على أحسن وجه ، وان الحياة التى لا يتم خلالها عمل ينفع الناس لا خير فيها وان العمل المنتج النافع سبيل الى التقدم الروحى بل هو عنصر من عناصره .

انها لا تجد جمالا فى القيام بالعمل كالآلة الصماء ، فهذا عمل لا خير فيه ولا جمال . ولكنها تعلم الناس أن أحط الأعمال وأقلها قيمة ، فيها متعة اذا أقبل عليها الانسان مخلصا وجدها ووجد فى أدائها سرورا يهديه الى طريقة أحسن لأدائها فيضيف بذلك الى الوجود جديدا من الخبرة والعلم .

انها تعلم الطموح الحقيقى ، العمل حبا فى العمل ، لا العمل جريا وراء الفائدة الدنيوية الزائلة . ولذلك فحين تقول القاعدة (اقتل الطمع أو الطموح .. اعمل مثل ما يعمل الطامعون الطامحون) تدرك الغرض منها الآن . ان هذا الطريق من الحياة سهل على تابعى

(الكارما يوجا) وهى فرع عظيم من فروع اليوجا ربما وفقنا للكتابة عنها فى المستقبل.

اقرأ هذه الكلمات مليا حتى تتمكن من معانيها وأدم قراءتها حتى تتذوقها وتحس أثرها مثل رؤيتك لحروفها.

ان خلاصة هذه التعاليم عن موضوع الطمع هى :

اقتل الطمع الذى يربطك بنتائج العمل وأجره والذى لا يجر فى أعقابه الا الحسرة وعدم التقدم الروحى.

ولكن تمسك بالأمل الذى يدفعك الى أن تعمل لترضى بعملك غريزة حب الخلق والابداع التى وضعها الخالق فيك فتؤتى ثمرتها على أحسن وجه ، وأن تؤدى رسالتك التى خلقت من أجلها أحسن أداء حتى تبز من سبقك ان استطعت وأن يكون ذلك منسجما فى توافق وتناسق مع تيار الخلق والابداع الذى يتدفق فى الحياة من حولك.

دع قدرة الخالق التى أودعها فيك تؤدى عملها على أحسن وجه وتظهر نفسها للملأ ، افتح كيانك كله لها لتجوس خلالك حتى تتذوق شعور الفرح الذى يسببه العمل الذى تؤديه تلك القدرة ، ان هذا هو الطموح الحقيقى. أما العمل الذى ينظر صاحبه الى أجره قل أو كثر فهو عمل زائف يسبب انكماش الروح وتصغيرها.

والقاعدة الثانية تقول (اقتل الرغبة فى الحياة) ، وتردد القاعدة

الرابعة صدى القول (احترم الحياة كما يحترمها الراغبون فى الحياة) . وهذه حقيقة أخرى صيغت فى أحجية .

يجب على الانسان أن يمحو من العقل فكرة أن الحياة الدنيا هى كل شيء فان مثل هذه الفكرة تحول دون الادراك الأسـمى للحياة ، حياة النفس ، وتجعل حياة الجسد هذه كل شيء بدل أن تكون مثل حبة رمل على شاطيء البحر الذى لا نهاية له .

يجب أن يعلم الانسان أنه سيظل حيا دائما سواء كان فى الجسد أو خارجا عنه وان هذه الحياة الجسدية الفانية شيء تستعمله النفس التى لا تموت . لذلك يجب أن تقتل تلك الرغبة فى الحياة التى تحملك على الخوف من الموت والتى تجعلك تولى هذه الحياة الجسدية فوق ما تستحق من الاهتمام الذى يبلغ حد الافتئات على الحياة الأوسع حياة الروح ووعيها .

اقتلع من عقلك تلك الفكرة القائلة بأنك تنتهى حين يموت الجسد ، لأنك بعد موته تظل حيا كما أنت الآن بل ربما كنت أكثر حياة ، اعرف للحياة الجسدية حقيقة قدرها ولا تكن مخدوعا وكف عن النظر الى الموت نظرة الرعب والهلع سواء أقبل عليك أو أطبق على من تحب . ان الموت طبيعى كالحياة تماما (فى مرحلتنا هذه من التطور) نسعد به بقدر ما نسعد بالحياة .

انه لعسير أن تنفض عنا الشعور القديم بالفزع من فنـاء

الجسد ولابد للانسان من قتال مرير قبل أن يصرع هذا الوهم البالى الذى علق بالبشرية بالرغم من الايمان بحياة أخرى ذلك الايمان الذى يتردد باستمرار على لسانها .

تبشر الديانات بالحياة الأخرى التى يجب أن يصبو اليهـا المؤمنون جميعا ، ولكن هؤلاء المؤمنين يرتجفون ويرتعدون من فكرة الموت ويلبسون السواد حزنا عندما يموت لهم صديق بدل أن ينثروا الزهر لأنه انتقل الى دار أحسن (هذه الكلمة التى تلوكها الألسن فى مثل هذه المناسبة وليس فيها تعزية للمحزونين) .

يجب أن يحس الانســان بالحياة الدائمة المستمرة وأن يعيها وعيا ايجابيا قبل أن يستطيع أن يتخلص من هذا الخوف القديم (الخوف من الموت) . ولن يستطيع دين أو عقيدة أن يحقق هذا الهدف حتى يصل الانسان الى تحقيق هذا الاحساس ويعى هذا الوعى .

ان الشخص الذى يصبح هذا الاحساس فى نفسه وعيا باستمرار حياته بعد الموت ، هذا الشخص يتجرد الموت فى نظره من رهبته ، والقبر من هوله ، وبذلك يكون قد قتل الرغبة فى الحياة القصيرة هذه اذ حل محلها العلم بأن الحياة دائمة لا نهاية لها .

ولكن ليس لنا أن ننسى الجانب الآخر من الدرع . اقرأ القاعدة الرابعة (احترم الحياة كما يحترمها الراغبون فيها) ليس معنى

هذا احترام حيـــاة الغير فقط بل يشمل احترام الانسان لحياته الجسدية أيضا فعند التخلى عن فكرة الاهتمام والتعلق بالحياة الدنيا يجب أن لا نصل الى نقيضها باهمال الجســـد وعدم توفير حاجاته .

جسدك هبة من القوة الخالقة لحكمة ، وهو فى الواقع هيكل الروح ، فلو لم يكن من الخير أن يكون لك جسد لما كان لك ذلك الجسد . انك محتاج له فى مرحلتك هذه من مراحل التطور وبدونه تكون غير قادر على العمل للوصول الى الصفاء الروحى فاياك أن تنساق الى ضلالة احتقار الجسد والحياة الجسدية على أنهما مما لا يليق بك . انهما خير ما يليق بك فى هذه المرحلة وبهما تستطيع تحقيق أهداف سامية . ان احتقارك لهما مثله كمثل رفضك السلم الذى يساعدك على الوصول الى العلا . يجب أن تحترم الحيـــاة كما يحترمها الراغبون فيها وأن تحترم الجسد كأولئك الذين يحسبون أن الجسد هو كل شىء .

يجب أن يعتبر الجسد آلة النفس والروح وعدتهما وأن يحتفظ به نظيفا صحيحا قويا الى أبعد حـــد ممكن من القـــوة والصحة والنظافة .

ويجب الالتجاء الى كل وسيلة لاطالة مدة الحياة فى الجسد الذى أعطيته .

يجب احترام الجسد واستعماله على خير وجه . لا يجوز أن تقعد محزونا على هذه الحياة وقيودها فانك لن تمنح فرصة أخرى للقيام بما يتاح لك الآن من اختبارات فاغتنم هذه الفرصة أحسن اغتنام .

ان حياتك شيء عظيم له خطره وقدره ويجب أن تعيش دائما فى وقتك الحاضر (الآن) مستنفدا من كل لحظة من الحياة ما فيها من مسرة تحملها للرجل الواصل البصير .

« الحياة — الحياة — مزيدا من الحياة » ، قال ذلك كاتب ولقد أصاب .

عش كل لحظة من حياتك معيشة قويمة صحيحة معتدلة عارفا لها حق قدرها غير آسف على ماض أو خائف من مستقبل . انك فى الأبدية الآن كما ستكون فى أى وقت قادم فلم لا تتمتع بهـا لأقصى حد ، الآن هو الحياة دائما ، (والآنات) لها معين لا ينضب ولا نهاية لها .

فان سألتنا اجمال فكرة قتل الرغبة فى الحياة والجانب الآخر للفكرة (احترامها كالراغبين فيها) قلنا ان الرغبة فيها خطأ اذا اعتبرت الحياة الحالية كل شيء ، والرغبـة حق اذا اعتبرت حياة الانسان هنا حلقة فى سلسلة الحياة الخالدة .

فاذا كان الانسان الواعى لايتعلق بالحيـــاة ، فعليه فى نفس الوقت ألا يحتقرها لأنها ليست كل شىء فيركز اهتمامه بها وهى ليست لاشىء فيزهد فيها ويهمل أسبابها ويحتقر مقوماتها حاسبا أنه بذلك الزهد ينفذ مشيئة الخالق . وقد أراد الخالق له هـــذه المرحلة من الحياة حلقة فى سلسلتها يعنى بها عنايته بالخلود . فليس له أن يهملها فانها جزء من الكل ، ولا أن يستغنى بها عن الكل فما هى الا جزء منه .

الرجل الواعى لا يخاف الموت ولا يطلبه فهو لا يهاب الحياة ولا الموت ولا يتعلق بأيهما ، ويرحب بهما جميعا . ومثل هـــذا الرجل أو المرأة لا يقهر وليس فى الحياة أو الموت ما يرهبه ، ان من يصل الى هذه الدرجة يمتلىء بقوة ينبعث اشعاعها وأثرها فى العالم المحيط به .

أذكر هذه الكلمات :

لا تخف الحياة ولا الموت ولا ترهب الردى ولا تطلبه ، فان بلغت هذه الدرجة عرفت حقيقة الحياة وحقيقة الموت ، انهما فى الواقع مظهران (للحياة) .

ونتنقل الى القاعدة الثالثة .

(اقتل الرغبة فى الترف) ، ظاهر هذه القاعدة حض عـــلى الزهد الشديد ولكن ليس هـــذا حقيقة معناها . ان الكثير مما

يسمى تقشفا وزهدا ما هو الا فرار من الأشياء التى نعتبرها سارة ممتعة .

يعتقد معظم الذين على شىء من التمسك قل أو أكثر بأى دين من الأديان أن الشىء الذى يبعث فى النفس السرور واللذة يجب حتما أن يكون شرا ، حتى لقد كتب كاتب (انه لشىء محزن حقا أن نرى كل الأشياء السارة الجميلة فى الحياة شرورا ، والتمتع بها خطايا وذنوبا) .

ويبدو أن هناك عقيدة سائدة بأن الله يجد مسرة فى مصائب الناس وفى رؤيتهم تعساء عاملين مالا يسرهم حتى ان الكثيرين ممن يوصفون بالتدين يعبسون لمباهج الحياة العادية يعيشون وكأنهم يؤمنون بأن الابتسامة ، مجرد الابتسامة عمل يغضب الله . وهذا خطأ فكل ما يسر من الطيبات قد أعطى للانسان حلالا يتمتع به على ألا يصبح الانسان خاضعا لشىء من هذه الأشياء .

يجب أن يكون الانسان دائما سيدا لا عبدا لمباهج الحياة .

فى بعض الطرق توصى التعاليم بتنمية الارادة وتقويتها وفى سبيل ذلك تفرض على المريدين رياضات تتضمن أمورا كريهة قل من يستطيع الصبر عليها ، ولكن فرض هذه الرياضات ما هو الا لتقوية الارادة فى الانسان ، وليس لأن فى الأمور الكريهة

نفسها فائدة أو لأن الحرمان نفسه فيه فضيلة ، انما الفكرة كلها فى أن تتمرس الارادة بالمقاومة والصبر على الحرمان من الأشياء ، والصبر على الأعمال التى لم يتعودها الانسان ، فان ممارسة تلك الخطة واتباعها يولد حتما قوة الارادة .

ان الامتناع عن متعة أو القيام بعمل فيه مشقة كالامتناع عن الطعام فى الصيام أو قيام الليل للصلاة رياضة شبيهة بتمرين عضلة على تحمل مالا عهد لها به حتى تقوم به فى يسر وسهولة . هذه رياضات ومناسك فيها خير وربما نعود للحديث عنها ان أتيحت الفرصة فى الدروس القادمة . ان الصيام أياما والصلاة دأبا لهما قيمة على هذا الأساس المشار اليه ، قيمة كبيرة لمن ينعم النظر .

ونعود الى موضوعنا ، ان القاعدة لم توضع للحض على التقشف ، فالروحانية لا تصر عليه حتما ، انها تأمر الرجل بعدم الانهماك فى ملذات الحياة ومتعها والتعلق بها حتى تستهويه فينصرف اليها فيتوقف عن التقدم وعن الوصول بالنفس الى علاها ، فان الانسان قد تبطره النعمة اذا زادت فتدمره . ولقد عرفت حالات كثيرة عمدت فيها القدرة العليا الموكول اليها الاشراف على (الطريق) ، عمدت الى الرجل فجردته من تلك الأشياء

التى عاقت تقدمه ووضعته تلك القدرة فى المركز الذى يرغمه على الحياة العادية وبذلك يمكنه أن يتقدم فى سبيله .

ان الروحانية تدعو الى البســاطة فى العيش فانها ترى أن الانسان اذا كثرت الأشياء التى يملكها كان عرضة لأن يدع تلك الأشياء تتملكه بدل أن تكون ملكا له فيصبح عبدا لها بدل أن يكون سيدها .

(قتل حب الترف) لا يعنى أن ينام الانسان على الخشن من الفراش كأنما ذلك فضيلة يتقبلها الله بالرضى ، ولا أن يأكل الانسان كسرات يابسات طامعا من وراء ذلك فى رضى الله ، فليس فى أى العملين فى ذاته مرضاة الله ، ان الله سبحانه لا يرضى أن يرى أحد عياله (والخلق عيال الله) قائما بعمل فيه جهالة تقرب من العتــه . ولكن القاعدة تفرض علينا ألا نجــرى وراء أى نوع من الترف وألا تتصور أن السعادة الحقة تكسب بمثل هذه الوسائل . تمتع بالعادى المعقول من مباهج الحياة ، ولكن كن دائمــا محتفظا بسلطانك عليها ولا تسمح لها بأن تجمح بك واذكر دائمــا أن السعادة تأتيك من داخلك وان هذه المتع وهذا الترف ليسا من مستلزمات الرجل الحقيقى . وانها يجب أن تستعمل فيما جعلت له وألا يجعل لها شأن أكثر من قيمتها .

ان المتع وأسباب الترف من أعراض الدنيا الزائلة ولا يصل تأثيرها الى الروح والرجل المتقدم فى الطريق يستعمل هذه الأشياء كآلات أو عدة وربما استعملها كلعبة يلهو بها عندما يجد ألا محيص من المشاركة فى لهو الحياة الذى يشغل الناس ولكنه فى هذا كله يعرفها على حقيقتها فلا ينخدع بها ويجد من السخفه الظن بأنها ضرورية لاسعاده .

وكلما تقدم الانسان روحيا مال ذوقه الى البساطة ، قد تعجبه الأشياء المتازة فى صنعتها ونوعها وتصلح لما خلقت له خيرا من مثيلاتها ولكن القليل منها يفى بحاجاته فان الاستكثار لغرض التفاخر والتظاهر يصبح غريبا على ذوقه وميوله . انه لا يقتل فى نفسه هذا الذوق وهذه الميول ولكنها من نفسها تتحول عنه وتتركه لأنها تجد ربوع عقليته أصبحت غير صالحة لاقامتها فيها .

واذكر أن القاعدة الرابعة تأمرك بأن (تكون سعيدا مثل أولئك الذين يعيشون من أجل السعادة) ، فهذا يضع حدا للعبوس والتجهم ، انها تقول (كن سعيدا) ولا تقول تظاهر بأنك سعيد ، انها تأمرك بأن تكون سعيدا كمن يتخيلون السعادة المزعومة فى الأشياء المادية المحيطة بهم .

هذا هو التعليم الصحيح ، فيجب أن تعيش مرحا مستخلصا ما استطعت من السعادة الصحيحة من كل ساعة تمر بك .

الرجل الروحانى ليس ذلك المتجهم للحياة المتبرم بها ، العابس المقطب جبينه اظهارا لنفوره منها ، ولو أن السائد هو نقيض هذا القول .

ان تفهمه للحياة يرفعه فوق مخاوف البشر ، وعلمه بمصيره يرفع معنوياته ويمكنه من أن يعلو فوق العاصفة ، ويتسنم موج بحر الحياة مستسلما لاندفاعها ترفعه كل موجة على صدرها فلا يبتلعه الموج ، حتى اذا أصبحت الحياة ثقيلة العبء كريهة الحمل فما عليه الا أن يرتفع بنفسه الى هدأة رحاب العقل العليا حيث يجد السلام والطمأنينة اللذين يلازمانه عندما يقفل راجعا لمواجهة تجارب الحياة وأعباء الأيام من جديد .

انه أسعد الناس لأنه تخلص من الخوف ، اذ علم أن ليس فى الوجود ما يخشاه ولأنه جاوز طور خرافات الناس ، تلك الخرافات التى تنغص حياة الكثيرين وتجعلهم فى هم مقيم .

انه نبذ الكراهية والحقد وراء ظهره وأحل مكانهما الحب ، ولا شك أنه أصبح بهذا التغيير أسعد من ذى قبل .

انه يعلم أنه صنيعة الله وأنه من عياله الذين خلقهم لغرض جليل وان الله مثله كمثل الأب الرحيم ، نعم بل والأم الرءوم لا الحاكم القاسى .

انه أدرك أنه قد بلغ أشده وأن مصيره الى حد ما قد أصبح فى يد نفسه ، ان الرجل الروحانى متفائل بطبعه يرى أن كل مافى الوجود خير يعمل لما فيه الخير وأن الحياة تتطور نحو الكمال وأن الحب يملأ الوجود فوقه وتحته وفيه كله .

هذه كلها حقائق تشرق معرفتها على الروحانى وهو يتقدم بالروح ويزداد تقدما فى الطريق فيسعد ، انه أكثر سعادة ممن يعيشون منقطعين للبحث عن السعادة .

ابحث فى القلب عن مصدر الشر واقتلعه . ان الشر ينمو ويترعرع فى قلب المريد المخلص وقلب صاحب الأطماع على السواء ، وأولو العزم دون غيرهم هم الذين يقضون عليه ، أما الضعاف فانهم يتركونه ينمو ثم يثمر ثم يجف ويموت . والشر شجرة تعيش وتنمو حتى تؤتى ثمرتها بعد مراحل عدة فمن أراد سلوك طريق العزم فعليه أن يقتلع هذا الشيء من قلبه وعند ذلك يدمى القلب حتى تكاد الحياة أن تبدو فى طريق الزوال . هذه تجربة لابد من اجتيازها ، قد تحدث عند أول درجة من درجات السلم المحفوف بالمكاره ، الذى يؤدى الى الدخول فى طريق الحياة وقد لا تحدث الا فى المراحل الأخيرة . ولكن أيها المريد تذكر أنه لابد من اجتيازها ، فاجمع همتك واعقد عزيمة نفسك لمواجهتها .

عش لا فى الحاضر ولا فى المستقبل ولكن فى الأبد ، ان هذه النبتة الجبارة لا تعيش فى ظلال الأبدية . ان هذه الوصمة فى جبين الوجود تمحى فى جو التفكير الأبدى .

هذا التحذير مجمل للقواعد الثلاث كما أوضحتها القاعدة الرابعة . انها تأمر الطالب أن يبحث فى قلبه عن التفكير فى الحياة على المستوى المادى وأن يقتلع هذا التفكير . ان هذا التفكير يحمل معه الجانب الأنانى من طبيعتنا ، ذلك الجانب الذى يجعلنا نحسب أنفسنا خيرا من اخوتنا وأننا منفصلون عن الكائنات المماثلة وان لا اتصال بيننا وبين سائر المخلوقات ، واننا مستقلون عن موكب الحياة . انهذا تفكير الجانب السفلى من العقل أو طبيعتنا الحيوانية مهذبة نوعا ما ، هذا الجانب الذى فيه الشهوات والرغبات والعواطف التى توجد على مستوى منخفض . ان هذه الأشياء ليست شرا فى نفسها ولكنها خاصة بمستوى منخفض من مستويات الحياة ، المستوى الحيوانى الذى فرغنا من اجتيازه أو نعمل على الفراغ من اجتيازه لنرقى الى مستوى الانسان الصحيح .

ولكن هذه النزعات الحيوانية تكونت فى أجيال طوال ، فاستقرت فى قاع طبيعتنا ، ولذلك فان استئصالها يتطلب جهد الأبطال ، والسبيل الوحيد لزحزحتها هو أن نحل محلها طريقة

تفكير أعلى منها ، ويحسن فى هذا المقام أن نلفت النظر الى مبدأ مقرر فى التربية الروحية ، نقصد بذلك أن العادة السيئة من السهل التخلص منها اذا استعضنا عنها بعادة طيبة مضادة لها . فان الاقلاع عن عادة سيئة بقوة الارادة عنوة واقتدارا عمل يحتاج الى قوة فوق طاقة البشر ، ولكن ازهاقها بالتضييق عليها بغرس عادة مضادة لتنمو وتحل محلها أسهل بكثير ، وتلك هى الخطة التى تسلكها الطبيعة ، فان العادة الطيبة ستزحم العادة السيئة حتى لا تستطيع البقاء وعندئذ وبعد معركة فى سبيل الحياة تجود بالنفس الأخير ، وهذا هو خير طريق للتخلص من العادات والميول غير المرغوب فيها .

ونعود الى هذه النزوات الحيوانية فنذكر منها الرغبة الجنسية (على المستوى الجسدى ، لأن الرغبة الجنسية لها نواح غير هذه الناحية الجسدية) والبغضاء والحسد والحقد والغيرة والرغبة فى الانتقام وأخذ الثأر وحب السلطان وتمجيد النفس ، فكلها من هذه النزوات . أضف اليها داء الكبرياء فانه من أخطر أدوائها وأخفاها ، لأنه يرجع كرة بعد كرة بعد أن نظن أننا تخلصنا منه وأنه ذهب الى غير رجعة ولكنه فى كل مرة يرجع فى ثوب جديد فاذا تغلبنا عليه فى المحيط المادى ، عاد وبرز فى المحيط العقلى ثم يعود كبرياء بما أحرزنا من قوى النفس ثم يعود كبرياء بما

أحرزنا من تقدم روحى ، فهو دائم العودة ، اذ تحدثنا النفس بما حصلنا من علم بززنا به الغير فاذا رددناه عاد يخطر فى القلب متحدثا عما بلغنا من قوة الخلق والتعفف ثم عن الدرجة التى وصلت اليها الروح من المعرفة وتفوقنا فى الصلاح والتقوى على غيرنا وهو فى كل مرة شر اذا استسلمنا له اقطع بنا السبيل ، وأساس وجوده فى كل حال اعتقاد الانسان بأنه منفصل عن الوجود وأنه قائم بذاته ، مما يولد فى النفس حب المنافسة مع الغير وما يتبعها من خصـــومة وتناحر وعلاجها الاعتراف بأننا واخوتنا أجزاء فى الوجود ، البعض متخلف مازال يقتلع أقدامه من أوحال المادية فى أســـفل مراحل الطريق والبعض يسير مكافحا على نفس المستوى الذى نجتازه نحن ، كما أن بعضا آخر قد سبقنا بمراحل ولكن الجميـــع على الطريق ، نحن وأخوتنا جزء من الحياة العظمى . احــذر الكبرياء الباطل ، العدو الأكبر للتقـــدم ، اقتلعه واغرس مكانه التفكير الأسلم والأصح وهو أننا جميعا من أصل واحد أمامنا جميعا مصير واحد وان أمامنا طريقا واحدة علينا أن نقطعها . نحن جميعا اخوة وأخوات وكلنا عيال الله ، كلنا تلاميذ صغار فى روضة أطفال الحياة .

ونحن وان كان كل منا سيواجه امتحانا قاسيا بمفرده عليه أن ينجح فيه قبل أن ينال اجازته ، الا أننا جميعا متشابكون مترابطون كأعضاء الجسد الواحد ، اذا شكا منها عضو تداعى له ســـائر

الأعضاء . وان خطيئة الفرد خطيئة المجتمع وأننا أفراد جنس يسعى كله للتقدم نحو الكمال وأن الحب والشعور بالأخاء خير ما يتطلع اليه الانسان .

ان الغرائز الحيوانية مازالت فينا تفرض نفسها دائما على تفكيرنا ويتعلم الروحانيون الحد من هذه الغرائز والسيطرة عليها واخضاعها للمثل العقلية العليا التى تشرق على أفق تفكيرهم ووعيهم ، فلا يفتّن فى عضدك انك لا تزال تجد فى طبيعتك الكثير من طبيعة الحيوان فانها فينا جميعا والفرق الوحيد هو أن بعضا منا استطاع السيطرة على الحيوان فقيده ووضعه تحت سلطان الجانب الأسمى من طبيعته خاضعا له ، بينما يسمح البعض الآخر للحيوان أن يسيطر عليهم ويتحكم فيهم فيرتعدون وتعلو وجوههم صفرة الخوف اذا كشر الحيوان عن نابه ، غير عالمين أنهم اذا أظهروا الحزم وحكموا سلطان العقل خنس الوحش ولاذ بركن ناء أو رضى أن يجثم وراء قضبان كبح النفس .

فاذا بدت من الحيوان انتفاضات متتالية محاولا أن ينطلق ليعود الى سابق سلطانه عليك فلا يهولنك الأمر ، فليس هذا دلالة على ضعفك وانما هو دليل على أن نموك الروحى قد بدأ ، فانك الآن بدأت تتعرف وجوده وتخجل منه بينما كنت من قبل لا تشعر به ولا تتخيل وجوده لأنك كنت الوحش نفسه ، ان خجلك من

وجوده فيك دليل على أنك بدأت تفرق بينه وبين نفسك وتنفصل عنه . انك لا تستطيع أن تراه الا اذا بدأت تختلف عنه . تعلم ترويض الحيوانات المفترسة فان فى كيانك سركا كاملا منها . ان فيك السبع والنمر والضبع والقرد والخنزير والطاووس وغيرها من كل نوع ، كل منها يحاول أن يظهر فيك شيئا من خصاله ، لا تخفها ولا تخشها . ابتسم لها كلما ظهرت لأنك أقوى منها وأنت على اخضاعها قدير . وظهورها يفيدك لأنه ينبهك لوجودها دائما . انها ثلة مسلية عندما تبلغ المرحلة التى تستطيع فيها أن تقف جانبا تراقبها وهى تقوم بحركاتها وتظهر خصالها عند ذلك تتأكد بأنك لست اياها وأنك شىء آخر غيرها منفصل عنها فلا تحفل بها لأنك أنت السيد المسيطر عليها .

بينما يحوى الجزء المتقدم الذى اقتبسناه من (ضوء على الطريق) كل المظاهر المشار اليها من الطبيعة الحيوانية ، يبدو أنه يركز الضوء على ذلك الوهم الذى يسيطر على النفس السفلى ، وهم الانفصال عن الوجود ، ذلك المظهر الذى أطلق عليه (تمثيلية الوجود) التى تحملنا على أن تتخيل أنفسنا أشياء منفصلة عن بقية المخلوقات وأن نتصور أنفسنا أحسن وأعلى وأقدس من بقية الجنس البشرى . ان مظهر هذا الوهم هو احساس الكبرياء أنه طبيعة الطاووس فى تلك الجماعة من الحيوانات الموجودة فينا ،

والكبرياء كما أسلفنا من أخطر غرائزنا لخفائه عنا والحاحه علينا .
وقد قالت المؤلفة عنه (انه يعيش فى قلب المريد المخلص كما يعيش فى قلب رجل الشهوات) . وقد يبدو هذا لك عجبا ولكن تجارب كل الذين قطعوا فى الطريق مرحلة أكسبتهم خبرة ومعرفة تؤكد أنه بعد أن اعتقد السالك أنه ترك الكبرياء وراءه اذا به يذهله أن يراه وقد عاد للظهور فى ثوب جديد ، التيه بقوة النفس — الكبرياء بقوة الفكر — الكبرياء بما أحرز من تقدم روحى . واذن فعليه أن يعود الى الطريق من أوله وأن يعيد العمل من جديد . ولكن لابد من التنويه بأن هناك نوعا من الكبرياء ليس من مظاهر النفس السفلى يمكن تسميته الكبرياء المطلق أو المجرد absolute pride اذا وافقتم ، نريد بذلك ، الاعجاب بالأشياء مجتمعة ككل ، والاعجاب بأن هذا الكل عظيم عظمة تدعونا الى الكبرياء والتيه بأننا جزء من هذا الكل العظيم ، وأن قوتنا المفكرة انما هى جزء من العقل الكلى ، وأن ما وصلنا اليه من تقدم روحى انما هو جزء من امكانيات البشرية . وأن مستقبل البشرية ينتظرها فيه من العظمة شىء كثير ولكن حد الخطر فى هذا التفكير لا يبدأ الا عندما نستبعد فريقا من البشر من هذا الاعجاب وننظر اليهم نظرة الكبير الى الصغير . عندما نفصل جانبا ولو ضئيلا ونجرده من هذا

الكبرياء الكلى فى هذه اللحظة نجعل منه كبرياء شخصيا .

عندما نقيم على الكبرياء سورا خارجه ولو فرد واحد من البشرية نراه غير جدير بهذا الكبرياء ، نصبح مصابين بداء الكبرياء الممقوت . ان الوجود لا خارج عنه . ما دمت تحس بعظمة الوجود كله بدون استثناء فلا كبرياء فيك ، أما اذا أفردت نفسك وحدك أو مع طائفة تشمل البشرية كلها وتركت فردا واحدا لم تشمله هذه الطائفة فأنت فريسة الكبرياء . يجب ألا يترك آخر رجل انه لا يمكن أن يترك ، ليس فيك ولا فى أى انسان صفة أو استعداد لصفة ليست لسائر البشر يصلون الى التحلى بها مع الزمن ، وكل ما تخاله سموا أو امتيازا انما هو مسألة وقت ، انه مزيد من الخبرة لاغير ، ان كبرياءك هو غرور الطفل الذى غادر لتوه روضة الأطفال ودخل المدرسة الابتدائية اذ ينظر باحتقار الى الأطفال الذين يهرعون للدخول الى المكان الذى غادره هو لتوه ، كما أن الأطفال الذين فى الفصل الأعلى من فصله ينظرون اليه نفس نظرته ، ولكنه لا يدرك ذلك انه يتخيل أنه (كبير) تاركا خيلاء الطاووس تتملكه .

وقبل أن تترك هذا التشبيه نود أن نقرر أن للطفل الحق فى تيهه بما أحرز من تقدم ولا جناح عليه أن يتيه ولكن خيلاء الطاووس تبدأ عندما يتحول تيهه واعجابه بنفسه الى احتقار من هم دونه . ان هذه هى مادة السخف فى الكبرياء . الشعور بالتفوق

على من لا يزالون فى الدرجات الدنيا . فالشعور بالفرح وبالرضى عن النفس لما أنجز الانسان من عمل وما أحرز من تقدم لا ضير فيه ولا لوم على صاحبه ولكن الذى يجب أن نحذره هو ما يصاحبه من شعور التعالى على الذين ما زالوا يتسلقون السلم صاعدين الينا فهنا سم الكبرياء اقتلع حمة عقرب الكبرياء يصبح الكبرياء ولا ضرر فيه .

اذا أحسست فى وقت ما ميلا الى الاعتزاز بالنفس أو الغرور فاذكر أنك بالقياس الى بعض الذين سبقوك منذ أمد بعيد فى اجتياز هذا الدور الذى ما زلت فيه أذكر انك بالنسبة اليهم كالحشرة اذا قيست بك ، وان أرفعنا مقاما يبدو لتلك الأرواح السامية كما تبدو لنا مجموعة من الجراء تقع على بعضها وهى تتقلب وتتكفىء وتتقاتل وقد تفتحت عيونها على الحياة منذ لحظات قصار . اذكر ذلك اذا حدثتك نفسك بالعظمة الكاذبة فان ذلك يكف عنك غربك ويريك مكانك على سلم الارتقاء ولكنه لا يحقر شأنك ولا يصغر قدرك فانك مهما انحط مكانك قد قطعت مرحلة طويلة وبلغت درجة من التقدم لك فيها أشياء عظام وانك لن تظلم فتيلا ، ولكن اعلم أيضا أنك لست وحدك الذى يسير قدما نحو تلك الأهداف ، ان الناس جميعا فى موكب الحياة يسيرون نحو

هذه الأهداف السامية حتى آخر انسان فى هذا الموكب[1] . واعلم ان المستوى الأبدى لا مكان للكبرياء فيه ، ان الادراك الصحيح قد قضى عليه ؛ وهذه النبتة العاتية لن تزهر ولن تثمر هناك . ان هذه الوصمة على جبين الوجود يمحوها مجرد التفكير الأبدى ، وسنواصل الحديث فى الدرس القادم تتمة لتعليقنا على هذه النبذة من الكتيب .

---

(١) دعوت الناس الى الله أربعين سنة فلما يئست منهم اتجهت الى الله فوجدتهم سبقونى اليه (الجنيد) (المترجم)

الدرس الثانى

مزيد من الضوء على الطريق

قبل أن ننتقل الى دراسة القاعدة التالية يجب أن نوجه النظر الى تلك النبذة من كتيب (ضوء على الطريق) التى كنا بصددها فى نهاية الدرس السابق واضطررنا لتأجيلها لهذا الدرس لضيق المقـــام .

(عش لا فى الحاضر ولا فى المستقبل ولكن فى الأبد) . لقد حيرت هذه الجملة كثيرين من الطلاب نظرا لأن التعاليم أوجبت عليهم أن يعيشوا فى الآن وأن ينظروا الى المستقبل على أنه ميدان التقدم والرقى وهذه العبارة تبدو كأنها تتجه اتجاها مضادا للتعاليم السابقة ، ولكن الأمر كله يتوقف عـــلى وجهة النظر ، ان كانت الناحية المطلقـــة أى المجردة Absolute أو النسبيـة Relative وسنحاول أن نوضح هذا لكم .

انه خطأ أن يعيش الانسان فى الحاضر على أنه شىء مختلف عن المستقبل أو أن يعيش فى المستقبل (فى الخيال) على أنه شىء منفصل عن الحاضر ، خطأ ناشىء عن النظر نظرة نسبية الى الحياة .

انها الغلطة القديمة التى تجعلنا نفرق بين الزمان بأقسامه الثلاثة والأبدية ، النظرة المطلقة تجعلنـا نرى أن الزمان والأبدية شىء واحد ، انها ترينا أننا فى الأبدية الآن فى هذا الوقت الحاضر تماما كما سنكون فى أى وقت فى المستقبل . انها تمحو الخطأ الناشىء عن وضع خط عريض فاصل بين وقت الحياة الفانية والأبدية التى ندخلها عندما تترك هذا الجسد . انها ترينا أننا فى الأبدية هنا فى هذا الجسد من اللحم والعظم ، انها تكشف لنا عن أن هذه الحياة ما هى الا جزء ضئيل متناه فى الضآلة — ذرة — فى الحيـاة الكبرى ، انها ترينا أن حياتنا هذه ما هى الا شروق الشمس فى اليوم العظيم ، يوم الوعى . وان اعتبارنا حياتنا القصيرة هذه كل شىء انما هو أبعد السخف فى الجهالة البشرية . ولكن حذار من السقوط فى خطأ الذهاب الى النقيض باحتقار الحياة الراهنة جريا وراء الحياة الأخرى ، اذكر أن اللغز دائما يستعمل فى التعبير عن الحقيقة ، واذكر الجانب الآخر من الدرع . ان احتقار الحيـاة الدنيا لا يقل سخفا عن التعلق بها واعتبارها كل شىء . فان اخترنا هذا السبيل ارتكبنا خطأ (الحيـاة فى المستقبل) الذى حـذرنا الكتاب من الوقوع فيه . ان هذه الحياة (مهما كانت قصيرة وتافهة بالنسبة للحياة الكبرى) لها أعظم الأهمية بالنسبة لنا . انها دور من أدوار تطورنا ، نحن فى أشد الحاجة اليه ويجب ألا نغفله أو نحتقره

اننا وضعنا فى مكاننا حيث نحن الآن لأنه خير مكان لنا فى مرحلتنا هذه من التطور ولا يجمل بنا أن نضيع هذه الحياة فى مجرد الحلم بالمستقبل ، فان علينا واجبات نؤديها ودروسا تتعلمها ولن نستطيع التقدم حتى تقوم خير قيام بأداء ما علينا من التزامات وواجبات فى الوقت الحاضر .

ان هذه الحياة ليست هى (الكل) ولكنها جزء من الكل ، اذكر ذلك جيدا . وتزول الصعوبات الناشئة عن التفرقة بين المستقبل والحاضر عندما ننظر اليها من وجهة النظر المطلقة ، فعندما تتحقق من أن الأبد هو الشىء الوحيـــد الحقيقى وأن (الآن) هو كل ما نستطيع أن ندركه من الأبد بقوتنا الواعية وأن (الآن) يرافقنا دائما ومهما قطعنا من الوقت فنحن فى (الحاضر) دائما ، عندما نعى ذلك يزول ما كان (للمستقبل والحاضر) فى أنفسنا من معان ويصبح (الزمان)و(الأبد) ويصبح الأمس واليوم والغد ، يصبح هذا كله مظاهر مختلفة اختلافا بسيطا (للآن) الأبدى العظيم الذى نعيش فيه كل لحظة من لحظات وجودنا .

ان عيشنا فى الأبد يجعلنا نتمتع بكل لحظة من الحياة الحاضرة ويجعلنا ننظر الى المستقبل بغير خوف لأننا نعتبره جزءا من هـــذا (الآن) الذى نعيش فيه ويجعلنا نحس الحياة الحقيقية وماهيتهـــا ويجعلنا نشعر بمعنى (أنا موجود) ، وأن ندرك الأشـــياء على

حقيقتها ، وبالاختصار يجعل للحياة واقعية ليست لها بغير هـذا الوعى ويجعل الاعتبارات السابقة العتيقة تتساقط كأوراق الوردة الذابلة . وكما تقول مؤلفة كتاب (ضوء على الطريق) :

« ان هذه النبتة الجبارة لا تستطيع الازدهار هناك . هـذه الوصمة على جبين الانسانية يمحوها جو التفكير الأبدى » .

٥ — « اقتل كل احساس بالانفصال » .

٦ — « اقتل الرغبة فى اشباع الحواس » .

٧ — « اقتل الرغبة فى النمو » .

٨ — « ومع ذلك قف وحيدا معتزلا فما من كائن ولا شىء مما يحس بنفسه منفصلا ولا شىء غير الأبدى يستطيع أن ينفعك أو يساعدك . تعلم من رغبات الحواس وراقبها فبذلك وحده تستطيع أن تبدأ علم معرفة النفس فتضع قدمك على أول درجة من درجات السلم . انم كما تنمو الزهرة بلا وعى ولكن شـغوفة مشوقة لتفتح نفسها للهواء ، كذلك يجب أن تشد الرحال نحو تفتح نفسك لما هو أبدى ، ولكن يجب أن يكون ذلك الأبدى هو الشىء الذى يجذب قوتك وجمالك نحو النمو ، لا أن تكون الرغبة فى النمو هى التى تدفعك ، فان نموك فى الحالة الأولى يكون كسبا فى ميدان النقاء والازدهار ، وفى الحالة الثانية تقسو وتزداد صلابة بتأثير الشهوة القوية فى تضخم القوام الشخصى .

هنا — مرة أخرى — تواجهنا مجموعة من القواعد الثلاث الأولى الملغزة تشير علينا بأن نقتل أشياء معينة ، ورابعتها تأمرنا (فى الظاهر) بأن نفعل نفس الأشياء التى نهينا بالثلاثة الأولى عن فعلها ، وهذا مثـــل آخـــر للغز الالهى الذى يقف وراء التعاليم الروحانية — انه جانبا الدرع .

اقرأ ما قلناه فى الدرس الأول من جديد فان ما قلناه هناك عن هذا الموضوع ينطبق على كل قواعد (ضوء على الطريق) .

تقول لنا القاعدة الخامسة (اقتل كل احساس بالانفصال) . والقاعدة الثامنة تظهرنا على الجانب الآخر للدرع فتقول (ومــع ذلك قف وحيدا معتزلا فما من كائن ولا شىء مما يحس بنفسه منفصـــلا ولا شىء خـــارج عن الأبدى يســـتطيع أن ينفعـــك أو يساعدك) .

هنا تلقى الينا حقيقتان حيويتان ، وما الحقيقتان الا جانبـــان مختلفان لحقيقة واحدة ، فلنتدبر ذلك الشعور بالانفصال الذى يجعلنا نشعر كأنما نحن من طينة غير طينة غيرنا من الرجال والنساء والذى يجعلنا نشعر بأننا بررة أتقياء ، ويجعلنا نحمد الله على أننا نختلف عن الناس وأننا أحسن منهم ، شعور خاطىء سببه النظرة المقيدة النسبية .

ان الروحانى الذى قطع مرحلة من الطريق يعلم أننـــا جميعا أجزاء (الحياة الواحدة) نختلف فقط تبعـــا لنمونا الذى يتيح

الفرصة للعناصر السامية من طبيعتنا أن تبدو علينا وتظهر فينا . أما الأخ المتخلف فانه الآن حيث كنا فيما مضى ، ولابد يوما أن يحتل المكان الذى نشغله نحن الآن ، وكلانا ، نحن وهو ، سنواصل التقدم متسامين الى مدارج أعلى . فاذا أحسن تعلم دروسه خيرا منا فقد يسبقنا ويتقدم علينا ، وعلاوة على ذلك فان حياتنا مرتبطة بحياة غيرنا من النساء والرجال ؛ فاننا نشارك فى الظروف التى تؤدى بهم الى الخطيئة والعار . اننا نسمح بوجود حالات وبيئات فى حضارتنا تساعد كثيرا على الجريمة والشقاء . ان كل لقمة نأكلها وكل ثوب نلبسه وكل قرش نكسبه كلها كانت على صلة ما بغيرنا من البشر . فحياتنا وحياتهم تتشابك . نحن نمس البشر جميعا فى ألف نقطة ونقطة .

ان قانون العلة والمعلول أو السبب والمسبب قد يؤلف بين الرجلين ، وبينهما ما بين القطبين من فارق ، فيجعل منهما شريكين متلازمين ، وما يسمى خطيئة قد يكون نتيجة الجهل أو المواهب الموجهة توجيها خاطئا ؛ فلو أننا كنا مكان الخاطىء — فى نفس ظروفه — من مزاج وتعليم وبيئة وفرص ، ترى أكنا نتصرف خيرا من تصرفه بكثير ؟

ان الحياة كلها تسير على الطريق — نحن جميعا نتقدم ببطء تزل بنا القدم فنرجع للوراء خطوتين من كل ثلاث خطى نخطوها

للأمام ، مسجلين رغم هذا التقهقر تقدما صافيا قدره خطوة واحدة ، وكل فرد فى الحقيقة يبذل قصارى جهده ليعمل خير ما يستطيع وان دلت ظواهر الحال على غير ذلك . ليس بيننا من هو صالح (جدا) أو كامل فلماذا التسرع اذن فى ادانة الغير ؟ ليكن رائدنا أن نسدى يد العون كلما وجدنا الى ذلك سبيلا ، ولكن لنتحاشى أن نقول لأحد (أنا أتقى منك وأطهر) ولنتبع قول المعلم العظيم الذى نهانا عن أن نقذف الخاطىء بأول حجر الا اذا كنا بلا خطيئة . يجب أن نتقى الشعور بالتفرد فانه شر حبائل السقوط وأصل كل خطيئة .

والآن لنعد الى الجانب الآخر من الدرع (لنتعلم أن نقف وحدنا) — هذا الدرس الذى يجب أن نتعلمه لنرتقى ، هو أن حياتنا ملكنا الخاص بنا ، ويجب أن نحياها نحن أنفسنا ، فلا يمكن أن يحمل عبئها عنا أحد ، كما أننا لا نستطيع أن نحمل عن غيرنا عبء حياته . يجب أن يقف كل واحد على قدميه لا يستند على أحد فكل يؤدى حسابه عن أعماله وكل سوف يحصد ما زرع وكل يسعد أو يشقى تبعا لعمله ، والانسان مسئول أمام الله وضميره فقط ولن يجد عونا بعد الله الا نفسه ، وكل نفس عليها أن تنسج بيديها مصيرها ولا تستطيع نفس أن تقوم عن نفس بسعيها .

ان كل نفس تحوى فى كيانها نور الروح الذى يمدها بكل

ما تفتقر اليه من عون وسند ، ويجب على كل نفس أن تتعلم التطلع الى النجدة فى حنايا نفسها .

يجب على النفس التى تريد أن تنمو أن تتعلم دروس الشجاعة والاقدام والاعتماد على النفس ، وكما تعلم أن شيئا من الخارج لا يملك لها نفعا فان شيئا من الخارج كذلك لا يملك لها ضرا . فان استقر هذا فى الروع (الأنا EGO) كان استقراره درعا يحمى من الضر والأذى . ان النفس أبدية غير قابلة للفناء لا تغرق فى الماء ولا تحرقها النار انها كائنة وستظل كائنة الى الأبد .

ان على النفس أن تتعلم أن تقوم منتصبة على قدميها هى . فان احتاجت الى عون لا يخذلها ، عون له قوة وحكمة لا حدود لهما فلتتجه الى الفرد الصمد ، هناك كل ما تحتاج اليه .

القاعدة السادسة تقول (اقتل الرغبة فى اشباع الحواس) «kill out desire for sensation» . وتقول الثامنة (تعلم من رغبات الحواس وراقبها فبذلك وحده تستطيع أن تبدأ دراسة علم معرفة النفس فتضع قدمك على أول درجة من درجات السلم) .

هذا لغز آخر فلنبحث عن مفتاح حله .

التحذير فى القاعدة السادسة يأمرنا بأن نكف عن الرغبة فى اشباع رغبات الحواس . فلذات الحواس تتعلق بمستوى المادة النسبى اذ نبدأ أول الأمر بمباشرة ما تستريح اليه الغرائز

الدنيا ثم مع الوقت تتدرج الى ما تستريح اليه احساسات تسمو على الأولى ، وبذلك نسمو على الاستمتاع ببعض هـذه اللذات الدنيا وتتدرج من اللذات الدنيا الى متع أسمى وأرفع .

ان ارضاء الحواس فى الانسان يتطور من مستوى الى مستوى أرفع ، فما كان يحسه الانسان من لذة ومتعة بالأمس يجده اليوم باعثا لاشمئزازه ، وهكذا سوف يكون الحال كلما ارتفع المستوى الذى يعيش فيه الانسان من مستويات التطور ، وارتقى على سلم الحياة . لذلك يجب أن نتخلص من القيود التى تربطنا باشـباع الحواس . فان أمام النفس متعا أسمى وأعلى ، ان لذات الحواس لها ما يبررها فى أوانها ومكانها ، ولها وظائفها التى تؤديها فى عملية تطور النفس ولكن يجب أن تحذر النفس من أن تتقيد بها أو تخضع لها ، فان فعلت فقد أثقلت بذلك خطاها وعاقت تقدمها فان ثقيل المتاع يجب أن يلقى من على الكاهل عند تسلق المرتفعات . ان أصول تسلق المرتفعات هى الواجبة الاتباع [1] .

يجب أن نقطع ما يربط النفس باشباع رغبة الحواس فى جرأة

---

(١) «ومنامن بهره النور بحقيقته حين يقترب حتى يشرق عليه النور فيغمر نفسه ، ولكن لأنه اقترب وهو مثقل بالدنيويات المادية ، تبدد حبه فامحت المشاهدة » أفلوطين التسعية السادسة الفصـل التاسع .

حتى تستطيع السير ولهذا (يجب قتل الرغبة فى اشباع الحواس) ويجب أن تتنبه الى أن القاعدة تأمر بقتل الرغبة فى اشباع الحواس لا قتل الحواس نفسها . الرغبة هى التى يجب التخلص منها — العبودية للحواس .

يجب ألا نجرى وراء اشباع الحواس كما يجب ألا نفر منها كأنها شر نتوقاه ؛ يجب أن نحول الحواس الى ما فيه الخير بتعلم دروسها ودراســتها والافادة من تلك الدراسة بأن نقدرها حق قدرها وبذلك نستطيع أن نتخلص منها .

تقول القاعدة الثامنة (تعلم من رغبات الحواس وراقبها فبذلك وحده تستطيع أن تبدأ دراسة علم معرفة النفس . وتضع قدمك على أول درجة من درجات السلم) وهذا لا يعنى الانغماس فى هذه الرغبات حتى تتعلم دروسها ، فان النفس اذا قطعت مرحلة فى الطريق أصبحت فوق هذا المستوى وبذلك تدرس النفس الحواس ورغباتها من بعيد فليس من الضرورى أن يمارس الانسان نزوة ليدرك ما فى أعقابها من درس .

ان المعنى الحقيقى لهذه القاعدة هو أننا اذا آنسنا من أنفسنا حنينا الى الاستجابة لرغبة حاسة من الحواس فيجب أن نحلل هذا الحنين فى كل نواحيه ونزن كل معانيه ومراميه بدل أن ننظر اليه فى رعب وتقزز ، فهذه الاحساسات جزء من كياننا انها تنبع

من العقل الغريزى (instinctive mind) وهى ميراثنا من المراحل من المراحل الدنيا السابقة من مراحل التطور . انها ليست شرا فى نفسها ولكنها لا تليق بنا فى هذه المرحلة التى وصلنا اليها . انهـا ظلال ذواتنا السالفة وانعكاس أشياء كانت مناسـبة لنا وكانت طبيعية فينا فى أطوار سابقة كنا فيها أكثر شبها بالحيوان ، ولكننا اليوم قد خلفناها وراءنا .

انك تستطيع بتحليل أعراض هذه الأحاسيس أو النزوات التى بدأت تضعف فى طريقها الى الزوال . انك تستطيع أن تتعلم الكثير فيسهل عليك اطراحها والتخلص منها فى وقت أقل مما لو تركت نفسك تخاف منها وتعتقد أنها أفعال كائن منفصل عنك له عليك سلطان — اغراء شيطان حقيقى ، انك مع الوقت تتخلص من هذه الأحاسيس والرغبات اذ تحل محلها رغبات أسمى خير منها وأجـدر باهتمامك ، يجب أن تنظر اليهـا كما تنظر الى نفسك لو تملكتها الرغبة فى القيام ببعض حركات الأطفـال التى كانت طبيعية محببة مقبولة منك وأنت طفل ، ولكن قيامك بها الآن يكون شذوذا ممقوتا .

ان الأطفال الذين كبروا وغادروا مراحل الطفولة يجدون عناء كبيرا فى الاقلاع عن بعض عادات الأطفال التى تكون مقبولة منهم كمص الابهام أو العبث بخصل الشعر بالأصابع مما يستساغ من

الطفل الصغير ويقابل بالتدليل ولكنها تجلب على الطفل الكبير اللوم والانذار بالغضب عليه ، ويحتاج من يظل يمارسها وهو كبير الى كثير من قوة الارادة للتخلص منها .

فلننظر نفس النظرة الى رغبات الحواس الباقية من أيام طفولة النفس ، ونعمل على التخلص منها بتفهمها ومعرفة قدرها ومعرفة طبيعتها وتاريخها ومرماها بدل أن نخافها على أنها من عمل الشيطان فليس ثمة شيطان الا الجهل والخوف .

القاعدة السابعة تقول لنا (اقتل الرغبة فى النمو) ومع ذلك فان الثامنة تحضنا على النمو (انم كما تنمو الزهرة بلا وعى ولكن شغوفة مشوقة لتفتح نفسها للهواء ، كذلك يجب أن تشد الرحال نحو تفتح نفسك لما هو أبدى ، ولكن يجب أن يكون ذلك الأبدى هو الذى يجذب قوتك وجمالك نحو النمو ، لا أن تكون الرغبة فى النمو هى التى تدفعك ، لأن نموك فى الحالة الأولى يكون كسبا فى ميدان النقاء والازدهار ، وفى الحالة الثانية تقسو وتزداد صلابة بتأثير الرغبة فى تضخم القوام الشخصى وعظمة النفس) .

ان كاتبة هذه الكلمات قد أوضحت جانبى هذه الحقيقة بما لا يحتاج الا الى القليل من الايضاح ، حتى للذين هم على وشك دخول الطريق ، فان الحد الفاصل بين الرغبة فى النمو ، وبين تفتح النفس التى تسير فى الطريق انما هو الدافع أو النية ، فان الرغبة

فى النمو بالمعنى النسبى يقصد بها طلب النمو لاشباع الغرور وتحقيق رغبات شخصية ، ما هى الا نوع دقيق خفى من التيه والعجب ومطامع تسولها النفس كحذق السحر الذى يعتبره الروحانيون قوة روحية تستغل لتحقيق أهداف أنانية ، أو ربما لمجرد الشعور بالقوة التى يكسبها الانسان من تفتح النفس ونموها ، ومهما حذرنا الطلاب فلن نكون مبالغين فى التحذير من الرغبة فى ممارسة هذه الأشياء ، انها الجانب المظلم من الصورة وان من ينحدر فى طريقها يلق من العقوبات المروعة — نتيجة لأعماله — ما يجعل نجاته من هولها رهنا بكفاح مرير آجالا طوالا قبل أن يعود الى الطريق المستقيم مرة أخرى ، الطريق الذى تشرق عليه شمس الروح الوضاءة .

نمو النفس النمو الطبيعى ، ذلك النمو الذى يشبه نمو الزهرة النمو التدريجى حتى لا يكاد يشعر الانسان به يأتى بالبشر والانشراح بما أعد للنفس من نعيم مشرق بأشعة نور الكون ، نور السموات والأرض ، النمو الذى تشعر النفس فيه بازدياد ايمانها واطمئنانها لا بقوة طمعها وجشعها . هذا النمو هو الذى يجب السعى اليه ، ويتم لنا اذا اتجهنا اليه وأسلمنا أنفسنا لمصدر القدرة وواهب الحياة ، فاذا استسلمت النفس واطمأنت أشرقت الروح فأضاءت الوعى فاستنار بها .

ان الكثيرين من المريدين يعذبون أنفسهم ويجعلون أساتذتهم أو شيوخهم يضيقون بهم لالحافهم فى السؤال « ماذا أصنع ؟ » .

والجواب الشافى هو « لا تجعل لك من الأمر شيئا . وضع نفسك بين يدى الله واتركها تنمو كالزهرة ، انك بذلك تنضج وستجد أنك تزداد كل يوم نعمة ، وستجد نفسك عاما بعد عام تقطع من الطريق مرحلة بعد مرحلة . قد يبدو لك أنك أنت أنت لم تحرز تقدما ، وأنك فى عامك هذا كما كنت فى عامك السابق . ولكن قارن نفسك اليوم بنفسك بالأمس يظهر لك مدى تقدمك ، فسر فى طريقك واعمل خير ما تستطيع أن تعمله معنيا بأمر يومك غير مهتم بغدك مستمتعا بما فى اليوم من آيات عظمة الله وآثارها ، تاركا لروحك قيادك ، ترشدك الى العمل فى ايمان وثقة وتعاطف فان فعلت فزت أيها الطالب بالحسنى ، واعلم أنك على الصراط المستقيم فامض قدما فى وسطه لا تنحرف فيه الى أقصى اليمين ولا الى أقصى الشمال مستمتعا بما يحوطك من جمال يكتنف الطريق مستروحا ما يهب عليه من علوى النسمات التى تبعث فيك البهجة ، فان جن الليل فليكن اطمئنانك اليه كفرحك بالنهار فكل حسن وجميل ، بذلك تقطع مراحل الحياة غير ضجر بوعثاء السفر ، فشر من على الطريق رجل يعد مراحله التى قطعها ويحسب ما بقى أمامه من مراحل عليه أن يقطعها يرى سيره وئيدا ويرى تقدمه بطيئا ، ذلك

الرجل يجد من مشقة الطريق مالا يجده المستسلم المرح ويصرفه همه واشفاقه من طول الطريق وحزنه على بطء السير عن جمال المنظر الذى يكتنف الطريق ، ان عقله لا يرتسم فيه الا الفراسخ والأميال ، فراسخ قطعها حتى تعب ، وأميال عليه أن يقطعها فتتقطع أنفاسه وهو يحصيها .

أى الرجلين أحسن قيلا وأهدى سبيلا ؟

٩ — « اطلب ما فى داخل نفسك فقط » .

١٠ — « اطلب فقط ما تأى عنك » .

١١ — « اطلب مالا سبيل للوصول اليه » .

١٢ — « ففى نفسك نور العالم ، النور الوحيد الذى يمكن أن يلقى ضوءا على الطريق ، فان لم تستطع أن ترى النور الذى فى نفسك فمن العبث أن تبحث عن النور فى أى مكان آخر . انه ناء عنك لأنك حين تصل اليه تكون قد فقدت نفسك . انه لا سبيل للوصول اليه لأنه دائما ينحسر ويبتعد . انك تدخل النور ولكنك لن تمس النار التى ينبعث منها » .

هذه القواعد الأربع الأخرى جزء آخر من أجـزاء الكتيب العجيب الذى تتناوله بالتعليق والتدقيق فى معانيه ومراميه . فمن لم يهتد الى مفتاح رموزه يجد هذه القواعد متناقضة متنافرة مستوحشة .

فقوله عليك بما هو فى نفسك وهو مع ذلك بعيد عنك لا سبيل للوصول اليه يبدو لرجل الشارع قولا مضحكا ، ولكن الأمر يبدو واضحا جميلا لمن عرف السبيل لحل الرمز .

فالقواعد الأربع تشير الى تفتح الوعى الروحى الى اشراق نور الحقيقة الذى حاولنا الاشارة اليه من بعيد فى كثير من دروسنا السالفة الأربعة عشر .

ان هذا هو أول منزل جليل يقابلنا على الطريق ، انه كل شىء بالنسبة للمريد فى مرحلته هذه من مراحل الطريق ، فانه ينتقل به من مستوى مجرد التصديق بالعقل ، الى مستوى يقين المعرفة حيث يعرف نفسه وأنه (كائن) . انها (أى المرحلة) لا تمنحه هذه المعرفة بصفة دائمة ، ولكنها تهبه الشعور بالوجود الروحى الذى يتلاشى بجانبه كل علم سابق وتصبح كل خبرة قديمة اذا قيست به كأنها لا شىء . انها تضع الانسان وجها لوجه — ربما لمدة طرفة عين — مع النفس الحقيقية والحقيقة العظمى التى نفسه جزء منها . ان هذا (الحال) هو المكافأة العظمى التى يتطلع اليها البشر والتى أعدت جزاء ما قدم الناس من عمل ينالون به البر وهو جزاء ليس بكثير فى سبيله ألف حياة تقطعها النفس متقدمة خطوة خطـوة متحررة من كل قيد حتى تصل اليه .

(اطلب ما فى داخـل نفسك فقط) فان الروح هى الحقيقة

الوحيدة وهى موجودة فى كل منا كما يقول النص (ففى نفسك نور العالم النور الوحيد الذى يمكن أن يلقى الضوء على الطريق . فان لم تستطع أن تدرك النور فى نفسك فمن العبث أن تبحث عنه فى أى مكان آخر) .

لماذا لا يستجيب الباحثون عن الحقيقة المشتاقون اليها لهذه النصيحة بدل أن يركضوا هنا وهناك وراء الأساتيذ والشيوخ والواصلين وأصحاب المنطق والمحدثين كلما انتهوا من نظرية لا طائل تحتها اندفعوا وراء مذهب براق آخر لا غناء فيه ! ! .

على أن هذا البحث الممض الطويل له فائدته ، ذلك لأنه يعلمنا أن ضالتنا التى نبحث عنها ليس هذا هو السبيل اليها وأننا لن نجدها بهذه الطريقة ، ربما وجدنا اشارة هنا وفكرة هناك ولكن الشيء الحقيقى الذى نريده مستقر فى داخل كياننا ينتظر فى أناة وصبر اللحظة التى تحول فيها أنظارنا — عن تلك الاتجاهات المشتتة — اليه فى أنفسنا حيث ينتظر فى أمل وحنان وثقة . انصت بالله الى صوت النفس وانظر — هديت — الى نور الروح انهما كليهما فى قرارك ففيم الاستمرار فى البحث عما لن يأتيك من الخارج ؟

(اطلب فقط ما نأى عنك) (انه ناء عنك لأنك حين تصل اليه تكون قد فقدت نفسك) انه دائما ناء عنك فاذا اتحدت به تلاشت نفسك المقيدة التى تعودتها وعهدتها وحلت محلها نفس أعظم (آنت)

ذهبت وحل محلك (أنت) آخر جديد عظيم أكبر مما عهـدت وأعظم .

يجب أن يفقد الانسان نفسه ليجدها ، ان الشىء العظيم الذى تبحث عنه ناء عنك اليوم مع انه فيك لأنه فى الحقيقة أنت نفسك كما ستكون غدا .

هل نستطيع الايضاح أكثر ؟ ـ يتطلع الطفل الى الرجولة ، انها ما زالت بعيدة عنه ومع ذلك فهو ثواتها . وعناصر الرجولة كلها فى كيانه تنتظر حتى تنضج ويحين وقتها ، ولكن اذا بلغ الطفل الرجولة يكون الطفل قد اختفى . لقد فقد نفسه وحلت محلها نفس أكبر وأعظم . وهكذا فان هذا الشىء الذى يتطلع اليه الطفل يفقد نفسه فى سبيل الحصول عليه .

والفراشة انها فى الشرنقة ولكنها فى نفس الوقت بعيدة منها فاذا بلغت الشرنقة من التطور أن تكون فراشة لم تعد نفس الشرنقة التى كانتها . هذه تشبيهات فجة ، ومع ذلك قد تساعدك على فهم الموضوع فى جلاء نوعا ما .

(اطلب مالا سبيل للوصول اليه) ، هذا قول فيه تثبيط ولكن اذا فهم كان حافزا يمنح القوة ويجدد العزيمة . يقول النص (انه لا سبيل للوصول اليه لأنه دائما ينحسر ويبتعد . انك تدخل النور ولكن لن تمس اللهب) فكلما نمت النفس وتفتح الوعى الروحى

عظمت وسمت ومع أنها تخطو الخطوات الأولى من الرحلة الحقيقية الا أن تلك الرحلة تبدو ممتعة بهجة . وكلما ارتفعنا على جبل المعرفة ازداد المنظر روعة . ولكن قمة الجبل التى بدت وكأنها على بعد خطوات منا عندما بدأنا رحلة التسلق تبتعد عنا مع كل خطوة ولكن لا يصحب ابتعادها مرارة أو خيبة أمل ، فمع كل خطوة شعور بلذة عارمة . ذلك دائما هو الحال فى تقدم صفاء النفس ، اذ كلما ارتفع الانسان درجة بدت للناظر مرتفعات أجمل خارجة من تحت السحب التى كانت تكتنفها ، انها مرتفعات لم يحلم بجمالها السائر .

انك ستصل حتما الى قمة المرتفعات التى تجلت لك ، ولكن حين تصل اليها تجد أمامك مرتفعات أخرى تزيد أضعافا على تلك التى خلفتها وراءك ولكن ذلك لن ينال منك ولا عليك منه ، فانك وقد غمرك النور تشعر بأنك تقترب من مبعثه ومصدره ، ولكن رغم اكتناف النور اياك من كل صوب فانك لن تمس اللهب ولن تمسه ما دمت بشرا سويا ، ولكن ذلك لا يضيرك فلا تحزن اذا كنت لا تبصر النهاية ان كانت ثمة نهاية . انك مقدر لك أن تصبح شيئا عظيما لا يذكر بجانبه حاضرك ولا يمكن مهما اشتط خيالك وأسرف فى تصوراته أن يعطيك أقل فكرة عن هذه العظمة (انه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) . ومع ذلك

فوراء هذه الحالة الرائعة الجمال حالات وحالات أبهى وأروع . تمتع بالنور الذى تكشف لك واسبح فى ضيائه فرحا ، لا يقلل من فرحك أن قيل لك انك لن تلمس اللهب انك لم تبدأ فى ادراك كنه النور وأنت عن ادراك اللهب أعجز .

١٣ — « اطلب القوة فى عزم » .

١٤ — « اطلب السلام فى حرارة واخلاص » .

١٥ — « اطلب الامتلاك قبل كل شىء » .

١٦ — « ولكن هذه الأشياء التى تطلبها كلها يجب أن تكون للروح الصافية ولذلك تكون ملكا لكل الأرواح ولكنها لا تكون لها الا حين تتحد ، فاطلب اذن هذا الذى تستطيع الروح أن تتملكه فانك بذلك تحصل على ما يزيد ثروة الروح المتحدة التى هى روحك نفسها واطلب السلام الذى لا يعكر صفوه شىء والذى تنمو فيه الروح كما تنمو الزهرة المقدسة على سطح المياه الساكنة والقوة التى يسعى اليها الطالب هى التى تجعله يبدو فى نظر الناس كأنه لا شىء .

١٧ — « اطلب الطريق أمامك » .

١٨ — « اطلب الطريق بالدخول فى ذات نفسك » .

١٩ — « اطلب الطريق بالسير الى الأمام قدما » .

هذا مثل آخر للمحدود النسبى وللمطلق اللانهائى .

(اطلب القوة فى عزم) ومع ذلك . فالقوة الأنانية شر نقمة تنصب على رأس من ينالها . أما قوة الروح تلك (القوة التى يطلبها المريد فى عزم) والتى تجعله يبدو كأنه لا شيء فى نظر الرجال الجاهدين وراء القوة المادية فانها قوة الايمان التى لا يعرف عنها الرجل العادى شيئا ولا يستطيع أن يتصورها والتى كثيرا ما يعتبر من يملكها ومن يسعى وراءها مخبولا ، القوة التى تستخدم لمنافع غير شخصية لا يدركها الرجل العادى الذى يبحث عن القوة الدنيوية مع أن كل ما يمكن تحقيقه من ورائها من أعراض الدنيا سيتهافت أمام عجلة الزمن كأنه قطعة ورق تمسها النار فاذا بها تراب فى غمضة عين . أما القوة الحقيقية التى تزداد على مر الزمن فهى قوة الروح ، انها الأصل الأصيل ، والقوة المادية ظلها وخيالها ، ولو أن الناس يعكسون الوضع لفساد نظرهم فيتخيلون أن القوة المادية هى الحقيقة الملموسة وما عداها خيال وأوهام .

ونود أن نحذر الطالب من أن يخطىء فى تفسير القاعدة السادسة عشرة بأنها تدعوه الى أن يظهر كالعدم فى نظر الناس ، انه الغرض هو ألا يهتم الطالب بأى المظاهر يبدو للناس فلا يعنى بأن يراه الناس كل شيء أو لا شيء . ليدع المظاهر وشأنها لأهل الدنيا .

انهم أصحابها يلهون بها لهو الأطفال بالدمى ويعنون بفقاقيعها التى تلمع لحظة ثم تزول . وبالزبد الذى يذهب جفاء . نوجه هـذا التحذير لأن البعض فسر هذه القاعدة بأنها دعوة الى الضعة التى تحسب تواضعا فيعمد المريد الى أن يبدو حقيرا فى نظر الناس وهو يحسب أنه بذلك يتواضع كأنما فى الظهور بهذا المظهر فضيلة . ان القاعدة تهدف الى تحديد القوة الوحيدة التى تستحق السعى وراءها وتبين للطالب فى نفس الوقت كيف يستهين العالم بهذه القوة عندما يقارن بينها وبين ما يسميه (قوة) تلك القوة المادية قوة المال أو السلطان أو الجمال ، تلك القوى التى يشبه صاحبها المجنون الذى يتصور نفسه ملكا متوجا على عرش وهو يجلس على صندوق فارغ ويضع على رأسه تاجا من الورق ويمسك بيده عصا يتخيلها صولجانا ، ظانا أن الدنيا دانت له . دع العالم وبنيه فى غيهم يعمهون فلا شأن لك بهم وادأب وراء قوة الروح لا يعنيك رأى الناس فيك .

(اطلب السلام فى حرارة واخلاص) ذلك السلام الذى يأتى من أعماق النفس فتتمتع به ولو كنت فى غمار معركة الحياة ، لا فرق بين أن تكون القائد الأعلى أو الجندى المغمور (فمصيرهما واحد) سلام النفس التى وعت واطمأنت ، ذلك السلام الذى لا يكدره شىء ولا يناله الا من استيقظت روحه وفتح عينيه على وجوده

الروحى الحقيقى فأصبح فى حالة يستطيع معها أن يفرد فى كيانه ووجدانه مكانا ينطوى فيه على نفسه عندما تهزه معركة الحياة وأحداثها فيجد فيه السلام مرفرفا ناشرا عليه جناحيه سلاما يجل عن الوصف ولا يدركه العقل لأنه خارج عن نطاق العقل . هــذا المكان من وجدانه هو المحراب المقدس والمرفأ الآمن الذى يلجأ اليه اذا هبت عليه أعاصير الحياة فيحتمى فيه من قصفها وهديرها .

عندما يعرف الطالب نفسه ويستطيع أن يرى العالم على حقيقته ويدرك أن كل ما فيه أوهام تزول فيقدرها قدرها ، عندذلك يكتشف الطالب هذا المكان الذى فيه السلام ، ومع أن ظروفه وضرورات الحياة قد وضعته فى مركز يحتم عليه أن يكون فى أتون المعركة الا أنه فى المعمعة ولكنه ليس منها ، فبينما يقوم بقسطه بجسمه وعقله اذا بروحه تحلق فوقها مبتسمة فى هدوء وسلام .

أقم لنفسك اذن محرابا فى داخل نفسك حيث يسود السكون وحيث تلجــأ نفسك لتستجم اذا أتعبها الحمل وناءت به فتجد السلام الذى يعنيه اليوجى حين يقول لك (ليكن السلام معك ، فليكن معكم جميعا وليقم لا يريم) .

(اطلب الامتلاك فوق كل شىء) هذا قول يبدو غريبا لا يتفق ولا يستقيم مع التعاليم الروحية ، ولكن (هذا الذى تطلبه كله يجب أن يكون روحانيا صافيا تستطيع كل روح صافية أن تتملكه

فيكون ملكا شائعا لكل النفوس الصافية) هذا الامتلاك ليس ثروة مادية ولكنه ثروة روحيـة تملكها الروح ، فمـاذا تستطيع الروح أن تملك ؟ ! المعرفة فقط وما عداها باطل زائل يزول ، فاجعل هدفك اذن الحصول على هذه الثروة ، هذا العلم الذى تحتاج اليه ، العلم اللدنى ، علم الروح (اليقين) . هذا العلم الأعلى لا تبلغه الا النفس الصافية أما النفوس الأخرى فلا تعيره انتباها لأنها لا تدرك وجوده .

والنفس الصافية اذا حصلت على هذا اليقين لا تحتفظ به لنفسها خاصة بل ترحب بمشاركة غيرها من النفوس الأخرى التى تستطيع أن تتقبل نصيبا منه أو تجد فيه نفعا لها لا تعرف لنفسها فيه حقا ليس لغيرها مثله ولا احتكارا من دونها ، انه شائع لمن يطلبه ويستحقه من أهله لا محتكرين لهذا العلم ولا حلقات من المستغلين له مهما ادعى بعض النـاس الاختصاص به انه شائع كالماء لمن يطلبه ويستحقه ومع أنه أغلى المقتنيات جميعا فهو مجانا لأهله والويل لمن يحاول أن يبيع هبات الروح بالمال لأنه يريد أن يعطيها لغير أهلها مقابل ثمن يقبضه ، مع أنها ملك أهلها خالصة لهم يأخذون منها ما شاءوا متى شاءوا على قدر استحقاقهم واستعدادهم بغير ثمن . لذلك نوجه النظر الى الجملة السابقة فى القاعدة السادسة (فانك بذلك تحصل على ما يزيد ثروة الروح المتحدة التى هى

روحك نفسها) . فانك حين تحصل على العلم الروحى لا تحصل عليه لنفسك فقط ولكن لغيرك أيضا — لخير البشرية كلها . ان من ينال هذا العلم يساعد غيره بعلمه وينشر البركة وهو يجمعها ويستكثر منها ، انه بعمله يساهم فى تطور ورفع مستوى الفكر البشرى نحو الكمال ، وكما انتفع بفضل من سبقه على الطريق وتمتع بما خلفوه من كنوز ، كذلك سينتفع من هم بعده من الأجيال القادمة بفضله . انما نحن ذرات فى كيان هائل وما كسبته ذرة انما هو كسب للكل لا يضيع شىء ولا يفقد شىء فاستكثروا من كنوز المعرفة .

(اطلب الطريق أمامك) لا تطلبه بالمحاولات العنيفة ولكن بأن تسلم نفسك لدوافع الروح وارشادها بالاستسلام لتعطش النفس الى الينبوع الروحى وجوعها الى غذاء الروح . احصل على العلم طبقا لقانون الجذب انه يأتيك طبقا لهذا القانون وطوعا لنصه ، انه يعطى لك ان طلبته لا يمنعه عنك ولا يمنعك منه شىء (اسألوا تعطوا) يقول امرسون (ان الأشياء التى لك تهبط اليك واعلم واثقا كما تثق بوجودك ، ان كل كلمة تقال فى أى مكان فى العالم قدر لك أن تسمعها لابد وأن تصل الى سمعك وان ما قدر لك أن تحيط به من مثل أو كتاب أو حكمة لابد وأن تجد طريقها الى علمك بطريق مباشر أو غير مباشر) .

واليك طريقة التثبت من الحقيقة : ان جاءتك رسالة أيقظت فى نفسك معالم حقيقة كادت تنسى وتندثر فبقدر ما يتكشف لك منها أنه حق فهو لك وما بقى منها سيأتيك فى الوقت الذى قدر له أن يأتيك فيه ، قال امرسون لرجل طالبه بالدليل على صحة أقوال له (انى أسأل الله ، ألا أقرر من الحقائق ما يحتاج الى دليل على حقيته) وقد صدق امرسون ان الحق أبلج لا يحتاج الى دليل وانما هو دليل نفسه . والنفس التى استيقظت من غفوتها اذا ألقى اليها من الحق ما أصبحت أهلا لتقبله أدركت بالسليقة أنه الحق . وقد تعجز عن وصفه وايضاحه للغير أو حتى لنفسها ولكنها تعرفه وتعرف أنه حق . ان ملكات العقل الروحى حين تستيقظ تدرك الحق بوسائلها الخاصة بها .

ان العقل الروحى لا يتعارض مع المنطق والعقل السليم ، ولكنه يتجاوزه ويدرك ما وراء قـوة الادراك المعتـادة (intellect) فاذا سمعت أو قرأت شيئا يقال لك انه الحق فاقبل ما يرضاه وعيك ودع مالا يقبله مؤقتا حتى يحين وقته . ربما تقبلت من محاضرة أو درس حقيقة واحدة تحملها اليك جملة واحدة . اقبل هـذه الحقيقة ودع ما عداها من حقـائق الدرس أو المحـاضرة مما لا تستسيغه فان كان ذلك الذى تركته حقا فانه سيأتيك يوم تصبح له أهلا فتتقبله .

لا تجزع اذا وجدت أنك لا تستطيع أن تعى كل ما تسمع أو تقرأ وتجاوز عما لا يتردد صدى صوته فى حنايا نفسك فيوقظ روحك للاستجابة له . هذه طريقة سديدة طبقها على كل ما يلقى اليك من تعاليم حتى على هذا الذى نقوله لك . ولا يهولنك تناقض التعاليم التى تقرؤها أو تسمعها فكل معلم يلتزم فى التعليم طريقته الخاصة ولكل معلم من يتقبل تعاليمه ممن لم يتقبل تعاليم غيره وكل معلم يعلم شيئا من الحقيقة ولكن لن تجد معلما ينفرد بالحقيقة كلها فخذ ما قسم لك فهو لك ودع ما عداه لا تأس عليه ولكن لا تكن متعصبا لأحد من الأستاذين ، ولتكن لك شخصيتك المستقلة اسمع منهم وحكم عقلك فيما تسمع مستهديا هدى الروح فلا تتبع أحدا وأنت مغمض العينين واعلم أن روحك خير حكم لك وأنها أصلح من غيرها من الأرواح للقضاء فيما يتعلق بك لأنها تعرف ما يصلح لها ولا تنقطع عن السعى فى الوصول اليه .

ان للكتب نفعها وللأستاذين والمرشدين نفعهم لأنهم يقترحون عليك ويقدمون لك الحلقات المفقودة ، انهم يضعون فى يدك أطراف خيوط الفكر وعليك أنت أن تتبع الخيط قدر استطاعتك انهم يفتحون أمام عقلك آفاقا يجوبها بما بين يديه من نور على قدر ما وصل اليه من نور الروح — خافتا أو مضيئا شديد الضوء وهاجا — ولكن عليك بنفسك فاستلهمها الحكم فيما ألقى

اليك من تعاليم فهى خير قاض يقضى فيما سمعت ان تجردت عن الهوى والميل تحت تأثير العادة أو البدع أو ما وجدت عليه آباءك . استمع الى الصوت الذى ينبعث من قرارة نفسك وأصخ اليه بسمعك ، انظر الى داخل نفسك فى ثقة وايمان ورجاء ثم أعـد النظر كرتين فهناك النور الذى تأتى منه بقبس أو تجد عليه هدى .

(اطلب الطريق بالتراجع الى داخل نفسك) لقد تحدثنا عن الثقـة فى الشيء الداخلى (السر الذى وقر فى النفس) وهـذه القاعدة تؤكد هذا الدور من أدوار التعاليم الروحية ، تعلّم منها التراجع الى ذات النفس حيث يسود السكون وأنصت الى صوت روحك انه سيفضى اليك بأمور عظائم .

فى ذلك السكون العميق تتفتح قوى العقل الروحية ويفيض منها الى العقل الواعى نتف من الحقائق العظمى المختزنة فى خفاياها ، انها تلقى الى القوة المفكرة شذرات ومن تلك الحقائق ومن تلك النتف والشذرات تتكون أفكار وآراء فى شكل مرتب منطقى .

القوة المفكرة باردة والعقل الروحى (Spiritual mind) حار يموج حياة بالكثير من المشاعر السامية ومنه تفيض الالهامات . فالشعراء والرسامون والمثالون والكتاب والخطباء وغيرهم من الموهوبين تلقوا عنه هذه الالهامات منذ القدم كما يتلقونها اليوم وغدا ومن هذا المعين تلقى الحكيم حكمته . ويستطيع الانسان

بانماء وعيه الروحى أن يرتفع بنفسه حتى يتصـــل بهذه المراكز الرفيعة من طبيعته العليا حيث يضفى عليه من العلم مالم تجرؤ على أن تحلم به قوته العاقلة وذكاؤه المعتاد ، اذا عرفنا كيف نكون واثقين مؤمنين بقوة الروح فانها تقابل ثقتنا بأن تبعث فى عقولنا الومضة من الالهام تلو الومضة حتى تستنير عقولنا ، وكلما تقدم الوعى الروحى ازداد اعتماد الانسان على صوت الروح وأمكنه أن يميز بين ذلك الصوت العلوى وبين هواتف الغرائز الدنيا من كيانه وعقله ويتعلم أن يسلم للروح قياد نفسه حتى تعتمد على تلك اليد العليا التى تأخذ بيدها وتقودها الى سبيل الرشاد .

ليس هذا خيالا ولا مجازا ، انما هو واقع وحقيقة من حقائق الحياة عرفها كل من وصل الى مرحلة معينة من مراحل الطريق اذ يجد نفسه وقد أمسكت بزمامها يد الروح تسير بها فى الطريق القويم .

(اطلب الطريق بالسير الى الأمام فى جرأة) لا تخف . ان شيئا لا يستطيع أن يضرك لأنك روح حى أبدى فتشجع ، انظر حولك الى ما يدور فى العالم وتعلم من ذلك دروسا . انظر ما ينسج نول الحياة الأعظم وما يبدع من أشكال وألوان ، انظر الى كل شىء على انه الحياة ولا تأس على شىء . ان حولك دروسا لمن يريد التعلم أنعم النظر فى الحياة فى شتى مراحلها لا على أنه تعود القهقرى

فترجع الى مرحلة منحطة تركتها خلفك من مراحل سبق لك أن قطعتها واجتزت امتحاناتها وتجاربها ولكن انظر اليها بدون احتقار أو ازدراء لمن لا يزالون فيها واذكر أن ما تراه منحطا الآن هو الذى يرتفع مع الزمن فيصبح يوما ما رفيعا ، فمن طين النهر ترتفع زهرة اللوتس على ساقها مخترقة الماء طبقة بعد طبقة حتى تصل الى سطح الماء حيث الهواء فتنفتح وتبلغ ما تراها عليه من جمال . من طين المادة ترتفع زهرة الحياة خلال طبقات ماء العقل حتى تصل الى جو الروح حيث تنفتح وتزدهر .

انظر حولك وتأمل ما يفعل الانسان ، ماذا يقول الرجال وفى أى شىء يفكرون . ان كل ما يقع فى محله مناسب لأصحابه أما أنت فمحلك فى حالك ، فكر وقل واعمل . انه ميسر لك لأنك خلقت له فهذا مستواك الذى بلغته نفسه فى طريقها نحو الكمال ولكن لا تسخر من أحد ولا تحتقر من تراهم فى مستويات منحطة . اعلم أن الحياة تتألف من كل حى صغر أو كبر وأن الصغير يكون جزءا منها كما يكون الكبير جزءا والصالح يملأ فيها فراغا كما يملأ الطالح فراغا لا غنى للكل عن أى جزء مهما صغر وأنت جزء من هذا الكل .

اشعر بموجة الحياة ترفعك واستسلم لها وألق بنفسك على صدرها ، لاتخش أن تبتلعك فى جوفها لأنك ان استسلمت لها

حملتك على سنامها ، لاتخش ظاهر الحياة وموكبها الحافل حتى عندما تفزع منها لتنطوى على نفسك فى هيكل الروح فى القلب . فظاهرها وباطنها حسن كلاهما فى مكانه ووقته . اجعل هيكل الروح مكان راحتك ولكن لا تهب المغامرة فى الحياة بل أمعن فى أحداثها وضوضائها ، ان ذلك الهيكل لن يحال بينك وبينه انه سيكون دائما فى انتظارك ان أردت أن تلجأ الى سكونه وراحته تفتحت لك أبوابه .

لاتناقض بين القاعدة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فلنعد ذكرهما على أنهما وجها الحقيقة الواحدة ، انهما جانبا الدرع .

(اطلب الطريق بالتراجع والدخول فى ذات نفسك — واطلب الطريق بالسير قدما الى الأمام) ألا ترى أن لا غنى عن الواحدة أو الأخرى فى الابراز الكامل للحقيقة .

لاتطلب الوصول بسلوك سبيل واحد بمفرده فان الكاتبة تقول (ان لكل مزاج سبيلا هو الأنسب له) ولكن هنا اغراء مستتر فقد يركن الطالب الى ذلك السبيل الذى يستريح اليه ويرضاه فيغمض عينيه عن سائر السبل فيصبح متعصبا ضيق الأفق والصدر. أن عليه أن يستكشف السبل جميعا ، السبل الموصلة الى الحق ، يكسب قليلا من هذه وقليلا من تلك مستمسكا دائما بما يرضى ضميره تاركا مالا يؤمن به ، ولا يرتضيه ولكن بدون أن يحكم

ببطلانه وفساده ، لا تكن متعصبا متعنتا ولا تكن من الغـلاة المتطرفين الذين يرون أن الهدى فيما يتبعونه وان كل طريق غير طريقهم ضلال بعيد . فان للحق أوجها متعـددة يرضى كل وجه طائفة من الناس وكم من النظريات تبدو متناقضة مع بعضها فاذا أنعم النظر فيها تكشفت عن أسس متقاربة متجانسة .

ان الكثير من الخلاف بين التعاليم المختلفة قد يكون سـببه استعمال ألفاظ (أو سوء استعمالها) ووضعها فى غير مواضـعها فاذا فهمت الكلمات والاصطلاحات فهما صحيحا بدت الحقائق التى وضعت الكلمات للدلالة عليها وقد زال الكثير من الخـلاف بينها واذا التعاليم المتعارضة تفقد ما بينها من تعارض .

لا تطلبها من طريق واحدة . ان لكل مزاج طريقا هو أنسب الطرق لذلك المزاج . ولكن التقدم فى الطريق ليس بالايمان وحده أو الاخلاص وحده ولا بالتأمل الدينى وحده أو بالسير الحثيث أو بالعمل بما فيه تضحية النفس أو بحمل النفس حملا قاسيا على اتباع الفروض . ان كلا من هذه السبل لا يقدم الطالب سـوى خطوة واحدة . ولكن من هذه الأشياء مجتمعة يتكون سلم المرتقى .

ان زلات الرجل تكون درجات من السلم كلما تاب عن زلة ارتقى درجة وكذلك فضائله انها درجات ضرورية لا غنى عنها ولكن مع أنها تخلق جوا من السعادة فى المستقبل الا أنها لا تكفى وحـدها .

ان طبيعة الانسان الكاملة كلها يجب على من يريد سلوك الطريق أن يستخدمها بحكمة . انه كل رجل بنفسه لنفسه هو الطريق والحق والحياة ولكنه يكون كذلك فقط حين يمسك بزمام شخصيته كاملة فى حزم ويدرك بقوة ارادة الروح التى استيقظت فيه أن تلك الشخصية ليست هى ذاته ولكن ذاته هى ذلك الشيء ، الذى خلقه بالعرق والدمع بكفاحه وجهاده ليصل بفضله وبازدياد قوة ادراكه الى ما وراء هذه الشخصية الفانية الى الحياة الحقيقية ، حياة النور والروح .

حين يدرك أن الحياة التى حوله والتى يحيا فى غمرتها انما وجدت له ، لكيانه هذا العجيب المعقد ، عند ذلك يكون حقيقة على الطريق . اطلبه بالغوص فى أعماق هذا الكيان هذه الأعماق العظيمة التى تكتنفها الأسرار ، اطلبه باختبار كل حال وباستخدام الحواس حتى تدرك نمو الشخصية وتفهم معناها ومدى غموض وجمال الشخصيات الأخرى التى تعيش معها تلك الذرات الالهية التى تجاهد مثلك وتكافح جنبا الى جنب معك ويتألف منها هذا الجنس الذى تنتمى اليه . اطلبه بدراسة نواميس الوجود وقوانين الطبيعة وما وراء الطبيعة وما فوقها . واطلبه بانحناء النفس اكبارا واجلالا لذلك النجم الخافت الذى يومض فى أعمق أعماقك فكلما أمعنت فى التأمل والتعبد ازداد نوره قوة عندئذ تعلم أنك اهتديت

الى أول الطريق وعرفت بدايته ، فاذا وصلت من الطريق الى غايته تحول الضوء فجأة الى النور اللانهائى : نور السموات والأرض .

هذه القاعدة العشرون يجب على كل طالب يريد أن يحيا حياة الروح ويطمع فى أن يرقى مدارج الطريق أن يقرأها بامعـان وتدبر .

يجب أن تقرأ وتقرأ مرارا يجب أن تدرس . ان فيها الكثير الذى لا يدرك فى أول قراءة بل ولا فى القراءة العاشرة ولا المائة . ان معانيها تتكشف لك على قدر ما تستحق أن يتكشف لك منها عند كل قراءة بما كسبت من خبرات .

انها تقول لك يجب ألا تكون حياتك ذات جانب واحد بل يجب أن تتعدد جوانبها يجب أن تغترف من مزايا الحياة الروحية ومع ذلك فلا يصح أن تهرب من الحياة العامة لأن لك فيها دروسا يجب أن تتعلمها وفى الدنيا من يحتاج اليك . ان فيك مددا لغيرك ويجب أن تقوم بدورك ، انك لا تستطيع أن تهرب من الحيـاة ولو أردت الهرب . فعليك أن تقبل القيام أولا بالدور الذى قدر لك أن تقوم به وروض نفسك على أن تستعمل حاضرها سلما ترتقى عليه لما هو أعظم . انك سن ترس من تروس ماكينة الحياة العظمى ولابد من قيامك بما خلقت له .

(ان طبيعة الانسان الكاملة كلها يجب على من يريد سلوك

الطريق أن يستخدمها بحكمة) هذا الأسلوب فى الحياة يجب أن يلازمك فى عملك تجارة كان أو صناعة ، أو غيرهما فان لم تستطع أن تلتزمه فى كل شىء فلابد أن هناك نقصا فيك أو فيه .

لا تنتظر من العالم أن يفهم وجهة نظرك فى الحياة ولا خير فى أن تفرضها على غير المستعد لتقبلها — اذكر دائما أن اللبن للأطفال واللحم للرجال . ان أكثر الناس الذين حولك مثلهم كمثل أجنة لم تولد بعد فى حياة الروح وقليلون جدا هم الذين تنفسوا أول أنفاس الحياة .

لا تحمل قلبك على كفيك لكل ناقر فتخطىء بذلك خطأ كبيرا . العب دورك فى مسرحية الحياة التى فرض عليك الاشتراك فيها . ومع علمك بأنها لعب أطفال فلا تكن مصدر ضيق لزملائك الأطفال فيضيقوا بك ، شاطرهم ما هم فيه كأن ما يلهيهم من تجارة يلهيك ، تتعلم من ذلك دروسا .

ولا تحسبن نفسك مكلفا بأن تروح وتغدو ترتسم عـــلى وجهك سيما الوقار والجد والرزانة تظهر بمظهر التقى الورع الذى تضيق قداسته بالحياة لا يجد فيها مكانا طاهرا يضع عليه قدمه . كن عـــلى سجيتك لا تتكلف والزم طبعك لا تزد عليه ولا تنقص منه . ان هزك الطرب فلا تخش أن تبسم أو تضحك للطرب فان روح المرح من أكبر النعم التى أنعم الله بها على الانسان

وهى له وقاء من كثير من الاثم الذى يولده الكبت ، ولعل ضحكة من القلب تعدل صلاة . فلا تقابل الأشياء بأكثر مما تستحق من الاهتمام ولا تدع لهو روضة أطفال الله يبدو لك حقيقة وجدا .

ان الكثير مما فى الحياة دعابة ومزاح عند من ارتفع وعلا حتى أصبح ينظر الى الحياة من حالق ، انها لهو ولعب يعد أطفال الله للحياة الحقيقية .

لسنا بحاجة لأن نتوسع فى التعليق على القاعدة العشرين وأن نفيض فى شرحها فذلك أمر يطول لأنها مليئة بالتفاصيل حتى لتكاد تشمل الموضوع كله ، امعن فى دراستها وأوغل فيها برفق فان فيها للطالبين قاعدة للحياة . ان جملها الختامية رائعة انها تسألك أن تفتح نفسك لاشراق الروح فعلى ضوء النور الذى يشتعل فى أعماقك تستطيع أن ترى كل شىء — كل شىء بذلك الضوء يتضح — استمع الى قولها (اطلبه بانحناء النفس اكبارا واجلالا لذلك النجم الخافت الذى يومض فى عمق أعماقك فكلما أمعنت فى التعبد والتأمل ازداد نوره قوة . عندئذ تعلم أنك قد اهتديت لأول الطريق وعرفت بدايته فاذا بلغت منتهاه تحول الضوء الى النور اللانهائى نور السموات والأرض) .

اقرأ أيضا الهامش الذى ذيلت به هذه القاعدة . ان هذه التعاليم كلها تقود الى فجر الوعى الروحى .

أما القاعدة الحادية والعشرون فتقول (انظر وابحث عن الزهرة وهى تتفتح فى السكون الذى يلى العاصفة) .

والتى تتفتح حينئذ فقط . ان قوس قزح الذى يبشر بالوعى الروحى لا يظهر الا بعد هدوء العاصفة الهوجاء التى عصفت بك فجرفتك انها رمز البشرى الالهية بما أعـد لك من سلام مقبل عليك .

درسنا القادم سيكون وقفا على موضوع الوعى الروحى ، وسنتناول فيه القاعدة الحادية والعشرين وما تنصب عليه ، انهـا واسطة العقد وحجر الزاوية . صحيح انه يجب وصف الجانب الآخر من العقد ، ولكن لا مناص من دراسة (واسطة العقد) أولا . ولكن يجب أن يراجع هذا الدرس الذى نختمه الآن وأن نلم بكل أطرافه حتى نستطيع فهم الدرس التالى .

الدرس الثالث

الوعى الروحى Spiritual Consciousness

القاعدة الحادية والعشرون من القسم الأول من كتاب ضوء على الطريق ، القاعدة التى تعنى بذلك الشىء الذى انتهينا اليه فى القاعدة السابقة تقول :

« انظر باحثا عن الزهرة وهى تزدهر وتينع فى السكون الذى يلى العاصفة . لاقبل ذلك ، انها ستنمو ، انها ستعلو فوق ساقها ، انها سترسل فروعا وأوراقا وبراعم أثناء هبوب العاصفة وخلال احتدام المعركة ولكن الزهرة لن تتفتح الا بعد أن تذوب كل شخصية الانسان وتنصهر وبعد أن تتولاها تلك اللطيفة الالهية التى خلقتها وسيلة تجرى عليها تجربة جدية واختبارا دقيقا ولا يمكن قبل أن تستسلم الطبيعة بكاملها وتصبح تابعا خاضعا للروح لا يمكن قبل ذلك أن تتفتح الزهرة وتزدهر » .

عندئذ يسود سكون كالسكون الذى يعقب سيل المطر الغزير فى المناطق الاستوائية حيث تعمل الطبيعة بسرعة يكاد يستطيع الانسان معها أن يرى عملية ابداعها . هدوء مثل هذا الهدوء يحل بالروح المضطربة فتطمئن وفى هدأة السكون يحدث الحدث الجلل

العجاب الذى يدل على أن الطريق قد وجد . سمه بأى الأسماء شئت . انه صوت تسمعه يتكلم ولا يوجد للصوت صاحب تراه . انه رسول يأتيك ، رسول بلا جسم ولا رسم أو هو زهرة النفس التى تفتحت . انه لا يوصف صراحة ولا مجازا ولا استعارة . ولكنك تحس به بعد أن تكون قد تمنيته وعملت له حتى فى وقت هبوب العاصفة .

قد يستمر هذا السكون لحظة وقد يستمر ألف سنة ولكن له نهاية ورغم انتهاء مدته ستحمل معك قوته . ان المعركة تثور المرة بعد المرة ولابد لك من خوضها والانتصار فيها كل مرة ان الطبيعة لا تسكن الا لماما .

ان الزهرة التى تتفتح فى السكون الذى يلى العاصفة هى زهرة الوعى الروحى التى كافحت فى سبيل ازهارها (نبتة الحياة) تلك النبتة التى آرسلت من الحبة جذورها وساقها وأخرجت على الساق أوراقها بعد آن اخترقت الساق ظلمة المادة الكثيفة صاعدة الى الفضاء النقى اللطيف الذى يعلو المادة فأخرجت ورقة بعد ورقة وجعلت تشق حجابا وتلقيه بعد حجاب حتى خرجت وظهرت فى النهاية برعمة زهيرة الروح وعندها بدأ التفتح الحقيقى .

ظهور الزهرة ، زهرة الوعى الروحى — أول أشعة الاشراق — يحدد أحرج فترة فى تطور الروح . وكما يقرر السفر الصغير :

انه يحدث بعد العاصفة عندما يحل السكون محل عصف الرياح ، وقصف الرعد وما فى العاصفة من حوادث جسام ، فى سلام هـذا الهدوء تجد نفس الانسان فى انتظارها عجبا . فاذكرى هذا أيتها النفس عندما تجدين نفسك فى عاصفة القلق الروحى وهى نكباء تعصف بكل المعالم القديمة التى عرفتيها وتطيح بكل ما كنت تستندين اليه من حمى وسند حتى أصبحت تحسين بعد أن ذهب كل سند وكل حمى انك وحيدة بلا عزاء ولا سند ولا حام ، أذكرى فى تلك اللحظـة من اليأس والحـزن الروحى أن سـلاما يفوق كل ما يخطر على القلب آت لا ريب فيه انه سلام لن يريم ولن يهجرك ، سلام ليس بكثير فى سبيله تحمل شدائد ألف زوبعة .

ان وقت الايمان الأعمى ايمان العجائز يمضى ليحل محله وقت المعرفة ، وقت اليقين . انه لمن العسير التحدث عن الأحوال الروحية العليا بكلمات مما يستعمل على المستوى المادى . يقول امرسون الذى كابد هذه الأحوال ، أحوال الوعى التى تتحدث عنها :

« كل كلمات يقولها الرجل الذى عاين تلك الحياة ليصفها بها تبدو جوفاء لأولئك الذين لا مقام لهم فى نفس المحيط من الفكر . أنا لا أجسر على الخوض فى الحديث عن تلك الحياة ان كلماتى لا تطيق التعبير عن احساساتها العليا ، انها تقصر عن حمل معناها وبلوغ مداها وحرارتها فتسقط دون الهدف باردة لا روح فيها » .

ان هذه الحياة وحدها هى التى تستطيع الهام من تشاء . ومع ذلك فانى أرغب ، ولو بكلمات غير طيبات ان لم أستطع الى الكلمات المقدسة سبيلا ، أرغب فى الاشارة الى سماء هذه القدرة الالهية ناقلا ما تجمع لدى من تلميحات عن سمو الناموس الأعلى فى بساطته وقوته .

انه شىء يحس ولا يدرك بالعقل ومع ذلك فالعقل يستطيع أن يدركه ادراكا جزئيا عندما يرفعه الاشراق الروحى الى المستويات العليا .

ان اليد التى تسطر هذه الكلمات لترتجف وهى تخطها لأنها تعرف أى شىء تواجه وان محاولة تحميل الكلمات العادية عبء التعبير عن هذه الحياة العليا وتصويرها لمحاولة تتصف بالقصور والغباء ، ومع ذلك فانه يبدو لنا أننا قد نودى علينا لأن نقوم بهذه المحاولة وليس لنا الا أن نقول لبيك لبيك لقد فرض علينا العمل وليس لنا أن نجفل منه .

أشرنا فى الدروس الأربعة عشر الى أقانيم العقل الثلاثة أو الخواص العقلية الثلاث : العقل الغريزى والقوة المفكرة والعقل الروحى . ونود هنا أن نوجه النظر الى ما ذكرناه عن العقل الروحى أن هذا الاشراق (هذه الزهرة التى تزدهر وتينع فى السكون الذى يلى العاصفة) انما يأتى من هذا القسم العلوى من طبيعتنا .

ولكن يجب أن نوضح أولا المقصود بالعاصفة التى تسبق ازدهار الزهرة .

يرتقى الانسان تدريجيا من المراتب العليا من العقل الغريزى الى مستوى القوة المفكرة أو العاقلة (intellect) ، وهو أثناء اجتياز مرحلة العقل الغريزى حتى وهو فى أدوارها الأخيرة أو العليا التى تتداخل فى الطبقات الدنيا من القوة المفكرة لا يشغل نفسه بمشاكل الحياة — لغز الوجود — بل انه لا يشعر بوجود هذه المشاكل أو هذا اللغز على الاطلاق .

انه يجتاز وقتا سهلا هادئا لحد ما لأن كل همه منصرف الى ما يتصل بالمستوى المادى من الحياة فما دامت حاجات الجسد ميسرة القضاء فعلى غيرها من الشئون العفاء . وحالة الانسان هذه ، تمثل مرحلة طفولة البشرية ولكنه بعد قليل يبدأ يعانى المتاعب على مستوى آخر . ان قوته العاقلة اذ تستيقظ تأبى عليه الاستمرار فى قبول الأشياء على علاتها كالأمر الواقع المسلم به . ان الكثير من الأسئلة التى لا عهد له بها من قبل تفرض نفسها عليه ، وتلح فى طلب الاجابة عنها وهنا يبدأ اهتمامه بما تحدث به النفس منذ الأزل (لماذا ؟) ويصف تولستوى هذه المرحلة فيبدع حين يقول :

« لا تكاد الناحية العقلية فى كيان الرجل تسيطر عليه حتى تتفتح أمامه عوالم جديدة وتتضاعف أمانيه أضعافا لا عدد لها . انها تبلغ عدد أقطار الدائرة الواحدة لا نهاية لها ويعمد العقل الى

بذر بذور الأمانى ثم يعمد الى العمل على تحقيقها وهو يحسب أن السعادة فى تحقيق هذه الأمانى » .

ولكن السعادة الدائمة أيا كان نوعها لا توجد فى هذه الحالة اذ يملأ النفس حنين وشوق لا يسكنان يدفعانها الى آفاق أعلى . ولكن القوة العاقلة هى آخر جهد العقل ومحيط دائرته ولا قبل لها بادراك ما يخرج عن دائرة طاقتها ، فهى تقاوم ذلك الحنين الذى يملؤها اذ تحسبه وليد خرافات قديمة وسذاجة سابقة ثم تشرع فى حل المعضلة الكبرى والاجابة على الأسئلة التى فرضت نفسها واذا بها تدور وتدور حول نفسها باحثة عن ذلك السلام والنعيم اللذين تشعر بقربهما منها وانتظارهما لها ولكنها لا تعلم — وأنى لها أن تعلم — أن فكاكها من هذه الدائرة المقفلة متوقف على اشراق شيء أعلى منها يساعد على استخدامها كأداة تصبح بفضله أكثر دقة من ذى قبل .

كثيرون ممن يقرأون هذه السطور سيرون فيها صورة صحيحة لهول حالة القلق العقلى هذه . أنها ألم روحى كمخاض الوضع عندما تعترف القوة العاقلة بعجزها عن حل المعضلة الكبرى التى تلح فى طلب الحل عندما يضرب العقل بجناحيه جوانب القفص المحيط به وهو يدور داخله يتلمس المخرج فلا يظفر به وانما ينتهى فى كل دورة الى حيث بدأ . هذه هى العاصفة العقلية التى نحيا فى هديرها تمزق أنواؤها ثوب العقل وتتركنا تحت رحمة الزوبعة ،

انها تعصف بكل ما كان يبــدو لنــا راســخا راسى الأركان نجد الطمأنينة والأمن فى الالتجاء اليه والركون الى ظلاله تعصف به حتى يبدو لنا أننا فقدنا كل ملجأ فيخيم علينا اليأس وقد ضاع الرجاء وانعدم السلام وفقدنا هدوء البال والعاصفة تتقاذفنا أنواؤها ذات اليمين وذات الشمال لا ندرى ما المصير. ان الأمل الوحيد هو فى الايمان باليد الخفية التى نشعر أنها تمتد فى الخفاء لتقودنا ، تلك اليد التى دفعت نيومان الى كتابة شــعره الذى تفيض كلماته بالجمال ، ذلك الجمال الذى سحر آلاف القراء الذين يختلفون عنه فى طريقة ايمانهم بالحق وان كانوا اخوته فى الروح فآمنوا بقــوله :

أرشدنى أيها الضوء الرفيق فى حلكة الظلام .
أرشدنى خذ بيدى للأمام .
الليل بهيم وأنا عن موطنى بعيد .
أرشدنى وخذ بيدى للأمام .
احفظ قدمى من الزلل . لا أسألك الرؤية .
رؤية المنظر البعيد فحسبى خطوة أخطوها للأمام .
أرشدنى وخذ بيدى فى الظلام .

وفى الوقت الموعود ، والموعد المحدد ، يلوح فى الظلام شعاع ضئيل مخترقا السحب ، يضىء السبيل لذلك التائه الهائم فى مهب العاصفة ، المعذب بسوطها ، فيجد على ضوئه موطئا لقدمه ، فيخطو

خطوة واحدة فى كل ومضة : — لقد ظهر على ومضات الضوء طريق جديد لا يكاد يمشى عليه خطوات معدودات ، حتى يبصر بواد لا عهد له به وصفه كاتب فقال :

« واذا بالسائر يرى أنه قد دخل أرضا مجهولة ، وأنه قد اجتاز حدود مملكة جديدة أرضها غريبة لا عهد له بمعالمها ، ولا يعرف شيئا عن مغانيها . فيرى بعد الشقة بينه وبين الأصدقاء الذين خلفهم بأسفل المرتقى الذى صعده ، فيهتف بهم أن يلحقوا به ، ولكن ، يبدو أنهم لا يسمعون نداءه . ان كلماته لا تصل اليهم . ويبدو أنهم مشفقون عليه يخشون عاقبة ما بلغ من ارتفاع . انهم يلوحون بأيديهم كأنما يدعونه للعودة اليهم لينجو بنفسه مما يخافونه عليه ، انهم متهيبون أن يلحقوا به ، يائسون من نجاته . ولكن يبدو عليه أن قد تملكته جرأة لا يعرفونها فيه ، وقد ينكرها هو نفسه . ان قوة تدفعه الى الامعان فى تقدمه نحو هدف لا يتبينونه ولا يدرك هو حقيقته ، ولكن شوقا عارما قد تملكه فهو يغذ السير للأمام » .

ان النور الذى ينبعث من الوعى الروحى يقود السائر على الطريق ، ان وجد فى نفسه الجرأة على الامعان فى السير على هدى ذلك النور . ان نور الروح مرشد أمين دائما ، ولكن القليلين هم الذين يؤمنون به ويسلمون له قيادهم . ان أشعة ذلك النور

يراها المستعدون لها الذين ينتظرون فى رجاء وايمان اليوم الذى تتفتح فيه بصائرهم لاستقبالها . ان هذا النور ليس ملكا للشرق من دون الغرب ، وكل ما فى الأمر أن رجال الشرق وهبوه من عنايتهم أكثر مما وهبه أهل الغرب . ان هذا النور ملك شائع لكل من يتوجه اليه ، لكل رجل وكل امرأة ، لا فرق بين شرقى وغربى . ولقد ظفر بنعمته ناس فى كل مكان ، وفى كل زمان ، أنباء قصته فى كل حال تتفق فى جوهرها ، وان اتسعت بينها شقة الخلاف فى التعبير .

وأول علامات حلول الوعى الروحى ، اشراق العلم بحقيقة الذات (Ego) . الانتباه الى وجود الروح حقيقة ، عندما يبدأ الانسان يحس بأن ذاته هى الروح ، بدل مجرد الاعتقاد بأن فيه شيئا عجيبا اسمه الروح ، لا يعرف من أمره شيئا .

نقول : يوم يبدأ الانسان يشعر بأنه هو عين نفسه بدلا من شعوره بأن له نفسا لا يعرف عنها شيئا أو أنه سيكون له نفس ، عند ذلك يكون هذا الانسان متجها نحو أول مراتب الوعى الروحى ان لم يكن داخل نطاقها فعلا .

ان لازدهار الزهرة وتفتحها دورين وان تداخل كل منهما فى الآخر ، أولهما الشعور الكامل بالوعى الذاتى (أنا كائن) (I am) والثانى المعرفة الكونية (Cosmic Knowing) وسنحاول أن نعطى

فكرة عن هذين الدورين ولو فكرة فجة قليلة الغناء ونحن نعلم علم اليقين أن من لم يعاين أحد الدورين ولم يصل الى مرحلته ، سيجد كلماتنا خالية من المعنى .

يمكن تشبيه الحالة الأولى حالة (أنا كائن) (I am) ببرعمة الزهرة ، والزهرة عندما تنفتح عنها البرعمة ، بحالة (المعرفة الكونية) (Cosmic Knowing) وكثيرون ممن لم يكابدوا حالة الوعى الذاتى (معرفة النفس) قد يتصورون أنها هى الادراك العقلى للنفس أو الايمان والاعتقاد بوجود النفس حقيقة ، ذلك الإعتقاد الذى ولدته فيهم التربية الدينية ، ولكنه شىء آخر مختلف تمام الاختلاف ، انه أكثر من تصور عقلى وأكبر من ايمان أعمى مبنى على كلام الغير والثقة فيه ، بل انه أكبر حتى من الايمان بالوعد الالهى بالخلود . انه المعرفة والوعى (اليقين) بأن الانسان نفس ، هو أن يصحو الانسان صحوة يدرك بها أنه كائن روحاني خالد .

هنا أيها الأصدقاء نجد أنفسنا مرغمين على أن نتوقف عن الاسترسال فى الحديث لعدم وجود الكلمات التى تستطيع التعبير عن الحالة العقلية فى هذا الدور ، لأن الجنس البشرى ، بسبب عدم وصوله الى هذه الحال ، لم يضع كلمات خاصة بالتعبير عنها . فى اللغة السنسكريتية كلمات أدخلها فيها اليوجيون القدماء

يستطيع الهندى المثقف أن يدرك معناها لحد ما ، ولكن لغات الغرب لا تحوى كلمات تؤدى معانيها ولذلك سنلجأ الى الأمثال نضربها لنقرب المعنى ولو أنها أمثال فجة .

ليس من السهل أن يصف انسان الحب والمواساة ونحوهما من العواطف لشعب لم يسبق له أن عرف هــذه الاحساسات — لم يعرف الحب ولم يعرف المواساة — انها احساسات يجب أن يشعر بها الناس فاذا شعروا بها وضعوا لكل حالة منها اسما اذا ذكر عرف السامع أن هذا الاسم يراد به تلك الحالة .

كذلك الوعى الذاتى (أنا كائن) الذى نتحدث عنه ، انه يحل بالنفس التى تفتحت تفتحا يكفى لاستقبال أشــعة العلم الصادرة عن العقل الروحى من خلال هذا التفتح ، فاذا أشرقت النفس بنور تلك الأشعة (عرفت) . هذا كل ما هنالك . انها تعرف نفسها ، تعرف أنها وحدة خالدة ولكنها لا تستطيع أن تفسر هذا الذى أشرق عليها فعرفت به لأنه لم يطلق عليه اسم اذا ذكر دل عليه . انه ليس فكرة يمكن أن يفسرها الانسان بالقول المعقول للغير ولا حتى لنفسه ، فهو أمر لا صــلة له بالعقــل أو الرأى أو التعليل أو التصديق بالاقناع أو الرجاء والأمل أو الايمان — ايمان العجائز .

انه وعى . انه صحوة . وككل وعى أو احساس لا يمكن وصفه

لمن لم يكابده أو لم يذقه — تصور وصف النور لمن ولد أعمى ، أو وصف طعم السكر لمن لم يذق حلوا فى حياته ، أو وصف البرد القارس لمن عاش حياته كلها فى المناطق الاستوائية ولم يشعر بالبرد فى حياته . اننا لانستطيع أن ننقل هذه الاحساسات أو المدركات الى من لا عهد لهم بها لأنهم لم يعرفوها فلم يصفوها ولم يضعوا لها أسماء تعرف بها .

كذلك نحن لانستطيع أن ننقل هذا الاحساس الروحى الى من لم يذق طعمه ولا عرفه . وهذه حقيقة يعرفها من مرت به فى حياته فترة عرف فيها حالا من الأحوال (الدينية) كما تسمى عادة .

ولقد عرفنا حالة من حالات هذا الوعى الروحى حلت برجل من قرية يبدو أن أحدا غيره لم يصل فيها الى مثل حالته . كان رجل أعمال ناجحا ذا مقدرة ، وحدث أن أحس فيضا من أشعة النور الروحى تغمر عقله فكان يحس بوجود روحه وخلودها فيسبب له ذلك الاحساس حيرة وهما حتى كان يظن أنه يوشك أن يصاب بالجنون . ومع أن حالته هذه كانت تضفى عليه سعادة لا توصف ، الا أنه كان يرجو أن تمر وتنقضى . ولكنها استمرت حتى بدأ يفكر فى توكيل غيره فى ادارة شئونه خوفا مما حسبه اختلالا فى قواه العقلية ، فان حالته هذه لم يكن لمثلها وجود —

فيما يعلم الى أن وقع فى يده كتاب يتحدث مؤلفه حديث من يكابد هذه الحالة ويصفها فأدرك الرجل ما وراء حديث المؤلف ولو أن غيره ما كان ليفهم من الكلمات ما فهم هو فصاح : الحمد لله ، لقد وجدت مخبولا آخر .

لقد أشرق النور على الكثير من الناس — أكثر مما يظن — ولكن هؤلاء الذين يشرق عليهم النور لا يتحدثون — غالبا — لأنهم يخشون أن يتهمهم أصدقاؤهم وأهلهم بالخبل . والحق أنه ليس من الصواب أن يتحدث من يحس هذا الاحساس الى غيره فى أمره ، فان الحديث فى أمر الى غير أهله يجعلهم يظنون بالمتحدث الظنون . وانه لعجب يدعو الى التندر والاستغراب ، ان النـــاس وهم يتحدثون كل يوم عن النفس والروح ، ويدعى كل منهم أنه روح أو أن له روحا ، انه لعجب أن يعتبروا من يقول انه قد عرف هذه الروح ، واتصل بها حقيقة ، رجلا شاذا .

ان اعتقاد الناس فى النفس وخلودها ما هو الا شىء سطحى ، حتى انهم ليخشون الموت كما يخشاه من يؤمن بأن الموت فيه نهاية الانسان ، وحتى ليرفضون كل الدلائل التى تدل على أن للحياة أحوالا أخرى غير هذه الحالة العادية التى نحياها ويعتبرون الذين يؤمنون بهذه الأحوال أفاكين أو مجانين . انهم يؤمنون بأن الحياة على الأرض هى كل شىء وأنه لا ادراك الا ادراك الحواس

الخمس وما عداها وهم أو خداع أو حيلة ، كل معتقداتهم فى النفس حديث لسان فقط ينكرون أن يكون لأحد قوة لا يجدونها فى أنفسهم مهما كانت آثارها جلية واضحة .

ولكن من أشرق على دائرة تفكيره ، واخترق محيط عقله ، بعض أشعة الحق الصادرة من العقل الروحى ، ينتهى عهده بهذا الاعتقاد السطحى ، وتصبح الروح بالنسبة له حقيقة لها فى نفسه أثر يجعله كائنا آخر غير الناس الذين يعيشون حوله . ومهما تظاهر بالسير سيرتهم ، فانهم يحسون أن فيه شيئا غريبا عليهم ، وان كانوا لا يستطيعون معرفة كنه هذا الشيء .

ويجب ألا نظن أن هذا الوعى يتفتح ، وان البرعمة تظهر وتتحول الى زهرة دفعة واحدة ، وان كان هذا حدث فى بعض الحالات ، ان هذا التفتح يحدث فى معظم الحالات تدريجيا . ولكن الانسان بعد أن يبدأ هذا التفتح ، لا يمكن أن يكون كما كان قبل بدء مرحلة التفتح هذه . قد يبدو له أن هذا الوعى قد اختفى بعد احساسه به أول مرة ، ولكن اشراق الوعى يعاوده مرة بعد أخرى ، وهو (أى الوعى) لا ينقطع خلال اختفائه أو ظهوره عن عملية تطوير طبيعته (طبيعة الانسان) من حال الى حال . ويظهر تطوره هذا فى تصرفاته وعاداته اذ يصبح أكثر مرحا وسعادة ، وما يقض مضاجع غيره من أحداث لا يكاد يكون له فى نفسه

أثر . حتى انه ليجد مشقة فى اظهار حزنه مجاملة لمن تصيبهم الكوارث ممن حوله ، حتى ليظن الناس أنه قد تحجر قلبه ، ومات احساسه ، ولو أن قلبه يفيض رحمة وعطفا . ولكن طريقة تفكيره قد تغيرت ، ونظرته للأمور أصبحت من ناحية تختلف عن نظرة غيره من الناس .

انه لا يخاف ، انه لا يهاب شيئا ، حتى ليبدو للناس كأنما استولى عليه الخرق فلا يبالى بما يحذره غيره ، ويفقد الزمن فى نظره قيمته ، لأنه يعيش فى الأبدية ويحيا فيها . وكذلك المكان أيضا يتضاءل أمامه فلا تعود للمسافات سابق قيمتها . انه يدرك مالا يدرك سائر الناس فيفهم من أقوال السلف وحتى من أقوال بعض المعاصرين من المعانى ما يخفى على سواد الناس .

ومن الكتاب من يشرق فى عقله بصيص خافت من ذلك النور فيعتريه من ذلك حال ينقل العقل فيها عن الروح الهاما يصيغه فى كلمات يفهمها من يتمتعون بهذا الاشراق ولو أن الكاتب نفسه قد لا يدرك كل معانيها لضآلة حظه من النور — انه حديث الروح للروح تدركه الروح ولا تدركه العقول .

من قرأ هذه الكلمات وفيه ما قصدنا من قوة الروح كبرت هذه القوة أو صغرت ، فليفرح وليتشجع ولا يحسبن أنه وحيد بين الناس فان له آلافا من الاخوة والأخوات يشاركونه فى تفكيره

ويتبادلون واياه المدد والعون فيفيد ويفيدون من هذا الاتصال الروحى وهم لا يشعرون .

ان كنت واحدا من هؤلاء فالزم الهدوء والصمت ان وجدت فى ذلك حكمة ولكن افتح مغاليق نفسك لما ينساب نحوك من حدب وعون على أمواج الفكر ، ان فكرك سيجذب اليه ما شابهه من أفكار اخوتك فى الروح كما أن أفكارهم ستجذب فكرك اليهم . ستجد فى الكتب والصور كلمات كتبت لك ولمن على شاكلتك . أعد قراءة ما سبق لك أن قرأته من الكتب القديمة ، وانظر مدى الخلاف بين ما فهمته منها من قبل وما تفهمه الآن بعد أن وعيت . اقرأ القرآن والتوراة . اقرأ من جديد شكسبير ، واقرأ شعر الشعراء وحكم الفلاسفة ، تجد أن أولئك الذين تقرأ لهم اخوة لك وتنفتح لك ما أغلق سابقا دونك من أبواب ، ويتضح لك ما كان خافيا عنك من قبل . انك لست وحيدا ، انك عضـــو فى أسرة أفرادها كثيرون ، وعددهم كل يوم فى ازدياد .

ولكن احذر أن يملأك الغرور وأن يتملك العجب والاعجاب نفسك تيها بما بلغت من تقدم ، واعلم أنك ما زلت على العتبة ، وما زال رواق المجهول من دونك لم تدخله ، فان دخلته فاعلم أن فيه درجات يرقاها الداخلون درجة بعد درجة ، ومراتب يبلغونها مرتبة اثر مرتبة ، واعلم أنه لابد لك من اجتياز مرحلة الاستقبال والفحص والقبول قبل أن تواصل المسير .

وقبل أن ننتقل الى المرحلة التالية من مراحل نمو الزهرة ، قد يستهوى القراء أن ينصتوا الى وصف تجربة طريفة سطرها كاتب معاصر كبير — رديارد كبلنج — ذلك الكاتب الذى يعى أكثر مما يتحدث به الى قرائه الأمريكيين والانجليز فى قصته التى كتبها عن حياة الهند الشرقية التى سماها (KIM) . كثيرون يقرأون ما كتب فلا يرون فيه شيئا ، ولكن من وهب قبسا من هذا الوعى الروحى سيجد فيه مالا يجده غيره واليك هذا الوصف :

« ودار فى خلده . أأنا الآن وحيد فريد ليس فى الهند كلها من يشعر بأنه وحيد مثل ما أشعر !! فان مت اليوم فمن ينقل النبأ ، والى من ينقله ؟ وان عشت ، والله رحيم ، وعلى كل شىء قدير ، فسوف يكون لرأسى ثمن فأنا ابن من أبناء التعويذة ـ أنا كيم » .

« قليل من البيض ـ قليلون جدا وكثيرون من الأسيويين يستطيعون أن يلقوا بأنفسهم فى غيبوبة بأن يرددوا أسماءهم لأنفسهم تاركين لعقولهم العنان للتأمل فيما يقال له الهوية الشخصية .

« من هو كيم — كيم — كيم ؟ .

« وتربع فى ركن من أركان قاعة الانتظار المزدحمة الصاخبة ، محلقا بفكره بعيدا فوق كل فكر وراحتاه فى حجره تتشابكان ، وقد ركز عينيه على مالا يزيد على رأس الدبوس ، فما هى الا لحظة

ـــ لصف ثانية ـــ واذا به يحس أنه يستطيع أن يصل الى حل المعضلة الهائلة . وهنا حدث ما يحدث دائما وهوى عقله من تلك الآفاق العليا هابطا كما يهوى الطير الجريح ، فمسح عينيه بيده ، وهز رأسه .

« وفى تلك اللحظة ، وقف أمامه شيخ طويل الشعر من ذوى البركة من الهنود ، كان قد اشترى تذكرة سفر لتوه ، وقف يحدق فيه ، ثم يقول له :

« وأنا أيضا قد فقدتها ، انها احدى بوابات الطريق ولكنها مغلقة فى وجهى منذ أعوام .

« فقال له كيم فى خجل شديد : عن أى شىء تتكلم ؟

« قال الشيخ « لقد كنت مستغرقا فى التأمل فى الروح متعجبا تتساءل أى شىء هى النفس وماذا عساها أن تكون ـ أنا أعرف ـ ومن ذا عساه أن يعرف غيرى ؟ » .

كيم تأليف رديارد كبلنج ص ٢٩٥ ـــ ٢٩٦ طبعة دبلداى وبيج ـــ نيويورك .

ويقول أصدقاء تنيسون الشاعر الأقربون أنه كان ينتقل الى حال الوجـــد ويتمتع بشىء من الاشراق الروحى بعملية مشابهة لتلك التى اتبعها كيم فكان يكرر اســـم نفسه متأملا فى حقيقة

شخصيته ويقول انه كان فى هذه الحالات يعاين نفسه ككائن روحى خالد مستقل منفصل عن الجسد .

أما نحن فلا نقر هذه الطريقة ، طريقة (اقتحام المملكة) ، وانما نفضل أن يضفى العقل الروحى بالتدريج نوره على دائرة الوعى ، فاننا نرى أن هذه هى الطريقة المثلى وان كان كثير من معلمى اليوجا يخالفوننا فى الرأى ، ويدربون طلابهم على رياضيات وطرق أعدت لاحداث هذا التفتح فى الوعى ، على أن هذا خلاف فى الرأى حول الوسائل الموصلة الى نفس النتائج ، ولا نحب أن نفرض رأينا على من يرى الرأى الآخر .

وفيما يلى رياضة من خير هذه الرياضات التى يرى اليوجيون أنها تساعد على تحقيق الاشراق الروحى .

« رياضـــة »

استلق فى استرخاء مريح ، وتنفس تنفسا منتظما ، مركزا فكرك على (نفسك الحقيقية) متمثلا نفسك على أنك شىء منفصل عن الجسد ، وان كانت نفسك تشغله ، وتقيم فيه ، وتستطيع أن تفارقه متى شاءت . فكر فى نفسك : لا على أنك الجسد بل النفس التى فيه . فكر فى جسمك على أنه كالقشرة ، أو الغلاف المريح النافع ، ولكنه أداة لا أكثر ، وآلة لخدمة ذاتك الحقيقية . فكر فى نفسك كائنا مستقلا يستعمل الجسم فى حرية تامة ، ولأحسن

غاية ، وأكبر منفعة ، لها عليه مطلق السلطان ، ولها فيه حرية التصرف . وفى خلال تأملك ، تجاهل الجسم تجاهلا تاما ، تجد نفسك لا تشعر به حتى لقد يصل بك الحال الى الشعور بأنك خارج عن هذا الجسد ، وأنك تعود اليه عند نهاية الرياضة (التنفس المنتظم وصفناه فى كتيب عنوانه علم التنفس) .

دعاء وتأمل

وفى القيام بالرياضة اليوجية السابقة يستطيع الطالب اذا شاء أن يفكر على النهج التالى ويردد العبارات الآتية :

« أنا موجود (أنا كائن) اننى متأكد من حقيقة وجودى — لا بالجسد فحسب ، فان الجسد نسبى مقيد زائل فان — ولكن بالروح الخالدة المطلقة غير المقيدة . اننى متأكد من حقيقة شخصيتى — ذاتى — روحى — (الانا) الحقيقى ، أنه هو العنصر الروحى الذى يتجلى فى الجسد ، وفى العقل ، ومظهره الأعلى أننى أشعر بنفسى وروحى : هذا (الانا) لا يموت ولا يفنى — قد يغير وسيلة ظهوره أو مركبه — هذا الجسد — ولكن (الأنا) دائما هو هو نفسه انه جزء من الروح الكلية ، روح الكون . أنا قطرة فى محيط الروح . أنا ذرة روحية تتمثل فى وعيى الحالى وتؤثر فيه لبلوغ الكمال . أنا نفسى ونفسى أنا وما عدا ذلك متحول متغير أنا أنا . أنا كائن . أنا كائن . أنا ـ (يكرر الطالب قوله أنا كائن) » .

يجب أن يخصص الطالب كل يوم دقائق للتأمل الصامت فى مكان هادىء بقدر الامكان ، يسترخى فيه اما جالسا أو مستلقيا لا يتحـــرك ولا يشغل عقـــله بشىء على الاطلاق . فاذا توافرت الظروف المحققة للشروط ، وجد نفسه وقد استولى عليها هدوء هادىء شديد السكون ، ذلك الذى يعرف (بدخول الصمت) . وعند ذلك يكرر حديث النفس السابق أو ما يقربه . كل ما يراد هو أن يركز الفكر على عبارة (أنا كائن) فانها ان فهمت وطبعت فى العقل أضفت على الطالب هدوءا له وقار ، وأبرزت فيه قوة نفسية روحية يشعر بأثرها من يتصل به من الناس . أنها تحيطه بهالة روحية لها سر وقوة ، وتنحى عنه الخوف ، فينظر للدنيــا وللناس ، رجالهم ونسائهم ، نظرة القوى الواثق ، وقد علم أنه روح خالد ، وأن شيئا لا يستطيع أن يلحق به ضررا حقيقيا .

حتى أولى مراتب هذا الوعى وأبسطها ترفع الانسان فوق مستوى هموم الحيـــاة ومشاغلها وأحقادها ومباغضها وحسدها وما فيها من الغرائز الدنيا فيصبح الرجل أو المرأة رجلا أو امرأة بالروح حقا ، يرسل الاشعاع الروحى الذى ينبعث من أحدهما الى نفوس المحيطين به أثرا طيبا يبعث فيهم روح الثقة به والاطمئنان اليه والاحترام له .

هذه التأملات والرياضات كثيرا ما تساعد الانسان على تنمية

الوعى وعلى الشعور بحقيقة النفس ويصحب ذلك الشعور بالخلود ولكن ليس للطالب أن يقضى فى هذه التأملات وآفاقها العليا معظم وقته أو أن يقلل من شأن الجسد وحاجاته ، أو الدنيا والناس من حوله ، فان هذا يعرف بالكبرياء الروحى الذى يفضى بصاحبه الى السقوط . اننا قد وجدنا فى هذه الدنيا لحكمة ، ولابد أن نمر بما فرض علينا فيها من تجارب ضرورية لصقلنا . انك فى المركز اللائق بك ، الملائم للتجارب التى لابد لك من المرور بها ، ولا سبيل الى البقاء فى هذا المركز لحظة أطول مما يجب . يجب أن تعيش وأن تنمو وأن تقطع مراحل حياتك كأحسن ما تستطيع باذلا جهدك بالتى هى أحسن ، وكن مترفقا حكيما .

هذا الوعى والشعور بالكينونة ولو أنه خطوة كبرى وتقدم عظيم بالقياس الى الوعى المعروف للناس عامة ، الا أنه مجـرد مرحلة تمهيدية للمعرفة الكونية التى أعدت للنفوس الآخذة فى النمو ، أنه هو البرعمة التى تتحول الى الزهرة الكاملة فى الوقت المناسب . ولئن كنا قد صادفنا صعوبة فى التعبير بالكلمات الواضحة السهلة عن هذا الوعى الذى ألمعنا اليه منذ هنيهة ، فتصور ما نشعر به عندما نرانا نقترب من المرتبة الأعلى ، التى يمهد لها هذا الوعى . ولكننا سنحاول أن نبذل أقصى الجهد ، ولو أن كلماتنا حتـما ستبدو عجافا هزيلة غير قادرة على حمل المعانى التى نريد أن

تحملها . ان غير أهل الحقيقة التى نهم بشرحها سيبدو لهم ما نقوله هراء لا غناء فيه . ولكن حتى هؤلاء ، سيترك الكلم فى أنفسهم أثرا يذكرونه فينتفعون به عندما يحين أوانه ويصبحون أهــلا للانتفاع بهذه التعاليم وعلى حد قول والت هويتمان : « ان كلماتى سوف تظل تئز فى آذانكم حتى تفهموها » .

هذه المعرفة الكونية هى الزهرة التى تزدهر فى الهدوء الذى يلى العاصفة كما قالت مؤلفة كتيب « ضوء على الطريق » أو ناقلته بعبارة أصح ، انه ذلك الذى يأتى ثمرة (للاشراق) .

لقد كتب الكتاب الروحانيون فى كل عصر عن هذا الشىء ، كذلك وصف الناس من مختلف الأديان بعض مظاهره ، ومنهم من قرر أنه ثمرة عبادة الاله فى مظهر من مظاهره ، أو نتيجة اتبــاع مذهب أو نحلة ، وأصحاب كل طائفة مصرون على أنه ثمرة العبادة على طريقة دينهم دون سائر الأديان ، ولكن الواقع ان هذا الشىء فوق الطرق وفوق المذاهب وفوق الديانات انه جــزء من ميراث البشرية الالهى . لقد وصف هذا الشىء بأوصاف متعددة .

وصفه أهل المشرق على طريقتهم ووصفه المجددون البروتستانت بأوصاف أخر وتحدث عنه قديسو الكاثوليك وغيرهم وكل فريق يدعى أن هذا الشىء ثمرة اتباع طريقته الخاصة ، ومراعاة طقوسه دون غيرها ، لقد شعر كبار الشعراء به . كما تواترت الأدلة على

حقيقته من مختلف المصادر . منهم من أشرق النور عليهم رويدا رويدا يزداد اشراقا مع الوقت حتى يبلغ ذروة الاشراق ، ثم يأخذ يخبو قليلا قليلا حتى يختفي وقد ترك صاحبه مخلوقا آخر يعيش على أمل عودة النور ، وعلى رجاء الاستمتاع مرة أخرى بسنائه وبهائه .

ومنهم من أشرق عليهم النور بغتة كأنما أغرق أحدهم فى بحر متلألىء من النور [1] ثم انحسر عنهم وقد أصبحوا قوما آخرين وما أشرق النور على اثنين بنفس الكيفية وفى نفس الظروف ، ولكن التشابه بين شهادات الجميع عن هذا النور موجود دائما

وصل مستر رتشارد بك أحد كتاب الغرب الى هـذه الحالة ولاحظ أن صديقه والت هويتمان وصـل اليها أيضا مع بعض الأصـدقاء فجمع الحالات التى وصلت الى علمه وضمنها كتابا سماه (الوعى الكونى — دراسة فى تطور العقل البشرى) .

Cosmic Consciousness, a study in the Evolution of the Human Mind.

Innes and Sons Philadelphia Penn. U.S.A.

وقد طبع من هذا الكتاب ٥٠٠ نسخة لعلها الآن قد نفدت جميعا ولكنه كتاب يستحق الدرس . ومؤلفات الشرق مليئة بهذه الحالات وقد بدأت كتب الغرب تعنى بهذه المعرفة .

---

(١) ومن هنا كان لفظ الاشراق الاصطلاحى .   (المراجع)
دكتور حلمى

وفى كل ماكتبه الغربيون تقريبا عن الموضوع ، لانجد الا وصفا لحالات الاشراقات الفجائية الباغتة لهذا الوعى الروحى . ولكن جهابذة المشتغلين بالروحانيات وما وراء المادة يستطيعون أن يوجدوا بقوة الادارة هذا الاشراق بصفة تكاد تكون مستمرة هؤلاء لا يظهرون للعالم كمعلمين أو كتاب ولكنهم يقومون بعملهم بواسطة رجال غيرهم ممن هم أقل منهم مرتبة يمدونهم بمدد روحى من فضل الله عليهم وما أوتوا من حكمة ، وهؤلاء ينفحون من حولهم ببركاتهم ، ويفيضون عليهم ببعض مامن الله به عليهم من الحكمة العظمى والنور [1] . وبصفة عامة يمكن وصف هذا الحال بأنه تحقق فعلى من وحدة الكل ومن صلة الانسان الروحية بالله الواحد ، تتحقق فيه الذرة التى يتألف منها ومن أمثالها الشعاع تتحقق هذه الذرة لحظة واحدة من ارتباطها (بالشمس المركزية) بالنور الأعظم . تتحقق القطرة من علاقتها بالمحيط محيط الروح ويذكر الهندوس هـذا الاشراق الروحى ويصفونه بأنه السناء البرهمى (Brahmic Splendour) ولنسمه نحن النـور الالهى أو الفيض الربانى .

والشعور الذى يتملك الانسان فى هذا الحال ، هو شعور بهجة لا حدود لها ، شعور يفوق فى عظمته كل ما عداه . انه شعور

---

(١) ما أقرب هذا أو لعله هو من حديث الصوفيين عن الغوث والاقطاب الأربعة والابدال والشيوخ والنقباء (المترجم) .

بالبهجة المطلقة (Absolute Joy) أن جاز استعمال هذا التعبير، وتترك هذه البهجة فى النفس أثرا لايعفى عليه الزمن ، بل يظل انعكاس ضوئه على النفس ساطعا أبدا فيما بعد ، فيحس الذى أشرق عليه مرة طول أيامه ، بنشوة وسعادة ، كأنما فى قلبه معين لهما لا ينضب ، تسقى منه النفس كلما ظمئت [١] . تختفى هـذه البهجة القصوى التى تفوق كل بهجة تدريجيا ، ولكن يبقى بعدها شىء فيه تعزية وفيه تفريج ، وان الانسان ليذكر تلك البهجة بعد أن تنحسر موجتها بنشوة ترسل الدم فى الجسم حارا ، وتزيد القلب وجيبا ، كلما استعرض العقل ذكريات ذلك الحال .

هنالك يذوق الانسان اشراقا عقليا وفيضا من المعرفة مما لا يمكن وصفه ، اذ تحس النفس بأنها أوتيت علم كل شىء [٢] ، وقد كانت من قبل لم تؤت من العلم الا قليلا .

لقد أصبحت تحس بأنها أوتيت أسباب كل شىء ، وأسرار كل شىء ، وانها قد وضح لها كل ما كان خافيا . ليس من الممكن وصف ما تحس من ادراك ، فانه لم يعرفه عقل بشرى ،

---

(١) كل من يشرب من الماء يعطش أيضا . ولكن من يشرب من الماء الذى اعطيه انا فلن يعطش الى الأبد . بل الماء الذى اعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع الى حياة ابدية .
(يوحنا ٤ — ١٣) المترجم .

(٢) (العلم اللدنى) المترجم .

ولذلك فليس من الكلمات ما يستطيع التعبير عنه . وكل ما يمكن قوله ، هو أن ما خفى من قبل يصبح جليا ، لا بسبب زيادة القدرة على البحث والاستقصاء والوصول عن طريقهما الى النتائج ، بل لمجرد أن النفس أصبحت (تعرف) .

قد لا يستمر هذا الشعور الا فترة كلمح البصر ، يفقد الانسان أثناءها كل تقدير للزمان والمكان ، ولكن ما يشعر به من الأسى لانقضاء فترة الاشراق العظيم لا يمكن أن يقدره من لم يمر بهذا الدور . والشيء الوحيد الذى يهون على العقل حمل اللوعة التى تعقب انقضاء فترة الاشراق هذه ، هو ثقة فى عودته يوما ما فى مكان ما . هذه الثقة تجعل للحياة قيمة ، ان النفس قد تذوقت به سلفا ما أعد لها من نعيم .

ومن الآثار التى تنطبع فى العقل لتلك الفترة من الاشراق ، علم اليقين بأن الحياة تتغلغل فى كل شيء فى الوجود . ان الكون مفعم بالحياة وليس شيئا جامدا ميتا لا روح فيه . ان الحياة والتدبير يملآن كل شيء . ان الحياة الأبدية أمام الانسان يكاد يلمسها واللانهاية فى قبضة يده ، لقد أصبح للانهاية وللأبدية معنى واضحا فى العقل ، وصورة ثابتة فى الفكر ، ولكن لا سبيل الى شرح معناها أو رسمها بالكلمات للغير .

وثمت احساس آخر هو أن الحب السامى الكامل لكل ما فى

الحياة ، يصبح حقيقة لا يدانيها كل ما صور به الحب من قبل ، كما أن الشعور بالتحرر من الخوف يستولى على الانسان ، حتى لكأن الخوف لا وجود له ، أو لا سبب لوجوده ، ولذلك فانه يختفى ، ويزول ، فلا يعود الانسان يفكر فيه ، حتى لو استعاد ذكريات ما كان يرعبه ، وما كان يتقيه ، لأن الاحساس بالمعرفة والثقة والأمن والاطمئنان والتسليم والتوكل كلها تملأ النفس ، فلا يعود فيها مكان للخوف . كذلك يختفى من النفس بعد هذا الاشراق الشعور بالخطيئة ، لأن الشعور بالصلاح يستولى على النفس فتشعر بأن كل ما فى الوجود صلاح وبر ، لا نقصد بالصلاح أن شيئا خير من شيء ، ولكن نقصد الصلاح المطلق .

وكما أجملنا القول من قبل ان هـذا الاشراق ، اذا حصل للانسان ، ينحسر عنه وقد تغيرت نفسه وتغير ما بها ، فيصبح الانسان كائنا آخر مختلفا تمام الاختلاف عما كان من قبل . ولو أن الاشراق يمضى ، والنور الذى غمر النفس فترة لا يعلم مداها الا واهب النور ومصدره ، يختفى ، الا أن النفس يغمرها ويستولى عليها اطمئنان لا يفارقها ، يجد فيه الانسان العزاء والسند ، كلما ثقل قلبه ، وأحس به ينوء بأعباء الحدثان ، ويجد فيه القوة اذا عاودت العقل زوابع الشك فهزته كالقصبة فى مهب الريح . ان أثر ذلك الاشراق وذكراه معين قوة تتجدد ، ومرفأ أمان تلجأ اليه النفس كلما تعبت من العالم — العالم الذى لا يفهمها .

ولنختم هذه المحاولة المتواضعة لوصف مالا يمكن وصفه [1] بما سبق أن قلناه فى درسنا الثالث من الدروس الأربعة عشر .

« مما كتبه قدماء الفلاسفة من جميع الأجناس ، وما أنشده فطاحل شعراء جميع الشعوب ، وما جاء به حكماء جميع الأمم ، نستطيع آن نجمع آثار هذا الاشراق الذى جاء الانسان — تفتح الوعى الروحى . لقد تحدث عنه هذا بطريقة ، وهذا بأخرى ، ولكن الجميع رددوا نفس القصة — قصة واحدة لا تختلف . كل الذين أشرق عليهم هذا النور ولو خافتا باهتا ضعيف الضياء ، يرون نفس المعالم ، وقرب الشبه ، بين ما تصفه الأنشودة ، والشعر ، والتعاليم ، مهما بعد العصر ، واتسعت الحقبة بينها ، انها أنشودة الروح التى اذا سمعت مرة ، لا تنسى ، سواء أنشدها المتوحش على صوت آلتــه البدائية ، أو عزفها المتحضر على أوتار الآلة العصرية المتقنة ، انها هى هى التى انحدرت من مصر الفراعنة ، أو من الهند ، من أثينا وروما ، من القديس المسيحى فى الكنيسة والدير ، من الفيلسوف الصينى ومن قصص الهندى الأحمر ، وهو يروى أسطورة النبى البطل ، انها واحدة النبرات متشابهة النغم ، ولكن صوتها يزداد ارتفاعا كلما مر الزمن بانضمام المنشــدين الجدد ، كل بما فى يده من قيثارة أو غيرها من آلات النغم ، الى الفرقة العظمى .

---

(١) وكيف يمكن وصف مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . (المترجم)

ألا ليكن لكم هذا الاشراق وفرحته الكبرى أيها الطلاب الأعزاء .

وسيكون لكم يوم يأتى وعده الحق فاذا جاء فأبشروا . وحين ينحسر عنكم لا تخافوا ، ولا تحزنوا ، فانه راجع لا ريب فى ذلك . امضوا فى الحياة صعدا نحو الروح ، وافتحوا قلوبكم لاستقبال نورها ، وكونوا دائما مستعدين لسماع صوت الصمت ، مستعدين للانقياد لليد التى ترشد فى الخفاء ، واثقين غير هيابين ، لأن فيكم شرارة من النار الالهية ، تلك هى الروح ، ذلك النجم المشرق ، ذلك القبس من نور الله ، انه كالسراج فى المشكاة يضىء نوره موطىء أقدامكم حتى لا تضلوا الطريق ، وحتى تتقوا العثرات » .

هنا نود أن نوجه النظر الى ما جاء فى كتيب « ضوء على الطريق » عن ازدهار الزهرة انه يقول : « أثناء هبوب العاصفة واحتدام المعركة ، تنمو النبتة مرسلة ساقها وفروعها وأوراقها مكونة براعمها ولكن لا تنفتح البراعم وتغدو زهرا ، حتى تفنى شخصية الانسان وتذوب وتنصهر وحتى نصبح فى قبضة تلك البضعة الالهية التى خلقتها لتكون حقلا لاختبارات وتجارب جد لا هزل فيها وحتى تسلم (طبيعتها الكاملة) وتصبح طوعا لنفسها العليا .

(وشخصية الانسان) التى قصدت فى هذه العبارة هى شطر

النفس الأدنى (الأسفل) : طبائعها وغرائزها الدنيا أو السفلى . فالى أن تسلم هذه الغرائز السفلى لسلطان القوى العليا التى تنفتح فى الانسان ، لا يحدث الاشراق المنتظر . ما دام سلطان الغرائز الدنيا له النفوذ ، وله الأمر والنهى فى الانسان ، فانه يغلق الأبواب فى وجه هذا الاشراق ، حتى اذا ما أسلم قياده للروح أصبح مستعدا لتفتح الوعى الروحى وازدهار الزهرة التى قلنا عنها انها وعى (أنا كائن) .

اذا تحقق هذا ، وعرف الانسان نفسه حق المعرفة ، وسلم للروح قياده تسليما ، عندها يكون مستعدا لأن تنفتح البرعمة وتزدهر الزهرة .

واستمع الى سياق عبارة الكتيب الجميلة : « عند ذلك يحل سكون كذلك الذى يعقب هطول المطر الغزير فى المناطق الاستوائية عندما تسرع الطبيعة فى عملها حتى نكاد نراها وهى تبدع كذلك يحل بالنفس القلقة المضطربة سكون وهدوء واطمئنان وفى أعماق هذا الهدوء يحدث الحدث العظيم الذى يدل على أن الطريق قد وجد » .

اقد حاولنا أن نصف لك هذا الحدث ، وعسى أن نكون قد يسرنا لك ادراك صورة له ، على شىء من الوضوح .

لقد واجهت مؤلفة الكتيب الصعوبات التى تعترض كل من

يحاول وصف هذا الحال الرائع ، والتجربة العظمى ، فهى تواصل القول : « سمها ما شئت من الأسماء . انها صوت يتكلم عندما لا يكون هناك من يصدر عنه ذلك الصوت — انها رسول يأتى بغير جسم ولا رسم انها زهرة الروح تفتحت . انها لا توصف بكلمة ولا بأستعارة . ولكن يمكن الشعور بها بعد البحث عنها والتشويق اليها حتى خلال هبوب العاصفة » .

ثم تواصل الحديث عن مدة الصمت والهدوء الذى يعقب العاصفة والذى يحدث فيه الحدث الغامض العظيم فتقول « قد يدوم الصمت لحظة من الوقت أو ألفا من السنين ولكن لابد له من نهاية ورغم نهايته فانك تحتفظ معك بقوته بعد انقضائه ومرة بعد مرة تهب العاصفة وتنشب المعركة فتخوضها جاهدا أن تنتصر . ان الطبيعة لا تهدأ الا فترات قصارا » .

هذه الجملة الأخيرة تقصد بها من غير شك الاشراق الجزئى أو المؤقت الذى تحدثنا عنه فى هذا الدرس . ان اليوم الذى يصبح فيه الاشراق مقيما ، وتتمتع الروح فيه بالبهاء الالهى على الدوام ، ما زال عنا بعيدا . أما الذين وصلوا اليه فانهم ملأ سبقونا وأصبحوا فى مستوى روحى نحن عنه بعيدون ، انهم فى عالم الروح والريحان ولكنهم كانوا يوما بشرا مثلنا كافحوا حتى فازوا ، وسنصبح نحن يوما من الأيام مثلهم . ومضات الاشراق المؤقت تأتى المريد اذا

ارتقت مرتبته ، وتقدم على الطريق . ومع أنها تعود فتختفى الا أنه يكسب قوة من اشراقها لا تفارقه .

كذلك نوجه النظر الى هامش هذه القاعدة الأخيرة ، لأنها تتضمن حقيقة روحانية عجابا فى صورة موعدة ، لقد بعثت هـذه الموعدة العزيمة فى سالكى الطريق ، وبثت فيهم حماسة المجاهدة ، ومنحتهم همة مجددة ، وشجاعة حافـزة ، وهذا هو الهامش : « اعلم أيها المريد أن أولئك الذين اجتازوا الصمت والسكون وشعروا بسلامه ، واحتفظوا بقوته ، يتوقون الى أن يروك أنت أيضا تجتازه مثلهم . لذلك فى رحاب بهو المعرفة ، عندما يستطيع المريد دخولها هناك يلتقى المريد بمعلمه » .

والهامش الأخير الذى به يختتم الجزء الأول من كتيب (ضوء على الطريق) يجب أن يفهم القارىء معانيه ، ويجب أن يطيل النظر فيه ، لأن فيه ارشادا هاما ، ولذلك فاننا نثبته هنا حتى لا يغفل الطالب عنه . ولعلنا قد يسرنا فهمه الآن أكثر من ذى قبل . عندما يجد الانسان المفتاح يستطيع أن يفتح الأبواب المغلقة ، أبواب بهو المعرفة فيلقى على كنوزها نظرة وان كان غير مصرح له بعد بدخولها . وهذا نص الهامش :

« الذين يسألون يعطون . ولكن مع أن الرجل العادى دائم السؤال ، فان سؤاله لايجاب لأن صوته لا يسمع ، وذلك لأنه

يسأل بعقله فقط وصوت العقل لا يسمع الا على المستوى الذى يعمل العقل فيه ، فالى أن يجتــاز الانسان القواعد الاحـــدى والعشرين لا نصيب له بين الذين يسألون فيعطون » .

ان القراءة فى لغة أهـــل الطريق هى أن تقرأ بعين الروح . والسؤال هو أن تحس جوع النفس والحنين الروحى الى السمو ، والقدرة على القراءة يقصد بها القدرة ولو الى حد بسيط عـــلى اشباع ذلك الجوع . وعندما يصبح المريد مستعدا لتلقى المعرفة ، عند ذلك يقبل ويعترف به ويعرف . هكذا يكون الأمر ، لأنه أسرج مصباحه ولا يمكن اخفاؤه بعد أن أسرج ، ولكن الاستعداد لقبول المعرفة مستحيل قبل كسب المعركة الكبرى الأولى .

قد يدرك العقل الحقيقة ولكن الروح تكون ما زالت عاجزة عن قبولها حتى اذا اجتاز الانسان العاصفة ووصل الى السلام ، عند ذلك يصبح الطالب على استعداد لأن يتلقى المعـــرفة حتى ولو تردد ، أو ساوره الشك ونأى بجانبه . انه صوت الصمت يستقر فى أعماقه . ومع أنه قد يترك الطريق عامدا مصمما على ألا يعود اليه ، فان الصوت لابد سينطلق يوما فيمزق كيانه واذا بطبيعته تنشق فتنفصل غرائزه عن خصائصه الالهية فيعود الى الطريق وسط صياح نفسه الحيوانية الدنيا وبكائها من هجرانه لهـــا .

لذلك أقول ليكن السلام معكم .

أما « سلامى أعطيكم » فلا يقولها الا المعلم لتلاميذه المخلصين الذين بلغوا درجته وأصبحوا كنفسه ومن الناس أفراد حتى من الذين لا يعرفون شيئا عن حكمة الشرق يستحقون أن تقال لهم هذه التحية . ويزدادون كل يوم استحقاقا لأن توجه اليهم .

هذا ختام الحديث عن الجزء الأول من (ضوء على الطريق) وأمامنا الآن الجزء الثانى .

قد يثار الاعتراض بأن الجزء الثانى يعنى بالمريد وحاله بعد أن يجتاز العاصفة ، وبعد أن يمر بالصمت الذى يليها وأنه لا شأن له بالطالب الذى لم يبلغ تلك المرحلة من الطريق بعد .

ونحن نرد على هذا الاعتراض بأن تجارب المريد الموهوب الذى وصل ، ترتبط وثيق الارتباط بتجارب الطالب الذى لم يصل . فالطريق لولبى حلزونى يدور حول محوره مرتفعا قليلا مع كل دورة ، والسائر على الطريق يدور ويرتفع ويعود مع كل دورة الى حيث كان من قبل فهو وان كان أرفع درجة من حيث كان فى الدورة السابقة ، الا أن المناظر هى هى ، والجو هو هو ، وكل ما هنالك أن أفقه اتسع بنسبة ارتفاعه ، وازداد ما يمتد اليه البصر تتيجة لذلك الارتفاع ، فهو يشاهد فى كل دورة ما سبق أن شاهده وأكثر قليلا ، ولا يضير من على المستوى المنخفض أن

يسمع الحديث عن المستوى الذى يلى مستواه لكثرة ما يشترك فيه المستويان من ظروف ، ان زادت قليلا عند صاحب المستوى الأعلى ، فانها لا تضر صاحب المستوى المنخفض .

ولذلك فاننا نجد فى أنفسنا رغبة فى مواصلة الحديث عن هذا السفر الصغير العجيب ، معتقدين أن الطالب الذى لا يزال على المستوى المنخفض سيجد فى حديثنا تشجيعا وفائدة ومعرفة ، فان فى الجزء الثانى من هذا السفر حقائق عظمى نفيد منها جميعا .

لقد طلب الكثير من الطلاب أن ندلهم على رياضات تساعد على كسب الاشراق الروحى ونحن نقول لهم أن أحسن أساطين اليوجا وعمدها لا يقرون معظم الوسائل التى يلجأ اليها اخوتهم الذين هم دونهم معرفة وسموا .

يرى هؤلاء الراسخون فى العلم ، ان هذه الوسائل شاذة وغير طبيعية ، وانها بدل أن تولد الاشراق المنتظر ، لا تؤدى الا الى حالة نفسية هى فى الواقع انعكاس للاشراق الحقيقى المنشود ، انه القمر لا الشمس . وان هذه الحالات النفسية لا تساعد على التفتح الروحى وتحقيق الاشراق ، وان كانت تحدث حالة وجد فيها لذة وقتية .

انها نشوة نفسانية ان صح أن تستعمل هذا التعبير .

التأمل الذى أشرنا اليه فى هذا الدرس وما يماثله ، فيه فائدة من غير شك . وكثير من طلاب اليوجا يلجأ اليه بالاضافة الى التنفس

المنظم الذى له أثر فى التهدئة . ولكن على أحسن الفروض ، كل ما فى هذه الأشياء من خير وفائدة : هو أنها تمهد الأرض لنمو النبتة التى تنتج الزهرة . أما النبتة نفسها فانها لا تنمو الا اذا آن أوانها ، ولا يمكن انباتها قبل ذلك الأوان .

فلنمهد لها خير التمهيد ، ولنعد لها أحسن الظروف لنموها ، ولنرحب بها حين تظهر . والى أن يحين ذلك الوقت ، ليكن همنا أن نعمل بما يرضى أحسن ما فينا من مثل عليا ، وان فى اتجاهك أيها الطالب الى هذه الشئون واقبالك عليها لعلامة تدل على وعى روحى يبشر بالخير والا لما اجتذبتك هذه الشئون الى الاهتمام بهـا .

فان لم يكن لهذه الكلمات استجابة فى نفسك ولا اهتماما بها فاعلم أن مالك سوف يأتيك . وثق أنك على الطريق ، فابحث عن النور وكن أهلا لاشراقه ، فانه آت لا ريب فى ذلك .

وأخيرا أصخ بسمعك الى ما قال كاربنتر الشاعر :

لا تتركوا الشعلة تخبو
لقد حاطتها الرعاية عصرا بعد عصر
حاطتها فى الكهوف المظلمة
حاطتها فى المعابد المقدسة
رعاها سدنة الحب الصافى
فلا تتركوا الشعلة تخبو

الدرس الرابع

صوت الصمت

يستهل الجزء الثانى من (ضوء على الطريق) بهذه العبارة :
« من أعماق الصمت الذى هو السلام يرتفع صوت رنان وهذا الصوت يقول : انه ليس بحسن أن تحصد فحسب . الآن وقد حصدت يجب أن تزرع . واذ تعلم أن هذا الصوت هو السكون نفسه فانك لابد وأن تطيعه » .

الصوت الرنان الصادر من أعماق الصمت ، الذى هو السلام ، هو صوت الروح يشق طريقه الى دائرة الوعى ، ولكن الصوت لا يسمع واضحا كما كان يسمع فى وقت الاشراق ، لأن الأذن تختلط فيها معه ذبذبات من مستويات منخفضة ، فلا تستطيع أن تتميز معها الذبذبات الرفيعة الصادرة عن الآفاق العليا من العقل .

ولكن الصوت مستمر لا ينقطع ولا يتوقف ، واذا أنصت اليه فى انتباه ، فانه يسمع فى وضوح لا يختلط بغيره من أمواج الفكر التى يمتلىء بها الأثير فان الانسان اذا اتجه بفكره الى المستوى الروحى ، ارتفع بعقله الى ذلك المستوى فلا تعود الذبذبات التى فى المستويات المنخفضة تصل اليه ، كما كانت تصل من قبل ،

فلا يمضى الا وقت قصير حتى يحذق التمييز بين صوت الروح النقى الصافى وبين أمواج الفكر الدنيا التى تتلاطم حوله . ان صوت الروح دائما فى ارتفاع مستهدفا الأشياء الرفيعة السامية .

هذا الصوت سيقول « ليس هذا حسنا . انكم حصدتم والآن هيا فازرعوا » . هذه العبارة تصور الشوق الذى يتملك الروحانى الحق ، الذى تحقق له الوعى الأعلى الذى يلزمه بأن يطبق فى الحياة العملية مبادىء الحق الذى تجلى له ، وأن يظهر للعالم بأعماله واتصالاته بالخلق ما جاءه فى الصمت من فكر .

ان النفس تظل تنتظر فى وحدة وعزلة حتى يأتيها اليقين ، حتى اذا جاءها واحتل مكانه من القلب ملأها بقلق الهى (Divine unrest) يدفعها الى الخروج من عزلتها الى العالم ، فتحيا حياة روحية بين الناس ومعهم بعد الاعتزال والبعد عنهم .

الرجل الذى جاءه الاشراق الروحى ، حتى فى أخفت درجاته ، يصبح شخصا آخر ينبثق عنه فكر من نوع آخر غير ما ينبثق من الأفكار ممن حوله من الناس . ان له مثلا عليا غير مثلهم ، ولذلك ، تختلف آراؤه عن آرائهم . ولموجات فكره أثر على مجموع موجات أفكار العالم . انها تعمل فيها عمل الخميرة فى العجين ، انها كجدول الماء النقى ينصب فى البركة العكرة فتنقى بفعله مياهها وتصبح صافية كلها ، أن العالم فى حاجة الى وجوده ، والى أفكاره ،

ولذلك يوحى اليه العقل الروحى أن يبرز للعالم ، ويحيا بين الرجال والنساء لا بمعزل عنهم انه يقول له « لقد حصدت وقد آن الأوان لأن تزرع » ، « واذ يعرف هذا الصوت ويعرف أنه الصمت نفسه يصدع بأمره » .

ان الحياة الروحية والعقلية لها ثلاث مراحل أو مستويات . وكما أن الجنين يمر فى مدة الحمل بجميع الأدوار الطبيعية الجسدية التى مر بها الجنس البشرى خلال تطوره فى ملايين السنين ، كذلك يمر الانسان فى نمو روحه بالأدوار التى مرت بها الانسانية فى تطورها العقلى والروحى . ولكنه لا يتجاوز المرحلة التى أهله لها تطوره ونضجه فيصل الى المرحلة الأولى ان كان من رجالها فان كان من رجال المرحلة الثانية وصل اليها مارا بطبقات المرحلة الأولى ثم الثانية ثم يتفتح وعيه فى المرحلة الثالثة وسنلقى على هـذه المراحل نظرة :

المرحلة الأولى هى ذلك المستوى الذى يسيطر فيه على الانسان العقل الغريزى ، وهناك لا تكون القوة العاقلة قد بلغت بعد من النمو والتقدم الدرجة التى تجعلها تفرض نفسها ، وتمارس حقها فى التوجيه . أما العقل الروحى ، فان وجوده فى هذه المرحلة يكاد يكون فى حكم العدم . وفى هذا المستوى ، نجد القبائل البدائية والأطفال الصغار ، لا يعنى الفرد منهم الا بما يتصل بجسمه من

حاجات كالطعام والمأوى واللباس والمتاع المتصل برغبات الحواس الخمس ، ويشيع بين أفراد هـذا المستوى نوع من الحـرية والديمقراطية لا يعرف فيها أحد الاحساس بأنه أتقى من أحـد ، أو أن أحدا خير من أحد ، فتجد الناس على هـذا الصعيد من التطور ، متحررين متساهلين ، يسعدون بالحياة أكثر من أهـل المستوى الثانى ، المرتفع عن مستواهم .

انهم لا يدركون شيئا عن الخطيئة والاثم . يتبعون أهواءهم وما تمليه عليهم غرائزهم من غير مناقشة . وفيهم اعتقاد غريزى فطرى بوجود قوة عليا ، وان لم يهتموا بها كثيرا ، فلا يتصورون أن هناك أفعالا ومراسم ترضى تلك القوة ، فاذا خولفت المراسم أو ارتكب تقصير فى الأفعال المرضية ، غضبت ولا يقيمون كبير وزن لفرص الخلاص ، فهم حسب بساطة تفكيرهم ، يرون أن القوة التى تسهر عليهم هنا ستهتم بأمرهم هناك .

والمرحلة الثانية أى المستوى الثانى تبدأ عندما يمسك العقل بزمام الأمور ، فعندها يصحو الانسان على شعور بالخير والشر ، ويبدأ يتميز شيئا خفيا عجيبا آتيا من آفاق عالية من العقـل ، يؤنبه على فعل أشياء معينة تتصل بشخصه ، ويشعره بالراحة اذا لم يقارف هذه الأشياء التى يلام عليها ، أو اذا فعل أشياء فيها مصلحة ومنفعة لغيره . ولكن القوة العاقلة لا تقف عند هذا الحد . انها تضع قائمة بأشياء حسنة (خير) وأشياء سيئة (شر) ويظهر

أنبياء وكهنة يقولون ان من الأفعال حسنات وان فى هذه الأفعال مرضاة للآلهة وكسبا لمساعدتها وعونها الذى تقدمه للمحسنين جزاء للاحسان . وأن من الأفعال ما هو شر تكرهه الآلهة وتعاقب مرتكبيه ويقول هؤلاء الأنبياء وفى أعقابهم يسير الكهنة فيقولون ان هناك سموات فيها ما يسر المؤمنين وما يتناسب مع ميولهم ، وهناك دور جحيم فيها ما يخافه الناس ويبعث فى نفوسهم الرعب ، ويقسمون الأفعال كلها الى سيئات وحسنات ، وقائمة السيئات فى الغالب أطول من قائمة الحسنات ، وكل ما يلذ الأنفس ، وتقر به الأعين فى الحياة ، يوضع فى قائمة السيئات ، لا لسبب الا لأن فيها متعة ، وكل مالا تستريح اليه النفس ولا تجد فيه راحة ، يوضع فى قائمة الحسنات . وكأنما الآلهة يلذ لها أن ترى أتباعها معذبين مكروبين باكين خائفين وجلين ، وان من يركن الى نعمة يلتذ بها يثير حفيظة الآلهة وكراهيتها [1] .

---

(١) هنا مأخذ على المؤلف . لقد طالب كل صاحب عقيدة بأن ينحى عقيدته جانبا وهو ينصت الى تعاليمه حتى لا يحكم عليها وهو تحت تأثير عقيدته وكان خليقا به وهو يبسط آراء عقيدته ألا يهاجم عقائد غيره . هو يؤمن بتناسخ الارواح يؤمن بأن الروح تتخذ لها جسدا بعد جسد وتعيش فى الدنيا حياة بعد حياة . ويؤمن غيره بحياة واحدة يجمع النـــاس بعدها جميعـا فى يوم واحد ليحاسب كل عما فعل وللمحسن ثواب وللمسىء عقاب فما باله يتهم أصحاب هذه العقيدة (الانبياء والرسل) بأنهم اخترعوا ما جاءوا به . أليس أصـــحاب تعاليمه هم الآخرون قد جاءوا بما لم يقم عليه دليل الا ما يقولون من أنهم علموه بفضل اشراق الروح على عقولهم ؟ المترجم

وتوضع المذاهب وتحدد البدع ويصب العذاب على من ينشق على المذاهب ويستجيب للبدع . والرأى السائد بين كل جماعة من الناس هو أن (دينهم) هو الدين القيم وأن ما عداه كفر والحاد وأن اتباع دينهم هم أحباب الله وأن أتباع كل دين آخر هم أعداء الله وان الله لأعدائه هؤلاء بالمرصاد فى الدنيا والآخرة . ومن الناس من يقوم عن الله بالانتقام من أعدائه ، فينكلون بمن خالف دينهم ، أو حتى مذهبهم ، وان اتحدوا فى الدين معهم .

والناس فى هذه المرحلة ، أو على هذا المستوى من التطور الروحى ، يكونون عادة أهل حماسة وشدة . فهم يعلنون أن من الأيام أياما مقدسة كأنما الأيام كلها ليست مقدسة ، ويصرون على أن بعض الأماكن أقدس من بعض ، وأن أجناسا من البشر هم مختارو الله وأحبابه ، وأن من عدا هؤلاء لا يحبهم الله ويكره حتى وجوههم وان الذين كتب لهم الخلاص صفوة قليلة وان من عداهم قد أعدت لهم نار لا تطفأ ودود لا يموت .

والناس على هذا المستوى يتميزون بروح البغضاء والكراهية تحز فى قلوب المؤمنين نحو الذين لا يتبعون دينهم ، وتدفعهم هذه الكراهية الى التنكيل بهم ، وهؤلاء يبادلونهم حقدا بحقد ، وكيدا بكيد ، فيسود الخوف ، وتصبح المحبة البشرية اسما بدون مسمى .

وعلى هذا المستوى ، يذوى الحب الانسانى المشترك بين الناس جميعا ، فلا تراه الا بين أفراد كل فريق يتبادلونه فى حذر شديد . فان بدرت من أحدهم بادرة كفر عمدوا اليه فأخرجوه ، وحرموه حبهم ، وصبوا عليه جام غضبهم ، لمجرد جهره بما لا يتفق مع ما يعتقدون . ان كل من لا يتفق معهم فى الاعتقاد ، كافر خارج مبتدع منشق .

فى هذه المرحلة تختفى محبة أفراد أهل المرحلة الأولى لبعضهم وشعورهم الغريزى بوحدتهم ووحدة أصلهم (وهو ما يدركه أصحاب المرحلة الثالثة ويشعرون به بالعقل والروح) ويحل محل هذه الوحدة ، روح الأنانية والفردية ، حتى اذا نمت القوة العاقلة وشبت بعض الشيء ، وبدأ العقل يسيطر ويبسط سلطانه على الناس من أهل الطبقات العليا من هذا المستوى — ولكل مستوى عدة طبقات — بدأوا تحت نور العقل ، يتخلصون من الخرافات خرافة بعد خرافة ، وينفضون عن أنفسهم حجب الجهل حجابا بعد حجاب ، ويحل محل الاعتقاد الأعمى انكار وجحود لكل هذه المعتقدات التى فرضت فرضا لا تستند الى أساس ولا سند سليم ويسود الشك فى كل شيء لا ينهض على صحته دليل عقلى ، فتنهار معتقدات وتنهدم صروح القديم ، ولكن مكانها يظل خاليا لا يقوم مقام القديم فيه جديد . فى هذه الفترة يجهد العقل الروحى

فى أن يبعث أشعته لتضىء هذا اليباب ويحاول أن يلقى فى هـذا الفراغ بذور الوعى الروحى ، وينشر فيه تعاليم الروح التى تنتقل بالانسان بالتدريج الى المرحلة الثالثة مرحلة اليقين الحق .

فى هذه المرحلة الثالثة ، يرى الناس الخير فى كل شىء وكل شخص وكل مكان وان بدا بعض الأشياء أكثر تقدما من بعضها الآخر الا أن كل شىء جزء من الكل الأعظم .

فى هذه المرحلة ، تترفع النفس المتقدمة عن أمـور تجدها أصبحت بالية خلقة لا تليق بها فلا تجد فيها ما كانت تجده من قبل من لذة ، ولكنها فى نفس الوقت ، ترى أن هذه الأشياء نفسـها لا غنى للبعض من المتخلفين عنها . فهى تناسب حالتهم من التقدم والتطور ، وهى على سوئها خير من أشياء تخلوا عنها ، وهـذه الأخرى مناسبة لمن يلونهم وهكذا . ان الناس فى هذا المستوى يرون أن الدنيا كلها على الطريق ، وان كان منها المتقدم والمتخلف ، ولكنهم جميعا يسيرون الى الأمام . ان الخير والشر فى نظرهم نسبى ، لا خير ولا شر الا بالقياس ، هذا فعل يليق بمن يفعله ، وهذا فعل لا يليق لسبب بسيط هو أن هذا يفعل ما يتناسب مع مرحلته ، وهذا يفعل مالا يتناسب ، الفعل واحد : ولكن الزمان أو المكان هو الذى اختلف فاختلف الحكم على الفعل .

انهم يرون أفعال الناس مظاهر للخير والشر ، ولكنهم يفضلون

أن يروا فى الناس خير ما يفعلونه ، بدل أن يروا شر ما يفعلون . انهم يفضلون أن يروا حسنات المسيء ، على أن يروا سيئات المحسن . انهم يرون الخطايا على أنها أخطاء — قوة أسيء توجيهها — عقل غير ناضج .

ان الناس فى المرحلة الثالثة يرون أن كل الديانات حق ، حتى انهم ليجدون صعوبة فى الاقتصار على اتباع دين واحد بذاته . انهم يرون أن الله هو الذى يعبد رغم تعدد الأسماء للآلهة ، والصور التى يصورها بها البشر من الصنم البدائى الى فكرة الالوهية المجردة فى أسمى العقائد . وان سبب الخلاف ما هو الا درجة نمو عقل العابد نفسه ، لا حقيقة المعبود ، فان الانسان كلما ارتفع على سلم التطور ، ارتقى تصوره لله ، وتصويره له ، فالصورة التى يراها الانسان المتقدم لله — لا يدركها عقل الانسان البدائى ، كما أن الصورة التى يرضاها البدائى لله ، لا ترضى الانسان المتقدم وكل منهما يعمل بخير ما علم ، ويسير على المرحلة التى بلغها من الطريق ، معبدة مضاءة ، أو مظلمة وعثاء ، وقد أحسن الكاتب الذى قال (ان اله الانسان هو صورة ذلك الانسان فى أحسن حالة يتمناها لنفسه ، والشيطان هو ذلك الانسان فى أحلك ساعات جنونه وغضبه) .

ويختفى الشيطان تماما عندما يرتقى تصور الانسان لله ارتقاء كافيـا .

ولكن أعظم ما يتميز به الفكر الانسانى فى المرحلة الثالثة ، هو ادراكه لوحدة الحياة . فهو يرى فى هذه المرحلة ، ويحس ، أن العالم كله حى ، وان قوة العقل تملؤه وان اختلفت درجات ظهورها ويحس أنه جزء من هذه الحياة العظمى ، ويعرف أنه وهذه الحياة شىء واحد ، وان طبيعته ، وطبيعتها ، لا فرق بينهما مهما تعددت صورها ، ويرى فى كل ما ينبض بالحياة شبيها بشىء فيه . ليس معنى هذا أنه متعطش للدماء كالنمر وأنه معجب بنفسه عجب الطاووس ، وأن له سما كسم الأفعى ، ولكنه يعلم أن صفات هذه الحيوانات كلها فيه ، وان تسلطت عليها وكبحتها نفسه العليا فانها كامنة فيه ، ولذلك فانه يشعر بعطف نحو تلك الحيوانات ، ونحو اخوته فى الانسانية الذين ما زالت تظهر فيهم صفات تلك الحيوانات ويتخلقون بأخلاقها ، انه يشفق عليهم ولا يكرههم مهما كانت نزعاتهم وميولهم ضارة به — انهم اخوته .

وبجانب هذه الصفات الحيوانية التى يكبحها فى نفسه ، يشعر كذلك بوجود الصفات العليا ، صفات الملأ الأعلى كامنة فيه توشك أن تظهر ، ويزداد ظهورها مع تقدمه وتطوره حتى يصبح متخلقا بأخلاق ذلك الملأ .

انه يشعر بالحياة تدب فيه ، وتدب فيما حوله ، حياة واحدة ، فتزول منه روح الوحدة والوحشة ، ويحل محلها اطمئنان يملأ

نفسه بعد أن عرفت أنها والكون شيء واحد . انه يستقبل اليوم والغد بغير خوف ، وانه ليتقدم نحــو المقدور يملأ قلبه البشر ولا يخشى ما يأتيه به .

هذا الشعور يجرد الانسان من الخوف والبغضاء والتهمة ، ويعلم الانسان الرحمة ، ويجعله يتحقق من أبوة الخالق وأخوة الخلق ، وأن يحل المعرفة واليقين محل الايمان الأعمى . انه يغير من الانسان ما بنفسه ، ويخلقه خلقا جديدا ، ويغير ما به ، فيسير سيرة جديدة ويواصل الرحلة على مستوى جديد ، لقد صـــار مخلوقا آخر .

وطبيعى أن الناس من أهل المرحلة الثانية ، لا يفهمون أهل المرحلة الثالثة ويظنون بهم الظنون ، ويحسبونهم من أهل المرحلة الأولى همجا أو سذجا ، ذلك بأنهم لا يرون السوء ولا يدينون المسىء مثلهم ، ويعجبون من أمر الرجــل من أهل هذه المرحلة اذ يرى خيرا فى الأشياء التى لا تبدو لهم كذلك ، فهو رجل اذن لا يعرف الحلال من الحرام ، ولا يميز بين الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر — أليس الناس عنده اخوة سواء لا فرق بين الزنديق والصدّيق ؟

انه غريب فى أرض غربة ، وليس له أن يشكو ان ناله السوء ، أو حكم عليه حكم جائر .

ولكن هذا النوع من الناس ، أهل المرحلة الثالثة ، يتزايد عددهم كل عام . وعندما يصير عددهم كافيا ، سيحدث فى العالم انقلاب سلمى . عند ذلك لا يرضى انسان أن يتنعم وله أخ يتضور جوعا — أخ فى الانسانية . ولن يقبل انسان أن يظلم بنى جنسه أو يستغلهم ، ولن يطيق السكوت على كثير من الشر الذى لا يأبه معظم الناس الآن له ، ولا يشعرون بوطأته .

رب سائل يسأل وما الذى يمنع الانسان عن الظلم والاستغلال ؟ والجواب هو أن الانسان اذا أحس هـذا الاحساس الجديد : الشعور بوحدة الكل ووحدة الحياة ، تزول من نفسه الأنانية وتتحطم الحواجز التى تفصل بينه وبين الناس ، ويختفى الشعور بأن نفسه وحدة قائمة بذاتها ، لا صلة لها بغيرها من نفوس البشر ، ويعلم أن النفوس كلها خلقت من نفس واحدة فيشعر بما يشعر به أخوه من ألم ، ويشاركه فى سرائه وضرائه .

من أين يأتى هذا الشعور الذى يدفع الناس لاقامة المستشفيات والمؤسسات الخيرية ، ومن أين يأتى هذا الشعور بالألم عند مرأى آلام الناس ، انه ينبعث من العقل الروحى ، الذى يملأ ادراك الناس بالصلة الوثيقة التى تربط الحياة بعضها ببعض ، فتجعل الواحد يحس بآلام الغير لأنه منهم ، وهم منـه ، وانهم جميعا كالجسم الواحد اذا تألم عضو أحست بالألم سائر الأعضـاء ، فتداعت تساعد ، أو تواسى ، أو على الأقل تتوجع .

لهذا الشعور ولهذا الادراك أصبح العالم أشد تعاطفا وشفقة من ذى قبل ، ولو أنه ما زال فى حالة بربرية اذا قيس بما سيكون عليه فى المستقبل ، عندما يصبح أغلبية الناس على مستوى المرحلة الثالثة .

ان البشرية الآن على أبواب تغيرات عظيمة ، وان الريح لتهب وقد عرف من أين تأتى ، وفى أى اتجاه تندفع . انها الآن نسيم رقيق ، ولكن بعد قليل ستصبح عاصفة تطيح بالكثير مما بناه الانسان ، وهو يظن أنه ثابت للأجيال القادمة . وعندما تهدأ العاصفة ، سيبنى الانسان من جديد أشياء أحسن وأبقى ، هل أحسستم النسيم وشاهدتم النذر ؟

ولكن لن يحدث هذا التغير نتيجة للبغضاء والحقد والتنافس والتنابذ ، انه سيحدث نتيجة للحب والتعاطف والشعور بأن الناس أخوة بل أعضاء جسد واحد ، وأن سعادة الكل فى سعادة كل جزء وكل فرد وهكذا يبدأ فجر جديد ، فجر العصر الذهبى .

قد يبدو أننا شططنا عما نحن بصدده ، ولكن ما قلناه يمس ما نحن فيه من ضرورة الزرع بعد الحصاد ، والعطاء بعد الأخذ ، والعمل بعد أن كسبنا قوة جديدة وقدرة أعظم .

سيقول لنا الصوت الصاعد من الصمت :

اذهبوا واعملوا فى كرمى ، لا بقوة السواعد ولا على ارغام

الأشياء على أن تنمو وتزدهر ، ولكن ليكن عملكم بالقدوة الحسنة وبالحياة أسمى ما تكون الحياة . ان الناس محتاجون اليكم لينتشر ضوءكم فى ظلامهم ، انكم فيهم كالخميرة فى العجين .

ويلى هذا أمر آخر من الكتيب الصغير :

« انك الآن التلميذ الذى يستطيع أن يقف على قدميه ، لك أذنان للسمع وعينان مبصرتان ولك لسان قادر على الكلام ، أنت الذى قهرت الرغبة والشهوة ووصلت الى معرفة النفس ، ورأيت روحك تزهر وزهرتها تزدهر ، وسمعت الصوت الصادر عن الصمت ادخل الآن بهو المعرفة ، واقرأ ما سطر من أجلك هناك » .

ولننتقل الآن الى هامش هذا الأمر ، نجد فيه عونا ، وعلى ضوئه هدى :

« لكى نستطيع الوقوف لابد من الثقة ، ولكى نستطيع أن نسمع ، لابد أن نكون قد فتحنا أبواب النفس على مصاريعها ، ولكى نستطيع الكلام ، لابد أن نكون قادرين على مساعدة الغير .

ولنكون قد قهرنا الرغبة ، لابد أن نكون قد تعلمنا أن نروض النفس وأن نستخدمها .

ولكى نكون قد وصلنا الى معرفة النفس ، لابد أن نكون قد رجعنا على آثارنا فدخلنا حرم النفس واقتحمنا حصنها حيث نستعرض الانسان الحقيقى ونفحصه فى غير مداراة ولا تحيز .

ولكى نكون قد رأينا الروح تزهر ، لابد أن نكون قد رأينا على ضوء الروح فى أنفسنا انقلابا هو الذى يخلق منا خلقا جديدا يجعلنا أكثر من بشر . ولكى نعرف ، يجب أن تولد فينا القدرة على التحديق فى النور الباهر الخاطف بدون أن تطرف العين ، وبدون أن نتراجع كأنما نحن أمام طيف أو شبح مخيف .

يحدث هذا للبعض وعندها وفى الوقت الذى يوشك الفوز أن يتحقق اذا به يتلاشى » .

(لنستمع الى صوت الصمت) ، معناه أن نفهم أنه من داخلنا لا من أية ناحية أخرى يأتينا الهدى والارشاد الصحيح . ولكى ندخل بهو المعرفة ، معناه أن نصل الى الحالة التى يصبح فيها التعلم ممكنا ، عندئذ تكون هناك كلمات كثيرة مكتوبة لك ، مكتوبة بحروف من نار لتسهل عليك قراءتها .

« عندما يصبح التلميذ مستعدا . فى ذلك الوقت يكون المعلم مستعدا أيضا » .

لقد وصف التلميذ بأنه ذلك الرجل القادر على الوقوف ، القادر على السمع ، القادر على الابصار ، والوعى الروحى يجعل الانسان قادرا على الوقوف على قدميه ويجعله يشعر بعظمة الروح .

انه يمكنه من رؤية الحياة على حقيقتها وفى أشكالها المختلفة ،

انه يريه صلته بالكل ، وبكل جزء فيه ، وأن يتعرف على الحق عندما يعرض الحق لناظره .

انه يمكنه من سماع الحق يتدفق صوته عليه من آلاف السبل فالحياة كلها تعلن أنها تمت اليه بصلة ، وكلها استعداد ورغبة فى أن تقدم له المعرفة والحق .

انه يريه الروح رؤية واضحة .

انه يجعله يستطيع اذا تحدث أن ينفذ حديثه الى قلوب الناس ولو خيل اليه غير ذلك .

انه يتملكه شعور بالسلام والطمأنينة يفوق الوصف وتنم عن حالته هذه أقواله .

انه يزيد ثروة العالم الروحية .

يقول الكتيب : للتلميذ الذى قهر الرغبة ، أى الذى عرف الرغبة على حقيقتها ، وعرف حقيقة نفسه ، ورأى ازدهار زهرة نفسه ، وسمع صوت الصمت ، يقول له الكتيب ان عليه أن يدخل بهو المعرفة .

ويلقى الهامش مزيدا من الضوء على شرحه للزهرة فى تفتحها ، يتفق مع ما قلناه فى آخر درس عن الاشراق أو فجر الوعى الروحى الا أن الكاتبة كان خليقا بها ، عندما قالت ان الفوز يختفى عندما يكاد أن يتحقق ، كان خليقا بها أن تقول ان ذلك الاختفاء مؤقت ،

وأن ذكراه باقية ، وأن النفس لن يقر لها قرار حتى تستعيد الفردوس المفقود .

وتقول الكاتبة « ان بعض من يشاهدون تلك اللمحات من داخل الروح ، يتراجعون مذعورين مأخوذين ، يخيل اليهم أن ما اطلعوا عليـــه وهم أو تفـــكير مرذول » ، ذلك أن ما يكشف للانسان يتعارض مع عقيدته وما اصطلح عليه العرف من آراء ، حتى ليظن الرائى أنه أصبح فاسدا تجرد عما كان فيه من خير ، فيتراجع عن هذا الوعى الجديد فرارا من مغبته لأنه أصبح لا يحكم على الشر كما كان من قبل ، وينسى أن الانسان ان أصبح لا يقسو فى حكمه على الشر كما كان ، فانه أصبح يحب الخير أكثر من ذى قبل ، الخير الذى عرفه من الكشف ، لا الخير الذى تواضع عليه الناس .

وتقول الكاتبة ان سماع صوت الصمت معناه أن نعرف أن المرشد الأمين الوحيد يأتينا من داخل أنفسنا ، وأن من يتمسك بما يقول هذا الصوت فى كل أفعاله ، ويعيش على هديه ، هو الذى بدأ السير حقا على الطريق ، فان من أنصت الى صـــوت ضميره لم تعد به حاجة للمعلمين والمرشدين . وكلما زدنا انصاتا اليه ، وطاعة له ، زاد ارتفاعا ووضوحا فنسمع صوت نصائحه كلما احتجنا اليها ، ولكن اذا أوليناه أذنا غير صاغية ولا واعية ، خفت حتى لا يمكن سماعه فى هدير الحياة وضوضائها .

بهو المعرفة كناية عن حالة الوعى التى تنتج عن السماح لموجات العقل الروحى بالتدفق على العقل الواعى حرة طليقة فيأتى الحق وينجلى رويدا رويدا حتى لا يكاد الطالب يحس قدومه لبطئه ولكن التفتح يستمر ويتزايد ويتقدم الطالب .

القواعد الأربع التالية فى غاية الأهمية ، ولو أنها وضعت للطلبة الذين قطعوا شوطا بعيدا ، الا أن الكثير من معانيها يمكن أن يدركه الذين لم يبلغوا شأوهم ، وسنحاول أن نزيد هذه القواعد وضوحا :

١ — « اتنح ناحية فى المعركة القادمة ولكن لا تكن المقاتل وان قمت بدورك فى المعركة .

٢ — فتش عن المقاتل فى نفسك ودعه يتولى القتال .

٣ — تقبل أوامره فى المعركة ونفذها .

٤ — أطعه لا كما لو كان قائدا ولكن كأنه نفسك ، وكأن أوامره هى رغباتك الباطنة لأنه هو نفسك ولكنه أحكم وأقوى منك بكثير . ترقبه جيدا والا تخطيته فى وطيس المعركة ولهيبها فانه لا يعترف بك مالم تعرفه ، فاذا بلغت الصيحة أذنه المرهفة فانه يملأ فراغ نفسك ويحارب عنك . فاذا كان الأمر كذلك أمكنك أن تخوض المعركة هادئا بلا تعب فقف جانبا تاركا اياه يقاتل عنك ، عند ذلك يكون من المستحيل أن تضرب ضربة

طائشة ، أما اذا لم تبحث عنه أو اذا أخطأته ، فلا واقى لك ولا عاصم اذ يضطرب عقلك ، ويتسرب الشك الى قلبك ، وفى مثار النقع فى المعركة يكل بصرك وتخـذلك حواسك فلا تعرف أعداءك من أصدقائك .

انه هو نفسك ومـع ذلك فانك بشر فان معرض للخطأ ، وأما هو فمعصوم خالد . انه الحق المؤمن السلام السرمدى ، فاذا ما حل فيك يوما فأصبح فارسك فلن يهجرك أبدا ، وفى يوم السلام العظيم يتحد بك وتصبح أنت وهو واحدا .

هذه القواعد الأربع تشير الى معرفة النفس الحقيقية التى داخل كل نفس والتى تكافح باستمرار حتى اذا آن الأوان ألقت عن نفسها الدنيا كل حجاب يقف فى طريقها ويحيط بها . هـذه القواعد تأمر النفس بالبحث فى داخلها عن مصدر القوة لتهتدى بهديه وتجعله يتجلى ويظهر نفسه فى الانسان لكى ينقاد الانسان بالروح لأن الانسان عندما يحل عن نفسه ربط العناصر الدنيـا وقيودها ويصبح قادرا على أن يسمح للروح بأن تفيض منطلقة وتتجلى عليه دون أن تقف فى سبيلها مقاومة تعوقها ، عنـد ذلك تعمل الروح فيه فيكون هو أداتها وتكون هى قائده ومرشده .

وحتى الذين لم يبلغوا المراحل العليا من التقـدم الروحى يفيدون أكبر الفائدة عندما تتفتح نفوسهم مشرئبة الى فيض المدد

الالهى وممكنة له من أن يعمل عمله فيها ، فالرجل الذى يسلم قياده للروح ويعرف وجود النفس الحقيقية ويعول عليها ، يستطيع أن يعيش بمنجاة عن هموم العالم الخارجى ومتاعبه وضجيجه ، لا بمعنى أنه يعتزل العالم (وكثيرا ما كان ذلك عن جبن وخور عزيمة) ولكن بأن يقوم بدوره فى الحياة كاملا ، ويعمل عمله على أحسن وجه . وهو مع ذلك ، رغم اشتراكه فى العالم ، ليس منه ، انه يستطيع عمليا أن يقف جانبا ويرى نفسه يعمل . ان الروح تتولى قياده فى المعركة ، وتعنى بطعامه وسائر احتياجاته ، وتعمل دائما على ما فيه خيره ، وتقوده الى ما ينفعه ، وتجذب اليه ما يحتاج اليه .

ان الخوف وعدم الايمان ، هما أكبر العقبات فى سبيل الروح ، وأكبر مانع لها من الاشراق وتولى القيادة ، والى أن يلقى الانسان بهما ، ويتخلص منهما ، تظل الروح عاجزة محجوبة ، فاذا تخلص منهما ، تحررت الروح وقامت بعملها .

تقول القاعدة الأولى :

« انتح ناحية فى المعركة القادمة ، ومع أنك تحارب ، فلا تكن أنت المقاتل » .

انها توضح هذه الحقيقة تماما . لاحظ أن القاعدة لا تقول اهرب من المعركة ، أو اختبىء منها ، أو كن بمنجاة عنها . بالعكس ،

انها تأمر بصراحة بأن تقاتل ولكنها تقول قف جانبا (ذلك فى حالة وعيك الراهن) ودع النفس الحقيقية تقاتل من خلالك ومن أجلك بمعنى أن تدع ، للروح قيادك ، وأن ترضى أنت عن قيادتها هذه .

والقاعدة الثانية صنو الأولى : انها تأمر بأن « تبحث عن القائد وتجعله يقاتل فيك » ابحث عنه وآمن به واركن اليه واعرفه ودعه يخض المعركة بك .

وتقول القاعدة الثالثة : « خذ عنه الأوامر للمعركة ونفذها » فان جعل مكانك مكشوفا خطرا ، تتركز عليك نيران العدو فيه وقد قطع عليك خط الرجعة وطريق التقهقر ، ، فلا تخف ، ونفذ الأوامر على علاتها فان وراء الأوامر خطة حسب فيها لكل شيء حسابه ، وان النصر محقق لك فى النهاية .

لا تناقش الأوامر ، ولا تبحث فى نتائجها ، لأنها من وضع قوة أعظم منك ذكاء وأدق وأوسع تفكيرا ، انها تبصر ما لا تبصر أنت به ، وقد جعلت تقدمك هدفها ، فان جلبت صعابا ومتاعب ، ففى النهاية ، الخير والربح لك . انك ان تبينت الأمر مرة واحدة ، فلن تشعر بما يشعر به غيرك من المشقة والألم بعدها ، لأنك ترى المشقة والألم عارضين يزولان ، وما فى أعقابهما من سعادة يجعل وقعهما الزائل غير ذى بال .

والقاعدة الرابعة تقول « أطعه ، لا كما لو كان قائدا غريبا

عنك ، ولكن كأنه نفسك ، وكأن كلماته رغباتك الخفية ، لأنه هو نفسك وان كان أحكم منك وأقوى » .

هدف هذه القاعدة أن تحذر الوقوع فى خطأ شائع هو أن تعتبر الروح شيئا خارجا عنك ، وأنه كيان مستقل عن كيانك . انه ينبهنا الى أن الروح هى نفسنا الحقيقية ، هى نحن ، جوهرنا لا ظاهرنا ، انها أعقل وأقوى مما يتخيل وعينا الحاضر ، وان علينا أن نؤمن بها ونثق فيها .

« ترقبه جيدا وابحث عنه والا تخطيته فى وطيس المعـركة ولهيبها ، وهو لا يعترف بك ولا يعرفك مالم تعرفه » هكذا تواصل القاعدة ارشادها وتحذيرها ، وهما جديران بالانتباه ، فاننـا فى وطيس المعركة معرضون لأن ننسى أن الروح تعمل فينا ، وربما خيل لنا فى سكرة النصر ونشوته أننا نحن أصحاب الفضل فى العمل ، فنغمض العين والقلب عن التعلق بالروح ، فيغلق من دوننا الباب ، ويحل بيننا وبينها الحجاب ، فينقطع اتصالها بنا : (لأنه لا يعرفنا ان لم نعرفه) والروح لا تعمل فينا ، مالم نتطلع الى عملها . ان ارشاد الروح ملك لمن يقرعون بابها ، ويطلبون عونها ، ويسألون عطاءها — اقرعوا يفتح لكم اطلبوا تجـدوا اسألوا تعطوا .

« اذا ارتفعت الصيحة الى أذنه ، عند ذلك يحارب فيك ،

ويملأ فراغ نفسك » لاحظ الوعد بأن الروح تصيخ بسمعها دائما تنتظر صوت استغاثتك لتلبيها . فعندما يضطرب قلبك ، وتخونك شجاعتك ، ويحل بك التعب من القتال ، وتنزف الدماء من جراحك وأنت تكافح ، اصرخ مستنجدا بالروح يرتفع صراخك الى أذنها المرهفة فتسمعك « فتحارب فيك وتملأ فراغ نفسك » وتملأ حنايا نفسك الحزينة عزاء وقوة وشجاعة ، فلا تعود تحس بما كنت تحس به من وحشة وضيق .

والقاعدة تقول « فان كان الأمر كذلك أمكنك أن تخوض المعركة بلا تعب ، فقف جانبا تاركا اياه يقاتل عنك » .

انك تكسب ثقة وهدوءا لعلمك أن فارسك وسندك لا يقهر ، وأن المعركة لك ، والنصر حليفك فى النهاية . فان من يؤمن بأن الروح تقوده ، وانه يعمل بقدرتها ، يستولى عليه السلام الذى تعجز الأفهام عنه ، سلام النفس المطمئنة . « عند ذلك يكون من المستحيل أن تضرب ضربة طائشة » .

هذا حق فعندئذ تكون كل حركة منك ، وكل عمل لك ، حركة الروح وعمله ، والروح لا يخطىء ولا يحبط له عمل ، ومهما بدا للعقل خطأ العمل أو القصد ، فان العواقب تثبت أن ما رآه العقل خطأ كان هو السداد والتوفيق .

« أما اذا لم تبحث عنه ، أو اذا ضللت عنه ، فلا واقى لك

ولا عاصم ، فيضطرب عقلك ، ويتسرب الشك الى قلبك ، وفى مثار النقع فى المعـركة ، يكاد بصرك أن يكل وتخذلك حواسـك ، فلا تعرف أعداءك من أصدقائك » .

أليس هذا ما يعانيه كل منا قبل أن يسلم للروح قياده ؟ ألم تمر بنـا التجارب فتحملنا فيها الآلام ، وقاسينا المتاعب ، وطحنتنا الأحداث والمصائب ، لأننا كنا عميانا لا نرى النور ، وكنا بلا أمل ولا رجاء ؟

كم دعونا وجأرنا بالشكوى ورددنا السؤال — ما هذا كله ؟ ما أصله ؟ وما هدفه ؟ . نسأل عن الحق ، ونسأل عن الصواب ، ونسأل عن الخطأ ، ولا من مجيب . حتى اذا ألقينا عنا قيـود الغرائز ، وأسقطنا حجب الرغبات والشهوات ، فنفذت أشعة الروح الى ظلام نفوسنا بدا كل شىء على هذا الضوء الهادىء ضوء الروح .

« انه هو نفسك ، الا أنك بشر فان ، معرض للخطأ ، أما هو فمعصوم خالد ، انه الحق الأبدى » .

هنا حدد الفرق بين وعى النفس الدنيا الزائلة الفانية ، والحقيقة الخالدة ، فى وضوح . فوضع أمامك اللغز ، لغز النفس والروح ، فأعمل الفكر فى هذا القول ، يشرق عليك الحق واضحا بالتدريج ، فلا يعود يتركك ، ولا تعود الظلمة تدركك ، مهما خفت ضوءه فى بعض الأحيان .

« فاذا ما حل فيك يوما فأصبح فارسك ، فانه لن يهجرك أبدا » .

ياله من وعد عظيم وأمل مشرق ، ان وعيك وجود الروح فيك ، ان أشرق عليك يوما لن يعود يغيب عنك أبدا . قد يساورك الشك فى وجوده لأن حواسك لا تدركه ، ولكن أثره وقوته تبقى مترسبة فيك حتى اذا ما اشتدت حاجتك الى معونته ، تفتحت نفسك لنوره واتسعت لقوته ، فغمرتك حكمة الهية وقوة روحية .

« وفى يوم السلام العظيم يتحد بك وتصبح أنت وهو واحدا » .

فى الوقت الذى تكون الحجب كلها قد تساقطت وتكون الروح قد أزهرت وازدهرت — عندما يصبح الرجل أكثر من رجل — عند ذلك يستغرق الوعى فى معرفة الروح ، وتصبح النفس وعنصرها الالهى واحدا . وليس معنى هذا فناء الشخصية ، بل على العكس ، تعظم الشخصية وينمو الوعى ، لدرجة لا يمكن أن يتصورها أكبر عقل فى المستوى الحالى للبشرية .

عند ذلك تصبح المعرفة والقوة والانشراح ، التى قلنا أنها تشاهد فى لمحة خاطفة عند الاشراق الذى يومض ويختفى .. تصبح دائمة مستقرة ، وبذلك تتخطى حدود النسبى الى آفاق المطلق .

وننتقل الى الأربع القواعد التالية :

٥ — انصت الى أغنية الحياة .

٦ — احفظ النغمة التى تسمعها .

٧ — تعلم منها درس التناسق .

٨ — انك تستطيع الآن أن تقف منتصبا ثابتا كالصخرة فى وسط المعركة ، مطيعا المقاتل الذى هو نفسك وملكك ، لا يعنيك من المعركة الا تنفيذ أوامره ، غير مهتم بعد ذلك بنتيجة المعركة ، لأن شيئا واحدا له كل الأهمية ، ذلك أن المقاتل سينتصر ، وقد علمت أنه غير قابل للهزيمة . فاذا وقفت ، هكذا ، هادئا متيقظا ، فاستعمل قوة السماع الذى اكتسبته بالألم وبالتغلب على الألم . ان نتفا فقط ، من الأغنية العظمى ، تصل الى أذنيك ما دمت رجلا فقط . فاذا سمعت شيئا ، فاحفظ — بأمانة — ما سمعت ، حتى لا يضيع منه شىء . واجتهد أن تعرف معنى ما يدور حولك ، مستعينا بما سمعت . ومع الوقت ، سوف لا تحتاج الى معلم . فكما أن للفرد صوتا ، كذلك لما يحيط به صوت . فللحياة حديث ، لا تكف عنه ، ولا تسكت . وليس صوتها كما يبدو لأمثالك الصم ، صيحة ، انما هو أغنية . فتعلم منها أنك جزء من مقاطعها . تعلم منها أن تخضع لقانون التناسق بين ألحانها .

« أنصت الى أغنية الحياة » ، هكذا تقول القاعدة الخامسة ، والهامش ، الذى ألحق بهذه القاعدة ، له من الجمال والروعة ، وفيه من الحق والارشاد ، ما يجعلنا عاجزين عن المزيد عليه . ولذلك ننقله هنا كما هو على أنه أحسن شرح لهذه القاعدة .

يقول الهامش « ابحث عنه ، واصغ اليه أول الأمر ، فى داخل نفسك . ستقول عندما تبدأ البحث انك لا تجد شيئا ، وانك كلما بحثت ، لا تجد الا اضطرابا وخلطا . ولكن دقق النظر وازدد عمقا ، فان لم تجد شيئا ، فاسترح فترة ثم أعد الكرة . ان فى قلب كل انسان نبعا خفيا له خرير . له نغم طبيعى ، قد يكون مخفيا محجوبا مكتوم النبرات ، ولكنه هناك . هناك فى قرارة نفسك ، وأعماق طبيعتك ، تجد الايمان والحب والأمل . ولكن الذى يختار طريق الشر ، يأبى أن ينظر فى أعماق نفسه ، ويضع أصابعه فى أذنيه حتى لا يسمع نداء القلب الرقيق ، ويغمض عينيه حتى يكف بصره عن مشاهدة نور الروح .

انه يفعل ذلك لأنه يستمرىء العيش ويجده أيسر فى الشهوات، ولكن تحت أسس الحياة كلها ، يتدفق ذلك التيار الشديد ، الذى لا يصد ، هنالك المياه العميقة الحقيقية . اكتشفها ، تجد كل انسان جزءا منها ، مهما انحط فى حمأة السوء ، ومهما أغمض عينيه عنها وأحاط نفسه بسياج موهوم من الخوف والرهبة » . .

من أجل هـذا قلت من قبل أن كل المخلوقات التى تكافح حولك شظايا القدرة الالهية .

ولكن ما يحيط بك يبلغ من خداعه وتمويهـه أنه يجعل من الصعب عليك أن تدرك بالحدس والتخمين أين تبدأ تتكشف لك

الأغنية الجميلة فى قلوب الآخرين . ولكن ثق أنها فى قلبك فابحث عنها هناك فاذا التقطت أذنك نغماتها ولو مرة أصبح من السهل عليك أن تتميزها فيمن حولك .

وتقول القاعدة السادسة :« احفظ النغمة التى تسمعها » . وتقول السابعة : « تعلم منها درس التناسق » ، وهما تتصلان بالخامسة وفى غير حاجة الى الشرح .

والثامنة مليئة بالحكم . فهى تبدأ بأن تؤكد أنك تستطيع أن تقف ثابتا كالصخره لأنك أصبحت تحت قيادة الروح ولأنك تطيع القائد الذى هو ذاتك وملكك وفى هذا اشارة أخرى الى النسبى والمطلق والعلاقة بينهما — بين الانسان وروحه ، وهى تتكلم عن الذات والروح وان الذات لا تعنيها أحداث المعركة أى النتائج الظاهرة الوقتية من ألم أو تجربة أو شدة بسبب ظروف الحياة ، انما أصبح المهم أن الروح تنتصر وهى لابد فاعلة ، وما على الذات الا الطاعة للروح والروح لا تقهر ولا تقبل الهزيمة .

وهى تتكلم عن الذات فتقول « فاذا وقفت هادئا متيقظا فاستعمل قوة السماع التى اكتسبتها بالألم وبالقضاء على الألم » واكتساب الألم والقضاء عليه يعنى أن الانسان يتعلم الكثير من الألم — من المصائب التى يتألم منها . بل ان دروسا كثيرة لا سبيل الى تعلمها الا عن هذا الطريق ، ولكن متى عرف الانسان حقيقة

طبيعة الألم عند ذلك يصبح الألم بلا ألم ويتغلب الانسان عليه . وهكذا يصل صوت الروح — أغنية الحياة — الى السمع الذى أيقظه الألم والقضاء على الألم .

وتقول القاعدة « ان تنفا فقط من الأغنية الكبرى تصل الى سمعك ما دمت رجلا فقط » لأنك اذا بلغت المستوى الذى تسمع فيه الأغنية كاملة النغمات والمقاطع لا تكون عندئذ رجلا فقط بل تصبح شيئا آخر بالغ السمو والارتفاع على سلم التطور الروحى . ولكن حتى هذه النتف المتناثرة من الأغنية تفوق كل ما يتصوره البشر لدرجة أن صداها وحده جدير بأن تنفق فى سبيله أعمار كاملة وأعمار .

وتقول القـاعدة : « فاذا أنصت اليها فاحفظهـا بأمانة حتى لا يضيع منها شىء .. الخ » ان صوت الروح سيطرق أذنيك حتى انه بالرغم من ضوضاء الحياة سيحمل اليك من وقت لآخر من العلم ما يخيل اليك أنه من عالم آخر فيلقى على معضلات الحياة الضوء قليلا قليلا فتنحسر الحجب حجابا بعد حجاب .

وعندها تصبح غير محتاج الى معلم من البشر فان نور الروح سيسطع على كل ما تبصر والأذن تسمع بالروح دروسا آتية من كل مافى الوجود ، من الحجر ، من النبات ، من الجبل ، من العاصفة ، من الشمس والنجوم ، من كل جليل وضئيل تسمع وجيب الحياة

النابضة التى أنت جزء منها وتسمع منها كلها نغمات الأغنية العظمى حتى من نفسك يتردد الصوت قائلا (أحد . أحد . الكل واحد أحد) ولكنها ليست صيحة ، انها أنشودة نصر عظيم تردده الحياة بعد خالق الحيــاة .

والمجموعة التالية من أربع قواعد تجرى على الوتيرة نفسها :

٩ — انظر جيدا الى الحياة المحيطة بك كلها .

١٠ — تعلم توجيه النظر الثاقب الذى يخترق قلوب الرجال .

١١ — ركز كل اهتمامك فى النظر الى قلبك .

١٢ — لأنه من قلبك أنت يخرج الشعاع الذى يضىء الحياة ويجعلها واضحة جلية لعينيك .

افحص قلوب الرجال حتى تلم بهذه الدنيا التى تعيش فيهـا والتى تريد أن تكون جزءا منها . راقب مراقبة دقيقة حركة الحياة الدائبة حولك التى تتغير كل لحظة لأنها من قلوب الرجال تتكون فكلما تعلمت أن تفهم تكوين القلوب وتقلباتها ومراميها تدرجت فى قراءة كلمة الحياة الكبرى .

والقاعدة التاسعة تعنى ما سبق ايضاحه وهو النظر الى الحياة بنـــور الروح .

والقاعدة العاشرة تقول انك ان فهمت الناس تصبح قادرا على

مساعدتهم كما أنك تتعلم من الدروس ما ينفعك فى السير على الطريق ولكن يجب الانتباه الى المعنى الذى جاء فى هامش هذه القاعدة تفسيرا لتعلم فهم الرجال . « النظر من ناحية غير شخصية بالمرة . والا اصطبغ حكمك بلون نظرتك » ولذلك يجب أن توضح كيفية النظر غير الشخصى .

المعرفة لا تتحيز فليس من الرجال عدو لك وليس منهم لك صديق انهم جميعا معلمون لك : فعدوك لغز يجب حله وفهمه مهما كلفك ذلك الحل من زمن لأن الانسان يجب أن يفهم . وصديقك جزء منك انه امتداد لنفسك ولكنه أحجية تصعب قراءتها ، ولكن شيئا واحدا أصعب من هذا وذاك وأعسر فهما ، ذلك هو قلبك أنت .

ان هذا اللغز العميق لا يمكن حله حتى تنحل عنك قيود الشخصية وتقف جانبا تتأملها فمالم تتجرد عنها فانها لن تسفر عن نفسها وتظهر أمامك فتسيطر عليها وتتولى قيادها وتدرك قوتها فتوجهها لخير ما تستطيع من أعمال وخدمات .

والقاعدة الحادية عشرة تقول : « ركز كل اهتمامك فى النظر الى قلبك » . والثانية عشرة تقول : « لأنه من قلبك أنت يخرج الشعاع الذى يضىء الحياة ويجعلها واضحة جلية لعينيك » .

فى طبيعتك تجد كل مافى طبائع غيرك من الرجال الخير والشر ،

الصالح والطالح كلها فىقلبك قد يكون الطالح فات أوانه وتخلصت منه — ربما ، وقد يكون الصالح أمامك تعمل به ، ولكن الكل هناك . فان شئت أن تفهم الرجال وأن تعرف ما بأنفسهم من دوافع وأفكار ونوازع أنظر الى داخل قلبك تفهم الناس فهما أدق .

ولكن لا تنظر الى أفكار قلبك على اعتبار أنها أفكارك بل أنظر اليها كما ينظر اليها الغريب عنك أو كأنها معروضات فى متحف أو معرض تدرسها ولكن لا تجعلها جزءا من حياتك لا غنى عنه .

اذكر وأنت تستعرض هذه الأفكار التى فى قلبك أنه ليس منها فكر واحد يستحق أن يستخدمك لتحقيقــه وأن يجعلك عبدا له وان كان الكثير منها يصلح لأن تستخدمه أنت أو أن تعمل على تحقيقه للخير .

أنت أنت الســيد لا المستعبد ، ذلك اذا كنت نفسا تفتحت ووصلت .

والقاعدة الثالثة عشرة تقول : « الكلام وليد المعرفة فتوصل الى المعرفة تستطع الحديث » ويفسرها بعض التفسير هامش هذا نصــه :

« انك لن تستطيع مساعدة الناس حتى تكون قد تبينت شيئا من جلية أمرك . فاذا كنت أدركت فهم القواعد الاحدى والعشرين

ودخلت بهو المعرفة وقد نمت قواك وتحطمت قيود حواسك فانك تجد هناك فى قرارك ينبوعا يفيض منه الحديث » .

لا تنزعج اذا توقعت أن يطلب اليك أن تلقى الى الغير كلمات الارشاد والتشجيع ولا تظن انك بحاجة الى تحضير ما ستقوله ان ذلك الغير سيستدر منك بقوة الروح ما هو فى حاجة اليه . لا تخف، ثق وآمن .

لقد قاربنا الختام . وقد حاولنا ، ما وسعنا ، توضيح هذا السفر العجيب بعض الايضاح عسى أن يستطيع المبتدىء أن يجد بتعاليمه وعلى ما أرسل من (ضوء على الطريق) طرف الخيط فيتتبعه على قدر ما يستطيع .

لقد كان العبء يثقل كلما تقدمنا فى الشرح وكان العمل لا يدعو الى الارتياح كلما مرت القواعد تباعا ، فالكلمات محدودة والحق غير محدود ، وانه لمن العسير أن نحاول تحميل المحدود من الكلمات عبء غير المحدود من المعانى . والقاعدة الثالثة عشرة هى آخر ما نستطيع أن ندرسه ونبحث فيه . أما القواعد الباقية فيجب أن يقرأها المريد على انفراد وعلى ضوء الروح ، أنها لمن بلغوا الوعى الروحى خاصة ولهؤلاء سيكون المعنى واضحا أو غامضا أو بين بين على قدر ما بلغوا من نور الروح أو ما بلغهم من نوره .

نحن نعتقد أننا لم نقم بما أخذنا به أنفسنا حق القيام ، ولو أن

الكثيرين قالوا لنا ان هذه الدروس قد فتحت أعينهم ، وأن الكثير مما كان غامضا قد وضح لهم بفضلها . ونحن نرجو أن يكون ذلك حقا لا مجاملة فيه وأن يحدث هذا للكثيرين ممن تصل اليهم كلماتنا هذه وان كنا نحن نعتقد أننا لم نقل شيئا ينفع ، ولكننا مع ذلك ، نعتقد أيضا أن هذه الكلمات ما كانت لتبرز للوجود لو لم يكن قد قدر أن سيكون لها أثر ولو لم يقصد بها أن تكون جزءا من العمل العظيم . ولذلك فاننا نرسلها لتمضى فى السبيل الذى قدر لها أن تمضى فيه وما لنا علم بما هى بالغة من مدى وقد يدرك بعض من يقرأها السر فى ارسالها (أكثر من ادراكنا نحن) .

لقد كتبت هذه الكلمات باملاء الروح ، فلتتول الروح وضعها حيث تدعو الحاجة اليها .

وسنواصل فى الدروس التالية نواحى من الروحانيات نرجو أن يكون فيها فائدة للطلاب ولكن قبل أن نغادر هـــذه القواعد الثمينة من تعاليم (ضوء على الطريق) نود أن ننوه بأهمية هذا السفر الصغير ، انه يحوى فى صفحاته قدرا من التعاليم الروحية العالية لم يسبق أن حواه مثل هذا الحيز الصغير . ولا يظنن القارىء أنه قد أمسك بناصيته لأنه فهم مجمل التعاليم . ليقرأه ثانية بعد قليل يجد فيه جمالا لم يكن لديه عهد به من قبل ، فاننا لم نلق أحد مهما بلغ من العلم وعلو القدر الا وقد أفاد من هـــذا السفر

وخرج منه بشيء جديد . ان تعاليمه يمكن تفسيرها على عدة أوجه لأنها تصور ما تراه النفس وهى تقطع الطريق ، وأنت تذكر أننا قلنا أن الطريق يرتفع فى دوران ، وأن الروح تدور وهى ترتفع فيظن القارىء أنه فهم معنى القواعد التى وضعت فى التعاليم ولكن عندما يدور ويرتفع حتى يتم دورة كاملة يجد فى نفس القواعد معانى لم تكن ظهرت له وهو على المستوى الأول الذى قرأ القواعد وهو يسير فيه . وهكذا يجد كل فى القواعد ما يتناسب مع درجة ارتقائه ومع حاجات روحه .

ولا يقتصر الارتفاع الحلزونى هذا على الآجال المتكررة ولكن فى مدة الحياة الواحدة نجد هذا الطريق الدائر المرتفع .

ولكن النفوس التى لم تهتد الى الطريق ولم تعرف مدخله لتبدأ السير فيه ، تدور وتدور فى نفس المستوى وعلى نفس الأرض لا ترتفع ولا ترقى مهما جدت فى السير ولكن ما هو الا أن تطأ أول الطريق الصحيح وتسير كما كانت تسير ، الا وتشعر بأنها ترتفع وأنها مع كل دورة تجد نفسها فى مكان يعلو المكان الذى كانت فيه من قبل ، والحق أننا لا نعرف كتابا مرشدا للسير على الطريق مثل هذا الكتاب (ضوء على الطريق) . ولا شك أن لنا العذر أن ختمنا هذا الدرس بما صدرنا به الكتاب ، ان مكانها هنا فى ختام هذا الدرس جدير بها كمكانها فى أول الكتاب .

« رسالة (ضوء على الطريق) من أمهات الكتب عند الروحانيين وهى خير مرشد عرف لمن خطوا الخطوات الأولى فى السير على الطريق ، طريق الخلاص والوصول الى النور . ولقد عنيت الكاتبة ، شأن غيرها من الصوفية أهل الطريق ، بحجب المعانى ما استطاعت الى ذلك سبيلا حتى تظهر هذه التعاليم لمن ليس من أهل هـذا الطريق وكأنها مجموعة متناقضات خلو من كل معنى .

ولكن من أشرق على نفسه ولو قبس من ضوء الروح ضئيل ، يجد فى هذه الصفحات كنزا مليئا بأندر الجواهر ، وكلما فتحه بدت له منه جواهر جديدة .

سيكون هـذا الكتاب فتحا للكثيرين الذين كانوا يتلمسون الطريق على غير هدى فى الظلام .

وسيكون لآخرين أول لقمة من أول غذاء روحى يقدم لنفوسهم الجائعة .

وسيكون للكثيرين أول جرعة من ماء ينبوع الحياة يطفىء نار العطش الذى أضناهم .

ان الذين كتب لهم هذا الكتاب سيعرفون رسالته ، فاذا انتهوا من قراءته أصبحوا قوما آخرين .

وكما قال الشاعر — حيث أسير يعرفنى أطفالى — كذلك أبناء النور سيعرفون أن هذا الكتاب لهم .

أما غير هؤلاء فان كل ما نقوله لهم انه سيأتى الوقت الذى يصبحون فيه مستعدين لتلقى هذه الرسالة .

وضع هذا الكتاب على أساس أن يكون تقــدم المريد على خطوات كما هو الحال فى تنقل البادئين من طبقة الى طبقة ومن درجة الى درجة فى الجمعيات السرية كالماسونية مثلا أو كما كان الحال عند قدماء المصريين ، وما يجرى عليه العمل فى الهند منذ أجيال اذ يلقن الأستاذ تلميذه فتسلم الرسالة بهذه الطريقة على حسب تدرج التلميذ لا يلقن القاعدة الا بعد أن يكون قد عمل بما سبقها كأهل الطريق تماما فأصبح بذلك أهلا لأن يلحق بأهل الطبقة التالية الذين وضعت لهم القاعدة التى وقف عندها .

وللقواعد التى وضعت فى هذا الكتاب صفة خاصة ، هى أن معنى القواعد الحقيقى لا يتكشف للطالب الا على قدر نمو روحه واستعداده ومدى تقدمه على الطريق .

سيفهم بعض القراء هذه القواعد وسيعجز البعض عن ادراك معناها فلا يستطيعون أن يخطوا الخطوة الأولى .

ولكن الطالب اذا رسخت قدمه فى أول خطوة وجــد ضوءا يلقى على الدرجة التالية فيضع قدمه عليها فى اطمئنان وثقة واذا به قد ارتفع على السلم درجة ، فاذا امتلأ معرفة بالمستوى الجــديد وأصبح من أهله أضاء له الروح السبيل فيتخذ خطوة أخرى .

ولكن لا ييأس أحد : ان مجرد اتجاهك نحو هــذا الكتاب واهتمامك به دليل على أن الرسالة التى يحملها موجهة اليك وأنك لابد مدرك لبها سائر على هديها ، وأن قواعد السير على الطريق لابد ستتضح لك قاعدة بعد قاعدة فتتقدم خطوة بعد خطوة .

اقرأه مرة بعد مرة تجد حجابا يرفع بعد حجاب ، واعلم دائما أن حجبا كثيرة ستبقى بينك وبين الله تجد فى السعى لرفعها حجابا آخر بعده حجاب .

الدرس الخامس

كارما يوجا (KARMA YOGA)

فلسفة اليوجا تعلم أنه بالرغم من أن المحاولات الانسانية الصادقة ليس لها الا هدف واحد الا أن الطرق للوصول الى هذا الهدف متعددة ، كل طريق يلائم طبيعة الشخص الخاصة . وليست هذه الطبيعة وليدة الصدفة أو نتيجة حادثة عارضة انما هى نتيجة التقدم الذى أحرزته النفس فى تطورها وتمثل الميل الفكرى الذى تابعته النفس فى ذلك التطور وما ترتب عليه . وهى شىء واقع حقيقى فى كل مرحلة من مراحل التقدم تمثل أقل خطوط السير صعوبة وأضعفها مقاومة .

لذلك يقرر اليوجيون أن أنسب الطرق للشخص وخيرها لمصلحته هو الطريق الذى يتفق ومزاجه وذوقه وميوله ولذلك يقسمون (الطريق) الى ثلاث شعب توصل كلها الى الطريق الرئيسى ويسمون هذه الشعب :

١ — راجا يوجا .

٢ — كارما يوجا .

٣ — جنانى يوجا .

وكل سبيل من هذه السبل يؤدى الى الطريق الأعظم وكل منها يصلح لسلوك الذين يفضلونه من الناس وكل منها يوصل الى نفس الغاية ، الراجا يوجا هى الطريق الذى يسلكه أولئك الذين يميلون الى تنمية القوى الكامنة فى الانسان — كسب القدرة على التحكم فى القوى العقلية بقوة الارادة — الوصول الى السيطرة على النفس الحيوانية (الغرائز) — تنمية العقل حتى تجد النفس فيه العون على الخلاص .

وكارما يوجا هى طريق العمل والنشاط .

وجنانى يوجا هى طريق الحكمة .

وبجانب هذه الشعب الثلاث هناك طريقة بهاكتى يوجا أو طريق الاخلاص والعبادة طريق الشعور الدينى — (العشق الالهى) .

ويعرض بعض الكتاب لهذا الطريق على أنه مستقل عن الطرق الثلاثة السابقة منفصل عنها . ولكننا نفضل أن نفكر فيه وندرسه على أنه مزيج من هذه الطرق الثلاثة فاننا لا نستطيع أن نتصور طالب اليوجا فى أى فرع من فروعها الثلاثة وقد تجرد عن حب الله والتعلق به وابتغاء مرضاته .

اننا لا نستطيع أن نتصور رجلا يقطع الطريق الذى اختاره من

تلك الطرق بدون أن يكون قلبه عامرا بالحب والتقديس لمصدر الحيـــاة .

سنتحدث فى هـــذه الدروس عن بهاكتى يوجـــا كموضوع مستقل ولكننا نود أن يكون واضـــحا ومفهوما أننا لا نعتبرها شيئا قائما بذاته منفصلا عن الطرق الأخرى . أننا نشعر بأن سالك أى من الطرق السابقة أو كلها يجب أن يجمع بين بهاكتى يوجا والطريق الآخر الذى لنفســـه .

سنتحدث فى هذا الدرس عن شعبة (كارما يوجا) طريق العمل طريق النشاط (الأسباب) .

ولكن يجب أن يكون واضحا أنه وان كانت ظروف الطالب آو طبيعته تجعل هذا الطريق محببا الى نفسه الا أنه يجب عليه أن يهتم اهتماما جديا بالطرق الأخـــرى كلها كما أن من يفضلون تلك الطرق يجب ألا يغضوا النظر عن هذا الطريق أو ينظروا اليه نظرة الاستكبار والتعالى عنه . ذلك لأنه متصل بشئون حيـــاتهم العادية اليومية . وفى الغرب حيث يعيش الناس كلهم تقريبا عيشة عمل ونشاط يتحتم على الطالب أن يجمع بين مبادىء كارما يوجا ودراساته الأخرى .

سيخصص هذا الدرس لكارما يوجا والتالى لجنانى يوجـــا

والذى بعده لبهاكتى يوجا ولن تتعرض فى هذه الدروس للراجا يوجا اذ أننا بسبيل اخراج كتاب خاص عنها .

ولعله من الخير قبل أن نعالج موضوع كارما يوجا أن نلقى نظرة عامة على موضوع اليوجا ما هو هدف تعاليمها والغرض من مزاولتها ؟ ما معنى ذلك كله ؟ ما الذى يبحث عنه الانسان فى كل هذه المحاولات ماذا تعنى الحياة والنمو والتطور والارتقاء . هذه أسئلة طالما رددها المفكرون وقليلون هم الذين يستطيعون الاجابة عنها ولو اجابة جزئية .

تعلم فلسفة اليوجا أن هدف محاولات الانسان وغاية سعيه فى حياته أن يجعل النفس تتفتح وتتحرر حتى تصل الى الاتحاد بالروح .

وبما أن الروح هى الجزء الالهى فى الانسان أو البضعة من العنصر الالهى فيه فان هذا الاتحاد قد ينتج عنه ما يعرف بالاتحاد بالله — يعنى الوصول بالنفس الى الاتصال والاتحاد بمصدر الحياة وهى تعى ذلك الاتصال وتحسه فى جلاء ووضوح .

وقد يظن البعض ويدعو الى أن غاية الحياة هى السعادة وهذا صحيح أن قصد بالسعادة السعادة الحقيقية ، السعادة التى لا يوجد سعادة غيرها — سعادة النفس أما اذا كان قصدهم ذلك الشىء النسبى العارض الذى يسمى عادة وخطأ السعادة فانهم سرعان

ما يكتشفون أنهم يجرون وراء سراب كلما اقتربوا منه انحسر عنهم وبعد . ان السعادة الحقيقية لا توجد فى الأشياء النسبية الزائلة ؛ فهذه الأشياء تتحول الى رماد بمجرد أن نمد اليد اليها لنمسك بها . قد نجد قسطا من السعادة فى التطلع الى الأشياء وتمنيها حتى اذا قطفنا الثمرة ذبلت ومهما ارتفعت قيمة الأشياء التى توهمنا السعادة فى الحصول عليها فالنتيجة هى هى .

الأشياء النسبية لا تستطيع أن تتخلص من نسبيتها فهى فانية تزول وتنقضى . انها مخلوقة فى الزمان والمكان فاذا أدت الغرض الذى خلقت له انقضى أجلها ولا يمكن أن تعيش بعد انقضائه انها فانية ولابد لها أن تزول مثلها كمثل كل فان والشىء المجرد المطلق هو وحده الباقى لا يتغير ولا يموت .

هذا الكفاح والألم والحياة والجهد انما يوجه كل أولئك فى الحقيقة الى تحرر النفس حتى تعرف حقيقة نفسها . من أجل ذلك تتطلع الى الأشياء نجرى وراء هذا الشىء مرة ثم نجرى وراء ذلك الشىء مرة أخرى ظانين أننا محتاجون الى هذا والى ذاك ولكننا فى الواقع لا نحتاج الى شىء منها .

اننا نشعر بظمأ لا يطفأ وجوع لا نشبع منه ونحن نجرب كل ما فى الحياة من متع نهمين متكالبين حينا وراء شىء وأحيانا خبط عشواء غير مكترثين وفى كل حالة نكتشف أن كل شىء خيال باطل

وظل زائل وان الجوع والعطش ما يزالان يدفعاننا الى مزيد من الجرى حتى نكتشف أن الشيء الذى نبحث عنه انما هو فى داخلنا وليس خارجا عنــا فاذا عرفنا ذلك مهمــا كانت معرفتنا بسيطة فهنالك نبدأ البحث المستنير متعقلين واذا بنا خلق آخرون . هذا هو معنى الحياة معنى التطور والارتقاء .

الأغلبية الساحقة من الناس منهمكون فى هذا الجرى وراء السعادة على وجه لا بصيرة فيه ولا وعى . يجرون هنا وهنــاك يجربون شيئا بعد شيء وهم يأملون أن يظفروا بذلك الشيء الذى لا تصل اليه الايدى والذى يحسون احساسا مبهما أن السعادة قد عقدت بلوائه وأن الهناءة والسلام فى ركابه . ومع أنهم يلقون خيبة أمل بعد خيبة فأنهم يواصلون السعى والبحث فى غير هوادة مدفوعين بقوة حنين النفس التى بدأت تصحو وتبكى طالبة ذلك الشيء المجهول الضرورى لها .

والنفس كلما زاد تفتحها وزادت يقظتها بفعل التجارب المتكررة المتعاقبة زاد تصورها الصحيح لطبيعــة الشيء الذى تبحث عنه وحقيقته وعندها لاتسير الا فى الطريق المؤدى الى ذلك الشيء الذى طال بحثها عنه والذى لم تتبين حقيقته الا أخيرا وبعد لأى

كثير من باحثى الغرب الذين يسعون وراء معرفة الحقيقة ينعون على فلســفات الشرق عدم ملاءمتها لظروف الغرب واحتياجات

طلاب الفلسفة الغربيين بسبب اختلاف ظروف الحياة فى الشرق عنها فى الغرب . ولو صح هذا الاعتراض لكان دليلا قاطعا على فساد تعاليم الشرق وفلسفته وعدم صحتها لأن الفلسفة الصحيحة والتعاليم السليمة يجب أن تكون مناسبة لجميع الناس على مختلف أجناسهم وأوطانهم وحرفهم وبيئاتهم فان لم تكن التعاليم صالحة لكل نفس واحتياجاتها فانها تعاليم غير صالحة ويجب اطراحها . كل نفس مهما انحطت وسفلت واتسمت بالخسة يجب أن يكون لها قسط من رعاية التعاليم والا كانت التعاليم قاصرة عن بلوغ الحقيقة . لأن هذه النفس الوضيعة وأرفع النفوس أمام القانون سواء لانهما قطعة من البشرية التى وضع القانون لها ولا يمكن اغفالها .

وعقدة العقد بالنسبة لهؤلاء المعترضين الغربيين هى أنهم فهموا أن تعاليم الشرق وضعت للذين يستطيعون أن يقضوا حياتهم فى خمول الاستغراق والتأمل حالمين معتزلين معركة الحياة وهذا خطأ كبير . صحيح ان بعض طلاب الحكمة فى الشرق يختارون الانقطاع عن الدنيا فيصلون من وراء هـذا الانقطاع الى نتائج باهرة . ولكن انقطاعهم هذا انما هو نتيجة (الكارما) الخاصة بهم . انه ثمرة أعمالهم فى حياتهم السابقة .

ولكن ليس ثمة يوجى حق يقول بأن هذا الانقطاع هو الطريق الوحيد ولا انه هو خير طريق .

اليوجيون على عكس ذلك يقولون ان حياة العمل والسعى حتى فى الشرق حق واجب على من وجدوا فيها وخلقوا لها وان التخلى عن واجباتهم فيها والفرار منها خرق للقانون الأعظم — دستور الحياة — وبناء على ذلك فان الحياة المليئة بالنشاط فى الغرب (وكلها خاضعة لقوانين ثابتة مناسبة لمرحلة من مراحل التطور واضحة القسمات مفهومة فهما جيدا) هذه الحياة تجعل الخلوة والاعتزال مستحيلين بالنسبة لآلاف الطلاب المشغوفين بالبحث عن الحقيقة والذين يحتم عليهم قانون الحياة طبقا (للكارما) الخاصة بهم أن يسيروا فى هذا الطريق ، طريق العمل . ولهؤلاء يقول اليوجيون بالتزام طريق العمل (كارما يوجا) موضحين لهم جمال هذا الطريق ومحاسنه .

كارما كلمة مشتقة من أصل سنسكريتى معناه العمل أو النشاط . وتستعمل لفظة كارما فى أكثر الحالات للدلالة على (نتيجة العمل) أو (ثمرة العمل) وقد تحدثنا فى الدروس السابقة الأربعة عشر عن كارما فأوضحنا فى ايجاز قانون العلة والمعلول أو السبب والمسبب والقانون الذى ينظمهما فى العالم الروحى — كيف تتبع نتيجة العمل العمل كما يتبع العمل الفكر ، وعلى هذا فان نتيجة العمل تتبع الفكر الذى ينتج العمل .

اننا نحن الآن ما نحن لأننا فعلنا فى حياتنا السابقة أشياء معينة

ولأننا تركنا أشياء معينة أخرى لم نقم بها . كانت لنا ميول ورغبات استسلمنا لها وما نحن فيه اليوم نتيجة ذلك وثمرته . لست أعنى أننا نعاقب الآن على أفعال ارتكبناها فى الماضى فليس فى قانون الحياة نصوص على العقاب ، ولكن كانت لنا رغبات نحو أشياء معينة فحققنا تلك الرغبات بقدر ما سمحت به ظروفنا وترتبت على ذلك نتائجه التى لابد منها ولا تبديل لها .

لقد وضعنا أصبعنا فى النار فاحترق — ونحن الآن نعالج الحروق هذا كل ما فى الأمر .

ليس من الضرورى أن تكون تلك الأشياء التى فعلناها فى الماضى أشياء رديئة بل قد يكون كل ما فى الأمر أننا تعلقنا بأشياء فكانت لتعلقنا هذا نتائجه التى قد تكون غير سارة ومؤلمة ولكنها على أى حال خير لأنها تعلمنا ألا نعود الى فعل تلك الأشياء وألا نرتكب نفس الخطأ مرة أخرى . وشىء آخر ، اننا اذا تفتحت أعيننا فأدركنا متاعبنا على حقيقتها نتج عن ذلك الادراك أن تخف حدة ما نعانى بسببها من ألم سرعان ما يزول .

هذا القانون الروحى قانون السبب والمسبب يعرف فى الشرق باسم (كارما) فاذا تحدث طلاب الشرق عن (كارما) انسان ما ، قصدوا أن ما يحدث لذلك الانسان تنفيذ لذلك القانون العام ، كل انسان تسبب فيما يحل به ، وليس ثمة ما يدعونا الى الفزع

من معرفة هذه الحقيقة بل على العكس اذا عرفنا هذه الحقيقة كانت آلامنا أقل وقعا وكنا أقدر على تجنب ما ترتب عليه من نتائج غير حسنة ، فان حياتنا تكون سارة أو غير سارة تبعا لما وضعنا لها من أسباب بما قدمنا من أعمال كذلك يتوقف تحملنا لما كتب لنا من أحداث[1] على الطريقة التى نتحملها ونستقبلها بها . فان الفيلسوف يستطيع أن يرى الخير فى شر ما يحل به كما أن الجاهل قد يشقى بخير ما تأتى به (الكارما) [2] على أنه سوء .

كثير من المشتغلين بالفلسفة الشرقية يتصورون أن (كارما) وهى القانون الروحى للسبب والمسبب قانون عقوبات وضعته وأصدرته وتسهر على تنفيذه السلطة الروحية القائمة . وهذا خطأ ، فان كارما ولو بدت فى كثير من الأحيان كأنها توقع عقوبة بمعنى أنها توقع الانسان فيما يعادل ما أتى من عمل فى اتجاه مضاد لذلك

---

(١) نظرية الكارما يوجا هذه قد تفسر القضاء والقدر تفسيرا فيه عدالة ، فبدل أن يكون ما قدر للانسان قدر لامر ما لا علم لنا به فانه تبعا لكارما يوجا يكون قد كتب بخطئنا نحن وامضائنا بما سبق أن قدمنا من عمل . (المترجم)

(٢) من السائد بيننا أن نقول (من عمله) اذا حلت بانسان مصائب وهذا التعبير هو أقرب ترجمة للكارما لولا أننا لا نقصد ما يقصد الهنود فنحن لا نعرف الوجود الا فى هذه الحياة بينما كارما تنسحب على أعمال الانسان فى حياة سابقة . (المترجم) .

العمل الا أن ذلك ليس فيه معنى العقوبة أو الانتقام انما هو نتيجة عمل أو ثمرة زرع لا أكثر ولا أقل .

ولكى نوضح هذا المعنى لابد وأن نستعين بالأمثال وان كان الفارق كبيرا بين ما نضرب من مثل وبين الواقع الذى نريد أن يقربه المثل من الأذهان .

نضرب مثلا : شخص تتملكه الرغبة فى السلطان فيدأب على تغذية رغبته هذه بالأفكار المليئة بالأنانية ، لابد وأن يعانى من أعماله المترتبة على أفكاره نتائج تجر عليه آلاما ومتاعب عقلية وجسمانية . قد يحقق آماله عاجلا أو آجلا ان كان فيه من قوة الرغبة وشدة الدأب ما يكفى لتحقيقها ، ولكنه معرض بجانب ذلك للآلام من جراء تلك الرغبات عند عدم تحقيقها لعجزه أو لأنه حصل عليها بتضحية كل ما هو عزيز عليه أو لأن منافسه أقوى منه فيطحنه واذا به مع أمانيه وآماله يتمرغ فى تراب الندم والهزيمة بجنى ثمرة تفكيره فى السلطان ورغبته فيه تلك الرغبة التى تركها تقوده الى مصيره المحزن .

عندما تتسلط على الانسان الرغبة فى شىء يهب للحصول على ذلك الشىء — ومن حوله كثيرون تدفعهم نفس الرغبة فيهبون لتحقيقها — وتتولد من هذه الحركة قوة نفسية قد يكون اتجاهها فى مصلحته فتتحقق رغبته أو تكون مضادة فتطحنه وذلك كله رهن

بالظروف المختلفة – قوة المنافسين وقواه هو المادية والمعنوية وكم من رجل أحرقته نار أشعلها بيديه أو نسفته قنبلة صنعها بنفسه . ان الانسان يزج بنفسه فى المشاكل وعليه أن يتحمل نتائجها .

وحتى من تتحقق أحلامهم ويصلون الى أهدافهم (اما فى هذه الحياة أو فى حياة أخرى فى المستقبل) قد يكون نجاحهم وتحقيق أمانيهم خيبة أمل كبرى وقد يجدون الحياة لعنة فالحاكم المطلق السلطان قد يعانى من سلطانه ألوانا من الحسرات العقلية وصاحب الملايين قد يكون أشقى فى حياته من المتسول الواقف ببابه ، وليس ذلك كل شيء ، فهنالك الذين دخلوا حلبة السباق فراحوا بين الدفع والجذب فسقط منهم من سقط صرعى من الجهد لم يؤذهم ما حل بهم من الأضرار التى لحقتهم بقدر ما يحز فى نفوسهم ألم الفشل .

لقد عرفنا رجلا أبغض الناس بغضاء ملكت عليه مشاعره فحاول أن يوقع بهم الضرر ما استطاع اليه سبيلا . وكانت النتيجة أنه أدخل نفسه فى نطاق قوة البغضاء المتفشية فى العالم فلم يمض عليه سوى وقت قصير حتى جلب على نفسه عداوة المئات من الناس وكراهيتهم له فأصابه من جراء ذلك الضرر ماديا ونفسانيا حتى شقى غاية الشقاء ، ومن بين الذين أراد أن يضرهم لم يستطع مع ذلك أن يوقع الضرر الا برجل واحد كان يعيش هو الآخر فى نطاق الكراهية وحب الأذى فجلب على نفسه الأذى .

ولكن الدرس كان نافعا لصاحبنا الأول فقد انفتح بصره على سخافة الكراهية وتنائجها فأقام عن الانسياق فيها ونجا بنفسه من العودة الى الوقوع فى حبائلها .

ان الذين يلعبون لعبة الكراهية يجب الا يغضبوا اذا أصابهم الضرر والذين يقعون فى حبائل الشره لا يلومون الا أنفسهم ان زاحمهم من هو أحذق منهم بأساليب الشره . ومن علق سعادته على شخص أو شيء لايعجب ان كان ذلك الشخص أو ذاك الشيء مصدر آلامه وسبب شقائه .

ورب سائل يقول : ولكن كيف أتحاشى هذه الأشياء اذا كنت أسير فى مناكب الحياة ؟

وتجيب فلسفة اليوجا : بأن هذا يكون بأن تقوم بدورك فى الحياة وتلقي بنفسك فى معركتها وأن تؤدى ماعليك من أعمال على أحسن وجه ولكن تكون فى ذلك كله حريصا على ألا تتعلق بثمرات الأعمال . اعمل للعمل لا للأجر اعمل راضيا منشرح الصدر باذلا كل جهد ولكن لاتكن طامعا فى شيء واعلم أن كل ما تعمل له من الدنيويات فان لاقيمة له اعمل راضيا — وقد بذلت غاية جهدك ان نجحت أو لم تنجح .

سنجعل شرح هذه الاجابة محور الحديث بقية هذا الدرس لنظهر أن هذه الاجابة وان بدت نصيحة غير عملية ولا ممكنة لأول

نظرة الا أنها فى الواقع ليست عملية فحسب بل هى سبيل الرشد فى الحياة دون غيرها للرجل المجد الذى فرض عليه أن يقوم بأهم الأعمال وانها الطريق الوحيدة التى تناسب رجال الغرب الذين يدأبون فى غير انقطاع ويعملون كما لو كانوا خالدين .

ولكن يجب أن نوجه النظر الى أننا نعلم أن قليلين جدا من البشر سيقبلون هذه التعاليم أما الغالبية العظمى فقد بهرتهم الحياة بأوضاعها الراهنة وفتنتهم ببهرجها فأخذوا أنفسهم بالجذب والدفع والتناحر والتسلق على جثث ضحاياهم من اخوتهم ضحايا هذا الصراع الدموى فى التجارة والصناعة مما يشغلهم عن تدبر أى أمر آخر فلا يزالون يأكلون بعضهم ويؤكلون يقتلون ويقتلون كارهين مكروهين وكل من يشترك فى دوامة هذا الصراع المرير يخضع نفسه لقانون العلة والمعلول — السبب والمسبب — فينالهم من ذلك القانون ما نصت عليه أحكامه واذا بهم يصرعون وهم يحسبون انهم بلغوا القوة التى تمكنهم من التحكم فى المصير .

أما القلة التى فيها الاستعداد لقبول هذه التعاليم فانها تفهم ما نعنى وتستطيع أن تقف جانبا بأرواحها ترى نفسها تشترك فى المعركة دون أن تتأثر بأطماعها وأحقادها ومؤامراتها . انها تحيا كما يحيا الناس — فى الظاهر — ولكنها تعلم من الحق مالا يعلم الجاهلون فلا تغرهم الدنيا ولا يعلقون بشباك شهواتها ومصايد شرها .

وكم سئلنا : ماذا تكون مصائر الأمور لو اتبع كل الناس هذه التعاليم ؟

ونحن نجيب بأنه لو حدث هـذا لانهار كل نظام الحيـاة الحديثة وحل محله شيء آخر خير منه لأقصى حد . ولكن هـذه الاجابة لا داعى لها فليس ثمة أى احتمال لأن يقبل الناس جميعا هذه التعاليم فى مستقبل قريب . صحيح أن عدد من يقبلونها فى تزايد كل يوم ولكنهم على أحسن الفروض لن يزيدوا على حفنة من هذا البحر الزاخر من الخلق .

ان أمام الجنس البشرى تجارب ومحنا وكفاحا ومحـاولات قبل أن يخطو الخطوة الأولى نحو هذا التحول ونحن لا نقول هذا آسفين ولكن نقوله بايمان العارف الموقن بأن الألم والكفاح لابد منهما لتقدم الجنس .

ونحن اذ نذكر هذه التعاليم لانقصد تعاليمنا نحن هذه بالذات ولكننا نعنى جميع أنواع هذه التعاليم التى يقوم بالدعـوة اليها مئات المعلمين الراشدين فى هذا العصر .

من أول الأشياء التى يجب أن يتعلمها تابع الكارما يوجا أنه جزء من الحياة الكبرى ووحدة من وحداتها له مكانه فيها وله عمله الذى عليه أن يعمله ولكن مهما بلغت أهمية وضعه وعمله فما هو الا جزء من الكل خاضع لما يمليه عليه نظام ذلك الكل وما تفرضه

عليه قوانينه . ومهما بلغ من الضعة وتفاهة الشأن فانه أيضا جزء من نفس الكل له عمله وعليه عبء لامفر من حمله . ليس فى الحياة تافه وليس لأهم الأشياء مايجعله فوق قانون الحياة . علينا جميعا أن نقوم بدورنا وأن نقوم به على أحسن وجه لا لأننا بذلك نحقق نمونا ونضجنا ولكن لأن مدبر الكون أعدنا لغرض وغاية ويجب علينا أن نعمل لتحقيق هذا الغرض والوصول الى تلك الغـاية لا على أننا آلات ليس لها عقل ولا ارادة ولكن لان غاية الحياة ومصلحتنا تتفقان فاذا آمنا بذلك وجدنا أن عملنا لايسبب لنا حزنا ولا ألما . اننا نشعر بصعوبة ايضاح مانقصد ولكننا نأمل أن يزداد الوضوح كلما تقدمنا فى الحديث .

ان غاية حياتنا ليست فقط أن تتقدم وتنمو أنفسنا وحـدها ولكن نحن نؤثر فى الغير ويؤثر الغير فينا وهذا التبادل والتفاعل يساعد المجموع على التقدم والارتقاء ؛ قد يبدو جـزء من عملنا بلا هدف ولا أثر فى تقدمنا ولكن لنعلم أن هذا الجزء ضرورى لناحية أخرى من نواحى الحياة الكلية وعلينا ، وان لم نفهم السر، أن نقوم بالعمل .

ان كل حركة وكل سكنة لحكمة كنقل قطعة من قطع لعبـة الشطرنج بيد الخبير فيها ربما بدا بغير معنى ولغير غاية ولكن عندما يتقدم الشوط تظهر حكمة هذا النقل ويتضح انه كان أساسا

لشيء خطير كذلك يخضع اليوجى لاملاء الروح وتوجيهه بغير اعتراض ولا ضجر عالما أن الخير فيما اختار الله وأن ماكلف بعمله سيكون له أثره فيما يحيط به وفيما يفعل غيره من الخلق .

أما الذين لم يؤتوا شيئا من العلم بحقائق الحياة وأسرارها — أسرار اللعبة — فانهم يعترضون على مالا يفقهون ، ويقاومون مايسير على غير هواهم ؛ فينالهم من المقاومة وما ينجم عنها من احتكاك شر وألم . بينما من أوتوا العلم والحكمة يرون ماخفى ؛ وتشرق عليهم ابتسامة الرضى ، يسلمون فلا يصيبهم ما أصاب غيرهم وربما نالوا خيرا لم يطمعوا فيه ولا هم به اذ أتاهم فرحون لقد علموا أن اليد التى تحرك كل شيء تعمل لحكمة وغاية فأسلموا لها زمام أنفسهم وباتوا ناعمين رضوا عنها ورضيت عنهم .

ليس هذا مجرد حلم فلسفى رفيع . ولعل الكثيرين يدهشهم أن يعلموا أن من زعماء الناس فى كل درب من دروب الحياة من يشعرون بهذه القوة الخفية التى توجههم فأسلموا قيادهم لها ونذكر تأييدا لهذا القول ان رجلا بارزا يعرف العالم كله اسمه ويتحدث عنه كرائد من كبار أهل الحل والعقد ولا علم له بتعاليم الشرق هذه (أو لم يكن له بها علم وقت الحادث الذى نروى خبره) الا أنه أفضى بحديثه الى صديق نقله بدوره الينا قال :

« ينسب الناس الى القدرة على احكام التدبير ورسم الخطط

البعيدة المدى . وهذا وهم . فانى فى الواقع لا أرسم خططا تزيد على الخطوة التالية التى يجب أن أتخذها ولكن يبـدو أن كل الخطوات معروفة مختزنة فى ناحية من نواحى عقلى . اننى أشعر كأننى جندى فى لعبة الشطرنج تحركنى قوة تهدف الى استخدامى فى تغييرات كبيرة فى مصائر الناس وشئون الحياة ولو أننى أجهل كل شىء عن هذه التغييرات . أنا لا أشعر بأننى مختار العناية لشىء أمتاز به على غيرى لأننى — ولست أريد أن أتهم بالتواضع — لا أستحق أى تقدير لشىء أمتاز به على الغير فلا أنا أنضج عقلا ولا أنا أطيب خلقا من أترابى .

اننى أشعر أحيانا — لغير سبب — أن ما أقوم به من عمل انما هو لصالح قوم أو لصالح البشرية عامة وان بدا ذلك العمل كأنه شر أريد بمن فى الأرض .

اننى لا أجد فى قلبى حبا للمال الذى أجمعه وان بذلت وسعى فى جمعه . وكلما أتممت عمل شىء شعرت برغبة فى اطراحه عنى كأنه لعبة بالية . أنا لا أدرك مما يدور حولى شيئا وان كنت واثقا أنه لحكمة . قد تساورنى فكرة أننى سأفقد كل ما أملك ولكننى أحس أن ذلك ان حدث فاننى سأعوض عما أفقد خيرا منه . لقد استولى على هذا الشعور منذ أول حياتى وقد درجت على أن أسلم قيادى لهذه القوة الخفية وكل مرة حاولت فيها التمرد والعصيان أصابنى

ضرر بشكل أو آخر وكل مرة استسلمت فيها كان النجاح حليفى

انني أضحك من رأى الناس فى وتقديرهم لأعمالى وأنا أؤمن بأننى لست الا آلة فى يد لا أراهـا ولا أظن أن لنفسى الحق — لميزة أمتاز بها — فى أن تخصنى تلك اليد بحبها » .

هذا الرجل — كما يبدو من الوصف — وقع بدون وعى ولا قصد على سر من أسرار الكارما يوجا ، سر العمل . انه لايهتم بنتائج عمله ولو أنه يهتم بعمله غاية الاهتمام ، ولا تهمه ثمرات سعيه وكفاحه وان كان الذين يعرفونه لايدركون ذلك السر فيه . انه أدرك أنه قطعة من قطع الآلة الضخمة ويقوم بعمله منسجما فيها راغبا راضيا .

وكثير مما يعمله — ولو فى الظاهر — (فكثير مما يتم على يديه نتيجة أعمال الآخرين ممن يعملون معه أو ضـده وتؤدى أعمالهم فى مجموعها الى انجاح عمله) — كثير مما يعمله يجر فى أعقابه آثارا قاسية على الانسانية وان كان المراقبون العارفون يرون أنه هو وأمثاله يمهدون الطريق أمام التغيرات الكبرى التى تنتظر الانسانية والتى ترتكز على نمو روح الأخاء فى البشر .

نحن لانقدم هذا الرجل كأنموذج للكارما يوجى ، فهو ليس كذلك ، لأنه يقوم بدوره دون وعى ولا ادراك بينما الكارمايوجى الحقيقى يعى تمام الوعى مايعمل والى ماذا يهدف انما ذكرناه

تأييدا لقولنا ان من الناس كثيرين يعملون بتعاليم الكارما يوجاوان كثيرين فى مختلف دروب الحياة يتبعون مبدأ أو آخر من مبادئها فتجد بعضهم يتحدثون عن النظر للحياة نظرة فلسفية ، يريدون بذلك انهم لا يتعلقون بمفاتن الحياة كل التعلق حتى لاتستغرق كل اهتمامهم أو أنهم يعملون حبا فى العمل ورغبة فيه لا فى أجره — حبا فى الحياة لا فيما فيها من أشياء باذلين كل جهد خالين من كل حقد لايؤسفهم فوت الفرص وضياعها انهم يساهمون فى اللعبة كرياضة أما الجوائز والمكافأة التى تمنح للفوز فى اللعبة فلا تهمهم ، انهم يتركونها للبادئين فيها — للأطفال — أما هم فقد شبوا عن الطوق .

ان هؤلاء الراسخين لاتغريهم زخارف الدنيا من شهرة أو جاه أو سلطان فانهم عرفوها وعرفوا أنها زبد يذهب جفاء فتركوها لمن يغريهم زيفها وجمالها الزائل احتقارا لشأنها . قد تعلق على صدورهم الأوسمة ولكن لا مكان لها فى قلوبهم ان المتنافسين من حول أحدهم يحسبونه واحدا منهم يخالون شأنه شأنهم ولكنه يعلم وهم لا يعلمون .

ان سر العمل — عدم التعلق — هو مفتاح كارما يوجا . ليس معنى عدم التعلق أن يتجرد الطالب من كل المسرات . على العكس انها تعلم ان هذا السر اذا اتبع بأمانة يجعل الانسان يحسن التمتع

بكل شيء . انه بدل أن يفقده لذة التمتع بالشيء وبهجته يضاعفها ألف ضعف . ويكمن الفرق فى أن الرجل العادى يحسب أن سعادته تتوقف على أشخاص أو أشياء بذاتها بينما الرجل المتحرر يعلم أن سعادته تنبع من داخل كيانه — من ذات نفسه — لا من أى شيء خارج عنه ولذلك فانه قادر على أن يحيل الأشياء والظروف التى تسبب العناء والألم لغيره الى مصادر للسعادة والرضى .

مادام الانسان يربط سعادته بشخص أوشيء لايجد عنه بديلا فانه عبد لذلك الانسان أو الشيء . فاذا وجد لنفسه فكاكا من سلطان هذه الرابطة وأصبح سيد نفسه ، يجد فى قرارتها ينبوعا للسعادة لا يغيض — ليس معنى ذلك أن يكف عن حب الناس . بالعكس انه يجزل لهم الحب خاليا من المصلحة الشخصية والأنانية — ولكن لندع هـذا الحديث الى مقام آخـر فنوفيه حقه من البحث .

تبدو كارما يوجا هذه للرجل العادى المتعلق بمتع الحياة سخفا أو هراء تأتى فى أعقابه نتيجة محتومة هى الفشـل أو الفتور فى العمل وهذا خطأ مبين .

من الذى يؤدى عمله على خير وجه سواء فى المتجر أو المكتب أو المصنع — الرجل الذى يعمل لمجرد الحصول على الأجر يرقب عقارب الساعة حتى لايزيد وقت عمله دقيقة واحـدة عن الوقت

المفروض عليه أم الرجل الذى يعمل — مع علمه بأنه يعمل ليعيش من أجر عمله — ولكنه ينصرف الى عمله بكل جوارحه ويبذل فيه كل همه وانتباهه ، لا يخطر على باله أنه يعمل لقاء أجر حسبه أن يوازى عمـــله قيمة أجره هذا ولكنه يعمل ويعمل حتى لينسى مواعيد راحته وأوقات انصرافه لاستغراقه فى عمله ، فتمر تلك المواعيد وهو منكب على العمل ؟ . ان خير ما أنتج فى العـــالم أنتجه الرجال الذين حصروا فكرهم فى عملهم لا أولئك الذين يجعلون الأجر نصب أعينهم وهم يعملون .

ان الموهبة التى تدفع الفنان الى انتاج صورة خالدة أو تدفع الكاتب لوضع كتاب قيم أو الموسيقى لأن يبتكر لحنا رائعا ، تلك الموهبة هى التى تجعل الرجل ينجح فى أى عمل يتولاه انها موهبة العمل للعمل الذى يجد العامل فى أدائه لذة ورضى عن نفسه لأنه أنتجه . هذا هو العمل الذى أنتج روائع العالم ومعجزاته .

يبدو للكثيرين أن الصوفى الزاهد صاحب خيالات لايصلح لأعمال الحياة ، مجرد حالم ينسج أوهاما من خيوط الخمول . ولكن الذين نفذ بصرهم من السطحيات الى لب الحقائق يتبين لهم أن الصوفى العامل رجل يركن اليه فى كل فرع من فروع الحياة . ان مجرد زهده وعدم تعلقه يعطيه قوة يفتقر اليها الرجل العادى . الصوفى لايخاف فهو جسور مقدام لعلمه أن نجاحه وســعادته

لا تتوقف على ملابسات بذاتها . وهو واثق دائما بأنه سيخرج من أية ظروف أو محنة أو شدة آمنا سالما . انه يشعر بأنه يرتكز على صخرة ثابتة وان قوة سر الكون تظاهره وتشد أزره . وهذا الشعور يكسبه قوة وشجاعة يفتقر اليهما الرجل الذى يحسب أن سعادته تتوقف على نجاحه فى عمل أو شىء ان نجح فيه كسب كل شىء وان فشل كانت فى الفشل نهايته .

ان الصوفى يلقى نفسه فى تيار الحياة مندفعا به ومعه ، نشوان باحساسه انه جزء من الحياة لايخشى على نفســه من زحمتها وتطاحنها لانها منه وهو منها فلا يخشى أذاها . انه ينتقل فيها من جو الى جو ، ومن وسط الى وسط راضيا مطمئنا لأنه يعلم أن القوة التى تسير هذا الكون كله تسانده وتشد أزره فيعمل بكل قواه لأنه لايدخر وسعا ولا يحتفظ بشىء من طاقته لاتقاء شر أو دفع مكروه ولذلك يكون انتاجه أعظم من انتــاج غيره (ممن يعملون وهم يتلفتون يمنة ويسرة يوجسون خيفة مما حولهم فلا يبذلون فى العمل الا بعض طاقتهم أما سائرها فموزع مشتت يوزعه الشك ويشتته الخوف أو البغضاء والحقد) .

ان انتاجه أعظم الانتاج أما نتيجة العمل — أما الأجر والمكافأة فأمر لايعنيه كثيرا انه يستطيع أن ينصرف الى أى عمل آخر باذلا فيه ، كعهده ، كل جهد . انه يعمل فقط أما نوع العمل فلا يربطه به رابط من منفعة أو كسب .

والعامل من هذا الطراز لابد وأن يدر عليه عمله مايكفيه حقا مكتسبا له . ان من أتقنوا كارما يوجا وسيطروا على مبادئها بالرغم من اعراضهم عن زخرف الدنيا ومظاهرها يعيشون فى سعة من الرزق تسد حاجتهم وتكفل راحتهم وطبيعى أن القليل يسد الحاجة ويكفل الراحة لهؤلاء الناس لأن ذوقهم بسيط يرضون بالقليل الجيد . انهم يجذبون اليهم رزقهم فيأتيهم طوعا كما تجذب الشجرة مادة حياتها من الأرض والماء والهواء .

انهم لا يجرون وراء السعادة ولا يهتمون بالرزق ومع ذلك فالسعادة تأتيهم والرزق ملء أيديهم بغير سؤال . ان الذين تخلصوا من حبائل الدنيا وأصبحوا بمنجاة من مطامعها يجدون من السعادة فى أبسط أنواع العيش مالا يجده الرجل المتعلق بأذيال الدنيا حتى فى لحظات نجاحه وتحقيق أمانيه .

كل شيء يطلبه الانسان وهو يعتقد أنه سيكون مصدر سعادته يجد فيه الانسان عند الحصول عليه نواة الألم أما اذا لم يربط الانسان سعادته بالأشياء وعرف أنها مجرد ضرورات عارية تمضى أو تسترد عند ذلك تفقد الأشياء ما يكمن فيها من أسباب الألم — ألم فقدها أو عدم العثور على السعادة المنشودة من ورائها .

ان الرجل الذى يسعى وراء الصيت والشهرة على أن فيها سعادته المنشودة يجد يوم يصبح مشهورا ذائع الصيت فى هذه

الشهرة من الأعباء والمضايقات ما ينغص عليه سعادته ويفسد فرحه بنيل أمنيته ، أما الرجل الذى يعمل ويجد حبا فى العمل والجد فاته ان جاءته الشهرة نتيجة لعمله ومجهوده ، يتلقاها راضيا كما يتلقى رزقا ساقه العمل اليه ، فيسعد بها سعادة لا يشوبها شائبة .

كثير من الأشياء التى يوقف الناس على الظفر بها حياتهم ، تجلب معها الألم أكثر مما تجلب من الراحة والسعادة ، ذلك لأن الناس لا يعنون بالأشياء لذاتها انما يعنون بها ظنا أن فيها سعادتهم .

فى اللحظة التى يربط الانسان الحصول فيها على السعادة بشىء أو شخص ، يفتح الانسان على نفسه باب الألم والشقاء فما من شىء أو شخص يمكن أن يشبع جوع النفس ويروى عطشها ولذلك فان خيبة الأمل التى لابد وأن تصيب الانسان من ذلك الشىء أو الشخص تملأ نفسه أسى ولوعة بدل أن تملأها السعادة التى علل نفسه بها .

حتى الحب ، ذلك الشعور النبيل مصدر ألم للمتعلق بالأشياء . فلسفة اليوجا تنادى بالحب وتدعو الى الحب والى المزيد من الحب بغير حد ولكنها تعلمنا أن الحب اذا كان أنانيا جلب فى أعقـابه الشقاء والألم . اننا عندما نقول اننا نحب شخصا انما نقصد أننا نريد أن يحبنا ذلك الشخص . فاذا بخل علينا بحبه أصبحنا تعساء لأننا لم ننل حبه الذى تمنيناه .

الحب الصحيح ليس من هذا القبيل ، ان لذته فى سعادة المحبوب لا فى كسب السعادة منه . الحب الصحيح الذى لا أنانية فيه يفيض نحو المحبوب منطلقا لا يبغى عوضا ولا يسأل ردا ولا ثمنا ، انه بدون مقابل ، الحب الصحيح منح وعطاء . أما الحب الأنانى فانه طلب والحاف فى الطلب ، انه سؤال لا ينقطع ولسان حاله يقول (اعطنى ، هبنى ، امنحنى) . الحب الصحيح ينبعث من المحب كأشعة الشمس تغمر المحبوب ولا تعود منه بشىء للمحب ، أما الحب الأنانى فانه يجذب اليه كما تجذب الدوامة الأشياء .

اذا أحب الانسان حبا أنانيا فان سعادته تتلاشى يوم يتحول عنه محبوبه ، فهو يسعد ما دام ذلك المحبوب راضيا عنه يمن عليه بحبه . انه مستعبد رق لتقلبات محبوبه وأهوائه ، انه معلق بارادة محبوبه معرض لآلام الاهمال والهجران اذا تبدل الحال . وفى معظم الأحيان يناله الألم لأن الحب لابد وأن ينتهى يوما — بسبب أو آخر — وفى نهاية الحب لمن بنى سعادته عليه التعاسة والألم .

أما حب الصوفى غير المتعلق فهو شىء آخر غير الحب الأنانى انه هو الحب الأعظم انه الحب المجرد الذى لا مقابل له ولا ثمن انه الحب الذى لا غاية له ، ان صاحبه يسعد به سعادة دائمة لا يعكرها الجحود أو عدم المبادلة حبا بحب ، انه الحب الحقيقى وليس ذلك الشعور الأنانى الذى يحسبه الناس حبا وهو تزييف خسيس له .

يقول ادوارد كاربنتر الشاعر الانجليزى عن الحب :

« ان من يحب المخلوق الفانى وينتهى حبه هناك لم يعد حرا بعد . لقد وهب نفسه للموت .

ان شبح الموت الأسود البغيض يكمن له فى كل منعطف معكرا صفاء الكون ومع ذلك فان من يحب لابد وأن يحب المخلوق الفانى ومن يريد أن يحب حبا حقيقيا يجب أن يحتفظ بحريته .

ان الحب رغم عظمته مرض ما دام يدمر حرية النفس أو حتى يمسها بسوء .

لذلك اذا أردت أن تحب فجنب نفسك الحب .

اتخذ منه عبدا لك تجد معجزات الطبيعة كلها فى قبضة يدك .

ثم يقول :

لا تجعل غاية الحب هذا العمل أو ذاك والا كانت فيه نهاية الحب .

ولكن ابحث عن هذا العمل أو ذاك العمل أو ألف عمل ينتهى كل منها بالحب .

بذلك تصل أخيرا الى خالق ذلك الذى تشتهيه الآن .

فاذا انتهى كل هذا وذهب كل شىء بقى ملكا لك شىء خالد عظيم لا يستطيع رجل أن يسلبك اياه » .

فى أول درس من هذه الدراسة أشرنا الى القاعدة الأولى من الجزء الأول من الكتاب (اقتل الطمع) وأشرنا الى القاعدة الرابعة من نفس الجزء (اعمل كما يعمل الطامعون) .

ان هذا القول الذى يشبه الألغاز فيه مفتاح العمل مع عـدم التعلق به . لقد حاولنا فى ذلك الدرس أن نظهر للقارىء جانبى الدرع وأن نفسر له كيف يقتل الرجل الطمع ومع ذلك يعمل كما يعمل الطامعون . اننا ننصح القارىء أن يعيد قراءة ذلك الدرس عندما يفرغ من الدرس الحاضر .

ان الفكرة الأساسية فى عدم التعلق — سر العمل — هى أن تتجنب الوقوع فى شرك الأشياء غير الحقيقية فى الحياة . الأضاليل والخدع التى تغرر بالكثيرين — متاع الغرور .

ان الناس عرضة لأن يربطوا أنفسهم بالأشياء التى يخلقونها بأنفسهم أو بالأشياء التى يعملون للحصول عليها . انهم يجعلون من أنفسهم عبيدا لها بعد أن كانوا لها سادة انهم يتعلقون برغبـات معينة فتجرهم هذه الرغبات الى شتى السبل ، تمر بهم فوق الدمن وفوق الصخر ووعر الطرق ، لتتركهم آخر الأمر خائرى القوى عاجزين مضعضعين .

هذه الرغبات تأتى من الجزء غير الناضج من العقل ومع أنها تكون سليمة لا لوم عليها ولا تثريب فى محلها الا أن محلها هذا

هو أيام كان الانسان يقطع مرحلة بدائية قبل وصوله الى مستواه الحاضر انها تتعلق بالماضى الذى انتهى منه الانسان وتركه منذ أيام طفولته الروحية .

ان الانسان يجب ألا يخاف من هذه الرغبات اذا ساورته فانه يعلم أنها جزء من كيانه . انه يعرف تاريخها وأصلها والدور الذى لعبته فى نموه وتطوره ، وقد كان دورا ضروريا فى حينه ، وكان لابد من أدائه ، ولكنه اجتاز تلك المرحلة وانتهى الوقت الذى كان ذلك الدور فيه شيئا طبيعيا صوابا ، فليس له الآن أن يجعل هذه الرغبات تستولى عليه وتقيده ، يجب أن يأبى أن يقع فى شباكها ، يقول كاربنتر :

« فى تؤدة وحزم ، كما تنتزع الذبابة أرجلها من العسل الذى وقعت فيه .

كذلك — ولو مرة واحدة امح كل ذرة تكدر صفاء عقلك .

أرجع الى داخل نفسك . راضيا بأن تعطى ولكن غير سائل أحدا وغير سائل شيئا وفى نور جلاله الهادىء الذى يملأ الكون . نور الحى الذى لا يموت الى الابد اسكن ما استطعت أن تسكن — راضيا .

ويقول الشاعر أيضا عن الرغبة :

اذا حملت رياح الهوى الجسد ، كما لابد أن يحدث حتما ، فلا تقل (أنا) أرغب هذا وأرغب ذاك .

لأن (الانا) لا يرغب شيئا ولا يرهبه ولكنه حر وفىّ مجدد دائم مقره السماء يبعث أشعة البشر كالشمس فى كل جانب .

لاتدع أى اضطراب يهبط بذلك الشىء الجوهرى الى عالم المتناقضات والموت والآلام فيعلق بشركها .

فكما أن الشعاع ينطلق من المنارة بسرعة هائلة فوق البر والبحر ومع ذلك لا يتحرك المصباح .

كذلك بينما جسدك تحركه الرغبات بغير انقطاع وهو لابد فاعل بحكم الطبيعة فى عالم الآلام ، يبقى ال (أنا) ثابتا محلقا فى السماء .

لذلك أقول لك لاتدع أى اضطراب يستولى على عقلك فى هذا الأمر .

ولكن اذا قرعت الرغبة بابك .

فمع أنك تسمح لها بالدخول وتغدق عليها الكرم قياما بالواجب .

أقم حولها سياجا يفصل بينها وبين نفسك الحقيقية .

والا مزقتك وقطعتك . »

يرى الكارما يوجى الحياة والعمل على حقيقتهما ، لاينخدع بأخطاء الناس فى هذه الشئون ، فهو يرى أن اعتبار العمل لعنة صبت على الجنس البشرى سخف اذ يجد أن العمل نعمة اختص بها الجنس البشرى ، فيه منافع وفيه السعادة أن قام به الانسان على الوجه الصحيح الذى أوضحناه . وفيه يسلو الهم ان حزبت الأمور ، وبه ينصرف عن ايحاءات جميع الغرائز الدنيا . ويساعد على مواجهة المشاكل التى لاتنقطع .

من الطبيعى أن يعمل الانسان حتى تظهر قوة الايداع والخلق التى يظهر بها المبدع الخالق قدرته عن طريق الانسان . أن العمل سبيل التطور .

اذا تراجعت نفسك مشمئزة من مظاهر غرور العالم المحيطة بها ومن تفاهة أهداف الناس وقيمها الجوفاء الفارغة — ومن شره ومن ضراوته وقسوته ومن ظلمه ومن عمى بصره وبصيرته وسئمت التمثيلية التى تدور فصولها وتقوم بها الدمى فى كل مكان ولكن لا يبصرها الا ذوو البصيرة وأولو الألباب ، اذا اشمأزت نفسك من هذا كله ، فاخل بنفسك وغص فى أعماقها حيث السكون والصمت فى تلك الأعماق . لا تيأس ولا تفكر فى اعتزال العالم ولا تذرف الدمع السخين أسى وحزنا واذكر أن عليك عملا لا يحسن أداءه أحد غيرك ، وان لحياتك غاية وان لها لحكمة . فاذا هدأت

ثورتك واستجمعت قوتك فعد الى المعركة وخضها فى ايمان وحزم وأد عملك كأحسن ما يكون الأداء وقم بواجبك خير قيام فان فى ذلك ذكاء نفسك وارتقاءها على سلم التطور لا تطورك وحدك ولكن تطور الجنس البشرى كله .

لا تحزن لما وجدت من تفاهة وشر فكل شىء لحكمة ولكن شيئا واحدا يجب أن تحذره ذلك أن تتعلق بثمار عملك وأن تطمع فى الثواب عليه . احفظ عينيك صافيتين وعقلك غير محجوب بالغيوم .

لا تحسب أنك تستطيع أن تتجنب المعركة ولكن اهتد بهدى (ضوء على الطريق) فى قوله (ومع أنك تحارب فلا تكن المحارب) .

ان كانت (الكارما) قد وضعتك فى صميم المعركة فخضها فان ذلك سبيلك الوحيد للتغلب على ما يسبب لك الهم ويزعجك فانك لن تستطيع الهرب من السبيل الذى أعد لك يجب أن تأتى عليه وأن تصل الى نهايته فتؤجر ويجزل لك فى الأجر .

لقد أوضح هذا الأمر غاية الوضوح فى السنسكريتية شعرا فى (البهاجا فادجيتا) (Bhagavad Gita) حين يشكو الأمير أرجوانا من اضطراره للقتال فى معركة الحياة ويضرع الى كريشنا (اسم من أسماء الالهة الهندية) أن يعفيه من عبء ذلك الواجب وحين يوضح كريشنا له كنه هذا الواجب ويأمره بالقيام به وقد

أجاد أودين أرنولد الشاعر الانجليزى ترجمة هـذه القصيدة بالانجليزية شعرا — يقول كريشنا لارجونا :

« لا مهرب لانسان من العمل بالتخلى عن العمل
ولن يبلغ الانسان الكمال بالاعتزال
فليس فى الزمان لحظة فى أى وقت يتعطل فيها شىء عن الحركة
فالطبيعة فى قانونها ، ولو أبينا ، الارغام على العمل
حتى التفكير — نوع من عسل الخيال

فالرجل الذى يقعد وقد كف عن كل نشاط لأعضاء جسده ثم يفكر فى ذلك النشاط يرتكب جريمة الرياء الممقوت .

أما الرجل الذى يبذل قصارى جهده فى أداء عمـله ويسخر جسده لتنفيذ أفكاره وهو مع بذل ذلك المجهود لا يطمع فى الأجر والربـح .

ذلك الرجل — أى أرجونا — رجل شريف
فقم بواجبك المقدور فالعمل أحسن من الجنوح للكسل
فلا حياة للجسد بغير السعى والعمل

ان هناك واجبا مقدسا تقوم به ذلك هو العمل اذا لم تتعلق به النفس

انه يختلف عن العمل الذى يشوبه التعلق بالدنيا . انه لا يقيد

النفس المطمئنــة فقم بذلك الواجب الدنيــوى لا تبغ أجــرا ولا شكورا .

تقم بخير عمل تتقبله السماء » .

ولسنا نجد ما نختم به درسنا هذا خيرا من كلمات هذا الشاعر التى نقل بها الى الانجليزية تلك القطعة الخالدة التى منها قوله :

« أبدا .. لم تولد النفس أبدا ، ولن يأتى عليها وقت فيه تزول

لم يخل الزمان من وجودها فالبدء والنهاية أضغاث أحلام

لم تولد ولن تموت ولن تتغير انها باقية للأبد

لم يمسها الموت بيده وان لاح الموت بموت الجسد ، بيتها الجسد » .

اذا استطعت ادراك روح هذه الكلمات وجعلتها جــزءا من وعيك فانك بغير حاجة الى المزيد من ايضاح (كارما يوجا) انك عندئذ تحيا حياة صحيحة وتدرك الأشياء ادراكا سليما لا تنخدع بمظهرها الذى يبــدو من وراء حجب الوهم انك تدرك نفسك وتعرفها فان تم لك ذلك وضح لك كل شىء .

ألا فلتكن هذه الكلمات وهذه الأفكار لك مصدر السلام .

الدرس السادس

جنـــانى يوجا

جنانى يوجا هى (يوجا الحكمة) فكلمة جنانى مشتقة من الأصل السنسكريتى (جنا) ومعناه (يعرف) ونحن نفضل كلمة جنانى على الكلمات الأخرى المستعملة مثل (جنانا) و (جنيانا) وغيرها لاداء نفس المعنى .

جنانى يوجا هى الطريق الذى يفضله أصحاب الاتجاه العقلى من الطلاب والفلاسفة رجالا ونساء . أولئك الذين يستهويهم أعمال الفكر والتعليل والبحث العقلى الرفيع (الميتافيزيقى) الذى يقره العلم لأن هذا الطريق يسير بهم بين معالم يحبونها وفى جو يشبع رغباتهم ويرضيهم .

ولكن ليس معنى هذا أن جنانى يوجـا وقف على المشتغلين بالبحث من الميتافيزيقيين والطلاب المتعمقين فى العلم دون غيرهم ، انها فى متناول كل من يريد معـرفة أسرار الحياة — أسـبابها وهدفها — أولئـك الذين لا يقنعون بما تقـدمه عامة المذاهب والديانات عادة من شرح وتعليل فطير ساذج لمشكلات الحيـاة

العويصة أولئك الذين يرون فى ظاهر التعاليم الدينيـــة ما يحقق الأغراض التى وضـــعت لها ولكنهم لا يكتفون بظاهر الشرائع ، لا يقنعون الا بادراك ما أضمرته تلك التعاليم وأخفته وراء ذلك الظاهر ضنا به على غير أهله وصونا له ممن لم يبلغوا مبلغ ادراكه انهم يريدون ما عند أهل الباطن من أسرار .

الكارما يوجى دائما يتساءل (كيف ؟ ومااذا ؟) .

أما سؤال الجنانا يوجى فهو دائما (لماذا ؟) .

(لماذا ؟) هذا السؤال يتفشى ويزداد كل يوم تفشيا فى عقول الناس لقد أقض مضاجع الكثيرين ذلك التعطش للمعرفة الصحيحة الروحية فانطلقوا يبحثون عما يروى ذلك العطش . ان جوع الروح يطلب للروح غذاء فيه غناء لا قشورا لا تسمن ولا تغنى من جوع .

لقد بدأ الناس يرون زيف الماديات التى تملأ الدنيـــا حولهم مهما بلغت تلك الماديات من خطر وقدر موهوم . رأوا مدنية تقوم على أنقاض مدنية ، وشعوبا تنهض وترتفع ثم تضمحل وتعود الى الحضيض من جديد . وكم من آثار دفينة تحت أطباق الثرى تنم عن مدنيات رفيعة لا يذكر التاريخ عنها شيئا ولا يروى لها خبرا . ويأخذ الانسان العجب والدهش حين يغوص خياله فى قديم الزمن ليصل الى أصحاب تلك المدنيات ويتخيلهم يملؤهم غرور الاعتقاد بأنهم بلغوا قمة المجد البشرى وانه لم يبق لمن يأتى بعدهم شىء

لم يعرفوه هم ثم راحوا لم يتركوا لمن جاء بعدهم خبرا أو ذكرا يتحدث به التاريخ ، وراح ساستهم وأبطالهـم وعلماؤهم الذين أرسوا دعائم مدنيتهم حتى ان الشعوب أصحاب تلك المدنية نفسها لا يعرف لها اسم ، كل ما يدل على وجودهم بقية تمثال هنا أو قطعة من عمود هناك . والناس اليوم يرون أن هذا المصير قد يدركهم ويدرك مدنيتهم وشعوبهم فيمضى كل شىء ويعفى الزمن على كل شىء ويأتى أقوام بمدنيات فى مكاننا وعلى أنقاض مدنياتنا التى تتيه بها كبرا وعجبا فيتساءلون عنا . من كنا ؟ وماذا كانت مدنيتنا وكيف كانت ؟ .

لقد نشأت ديانات وازدهرت آمن بها الملايين يخضعون لها وتتحكم فيهم الى أن هوت تحت ثقل الخرافات وعبء الطقوس التى يأبى الانسان الا أن يشيدها فوق شعلة الحقيقة فيندفن ذلك الضياء الذى نشأت تلك الديانات على هداه ونوره تحت الانقاض هكذا كان الحال وهكذا سيكون . اننا نشك وكذلك كان أصحاب تلك الديانات يشكون ونظن — كما كانوا يظنون — أن ما نحن فيه خالد لا يزول ولكن لا مفر فان الانسان فان وما يعمله الانسان فان مثله ولابد للفانى أن يزول [١] .

---

(١) تتخلف الآثار بعد بناتها حينا ويدركها الفناء فتتبع
(المتنبى) (المترجم)

يفتح الانسان عينيه فيرى . يرى أن الحيــاة حوله الى زوال فيفكر فى أمره وأمر ما حوله فيسأل نفسه من أين أتيت ؟! ؟ والى أين أمضى ؟! وما حكمة وجودى ! ويحاول أن يجد لهذه الأسئلة جوابا وأن يجد لهذه الأحجية — أحجية الحياة — حلا وتفسيرا واذا بين يديه أجــوبة وحلول بلا عدد أنه يرى فيما تســلمه من الأجيال من عقائد فسادا فيلقيه ليجعل مكانها عقيدة جديدة هى الأخرى تحمل فى وريديها فناها .

ويدور الانسان وراء الحقيقة واذا به فى دورانه ينتهى حيث بدأ كالطائر فى القفص يضرب قضبانه برأسه وجناحيه وهو يظن بين كل قضيبين مخرجا لا وجود له حتى يموت وهو بعد فى قفصه حين يلفظ النفس الأخير .

يحاول الانسان أن يجد تفسيرا للأشياء فاذا به لا يأتى بتفسير جديد للشىء انما هو يأتى له باسم جديد . انه يتسلق الجبل ليصل الى قمته التى يراها أمامه ولا يرى بعدها شيئا حتى اذا ما انتهى الى تلك القمة وجد أنها ليست سوى نهاية مرتفع صغير على سفح الجبل وان أمامه قمة أخرى يحسبها القمة الحقيقية فيشد الرحال اليها فاذا بلغها وجدها كسابقتها ووجد من ورائها قمما تختفى فى السحــاب .

ان خطأ الباحث عن الحقيقة أنه يبحث عنها دائمـا حوله فلا

يجدها لسبب بسيط هو أنها فى داخـله . الحق ان نور البصيرة الداخلى يجد الانسان على ضوئه حقيقة الأشياء التى حوله ولكن بغير هذا النور لا يمكن أن يدرك حقيقة تلك الأشياء وكيف يمكن أن تظهر الحقائق فى الظلام ؟ انها تبدو أشباحا بين الحقيقة وبينها أمد بعيد .

ان الباحث فى الأشياء من حوله على المستوى المادى يجد أثناء بحثه ما يتخيله أنه الحقيقة التى ينقب عنها لأن فيما يخيل له وما يتصور وجوده تبعا لعقليته جزءا من الحقيقة لا الحقيقة كلهـا وتتعدد الصور التى يتخيلها الباحثون ويؤمن كل بأن ما وجده هو الصحيح وأن ما يدعيه الآخرون كذب وافتراء ، وهكذا تختلف العقائد لاختلاف الصور التى وضعها الباحثون أساسا لمعتقداتهم وتنشأ بين العقائد وأصحابها الخلافات وينتصر كل فريق لرأيه وعقيدته ويختلف أصحاب العقيدة الواحدة فيما بينهم على التأويل وتنشأ المذاهب فى الدين الواحد يتناحر أصحابها وطالب الحقيقة يزداد حيرة ويزداد تشككا فى كل شيء ويعود الى التساؤل من جديد

ولا يحسبن أحـد أننا نريد مذاهب الغرب ودياناته بهـذا الحديث عن البلبلة والشك والاختلاف فالأمر فى الشرق لا يقل عنه فى الغرب سوءا . ففى الهند مذاهب ونحل وطرق بلا عدد بدأ كل منها على قبس أو قطعة من الحقيقة . ولكن تراكمت على ذلك

القبس أو تلك القطعة ترهات وخرافات وفرضت طقوس حتى اختفى الحق ولم تبق بعد ذلك الا الخرافات ظاهرة لأصحاب المذاهب فبعدت الشقة بينهم وبين ما جاء به أصحاب تلك المذاهب من يقين .

هذا هو الحال فى الشرق والغرب على السواء ولكن هنا وهناك فتية ما زالوا يمسكون بالمشعل يحفظون الشعلة ويحافظون على ضوئها مهما خفت من الزوال ساهرين مثابرين لا يسمحون لأنفسهم ولا لغيرهم أن يلقوا على الحق شيئا من باطل يأتون به .

انهم يقولون (ان لنا أن نفرض وأن نستمع الى فروض الغير ولكن يجب أن تتورع عن أن نخلط افتراضاتنا بالحق الأبلج الذى تسلمناه صافيا نقيا ، يجب ألا نخلط الجوهر الثمين بالخسيس من المعادن) .

حقا أن الهند كانت مصدرا لكثير من الحقائق الروحية ، وكان الشرق مهد الديانات الكبرى كلها ، والهند اليوم أنسب من الغرب الصاخب للتفكير العميق ولكن ليس معنى هذا ان عامة الهنود على شيء من الصفاء الروحى ، بالعكس ليس فى بلاد العالم كلها بلد تنمو الخرافة فيه وتزدهر كما تنمو فى الهند لسبب بسيط واضح وهو أن الظروف الملائمة للخرافة والبدع هى نفسها خير الظروف لأعمق التفكير والبحث . ألست ترى أن تربة كاليفورنيا

مثلا تنمو فيها الفواكه والأزهار بما لا عهد لسائر أجزاء الولايات المتحدة به وأنها تنبت كذلك شر أنواع النبــاتات الطفيلية التى لا فائدة فيها والتى ان لم تستأصل تفســد على الزراع زرعهم . وكذلك فى الهند ان لم يبذل الزارع فى استئصال هذه الطفيليات من مزرعته أضعاف ما يبذل من الجهدفىالعناية بمحصوله وأشجاره تبتلع هذه الطفيليات المزرعة وتحيلها غابة برية لا أثر لمظاهر الحقل فيهــا .

ان فى الشرق آلهة مزيفة بلا عدد أوجدتها الخرافة وفى الغرب اله جديد لا يقل عن آلهة الشرق زيفا ، اله المــادة والثروة الذى اجتل المعابد ، وبين هذا الاله الذهبى وآلهة الشرق شبه القربى وصــلة النسب .

الجنــانا يوجى يرى فى كل الديانات وفى كل الفلسفات حقا ولكن الحق فيها ليس سوى ذرة من الحق الأعظم الكامل . انه لا يعترض على دين أو فلسفة ولا يسفه منها أحدا ، انه يتقدم بشىء واحد هو أن أى دين أو فلسفة ليس هو كل شىء وليست هى كل الحق . انه لاينتمى الى دين أو مذهب لأنه يرى اتباع كل الديانات المختلفة اخوة له مهما اختلفوا . ان مذهبه يتسع لمعتقداتهم جميعا ولكنه يأبى أن يتقيد بقيود أى منها .

ان المشكلة الرئيسية فى كل دين هى أن كلا منها يجعــل لله

حدودا وللدين قيودا ويتهم غير أتباعه بالعصيان ويحكم عليهم بالاقصاء والحرمان ، والجنانا يوجى لا يرى لله حدودا ولا يرضى بأن يخرج من خلق الله أحدا عن نطاق رحمته .

سنوضح فى هذا الدرس تعاليم جنانا يوجا ونوضح أسسها مجردة عن الخلافات الشكلية بين مختلف مذاهبها التى تتفق على التعاليم الأساسية وهذه التعاليم الأساسية موجودة فى باطن تعاليم كل الديانات محجوبة وراء الظواهر سلمها مؤسسو هذه الديانات الى حوارييهم بعد أن تلقوها بواسطة عقولهم الروحية (بوحى روح القدس) وانما تحورت التعاليم قليلا فى كل جيل حتى لتكاد التعاليم الأصلية أن تختفى تماما لكثرة ما أضفى عليها من شروح .

فان شئت دليلا ومثالا فاقرأ (موعظة الجبل) التى يعرف خفاياها ومغزاها رجال مدارس الصوفية والروحانيون فى كل الأديان ويعملون بها بينما يقول من يدعون أنهم أتباع المسيح ان تعاليم هذه الموعظة غير عملية ولا يمكن اتباعها أو العمل بها[1] .

ان غير المسيحيين يقتصرون على عدم الايمان بها أما المسيحيون

---

(١) خذ مثلا قول المسيح فى هذه الموعظة « اذا اعثرتك عينك فاقلعها خير لك أن تدخل ملكوت السموات أعور من أن تلقى فى النار ، واذا اعثرتك قدمك فاقطعها خير لك أن تدخل ملكوت السموات وانت اقطع من ان تلقى فى جهنم حيث النار التى لا تطفأ والدود الذى لا يموت » . (المترجم)

أتباع المسيح فانهم يحكمون عليها بأنها سخيفة ولا تصلح للناس ، وهكذا الحال مع أتباع كل دين انهم يتمسكون بالدين اسما ولكن لا يعملون بأوامره ولا ينتهون عن نواهيه ، انهم لا يعملون الا بما يوافق هواهم من الشرائع والأحكام التى جاء بها الدين أو بدلا من أن يجعلوا سيرتهم متفقة مع أوامر الدين يحورون هذه الأوامر بما يتفق والسيرة التى يفضلون .

اننا لانذكر هذه المآخذ ناقدين متهكمين مجرحين ولكننا نذكرها كمثال فقط على الفارق بين ظاهر أوامر الدين وما تنطوى عليه تلك الأوامر .

ان تعاليم الجنانا يوجا لا تتعارض مع هذا الذى تنطوى عليه تعاليم الأديان الأخرى جميعا — مع باطن تلك الديانات — ويستطيع كل انسان أن يظل على دينه الذى وجد نفسه عليه مع قبوله هذه التعاليم والسير عليها بل ان قبول هذه التعاليم كفيل بأن يظهر الانسان على ما بطن من شريعته ويجعله أكثر تقديرا لسموها والتزاماتها بينما يتمسك أبناء دينه بالقشور والشكليات ويجرون وراء الألفاظ ناسين حقيقة معانيها . أما اللادينيون فانهم سيجدون فى هذه التعاليم الراحة الروحية التى كانوا محرومين منها ويجدون عندما يصبحون من الراسخين فيها أنها تتفق والعقل والمنطق تمام الاتفاق . كانوا يقولون بأن الطبيعة هى الخالق وأن لا وجود لله

فاذا وجدوا أن الله والطبيعة فى جنانا يوجا شىء واحـد سقطت الغشاوة عن عيونهم وآمنوا بالله .

فى هذا الدرس سنضع أمام القارىء أوليات الحقـائق فقط دون أن نحاول أن نرسم حدود فلسفة قائمة بذاتها . ستكون المادة التى فى هذا الدرس مفتـاحا للفلسفات جميعا ولكل قارىء أن يكون لنفسه فلسفته الخاصة التى يستسيغها حسب مزاجه وتكوين عقله على أن يكون مفهوما وواضحا أن الفلسفة التى يكونها ما هى الا قواعد للسير ولكن لاتتعارض مع الاتجاه الصحيح — الاتجاه نحو الهدف . وعلى هذا الأساس نبدأ .

عندما نبحث معضلة الكون لابد وأن نبدأ بالمبادىء الأولية ، الأسس التى تقوم عليها كل الأشياء التى تدركها الحواس فتبدو يقينيـــة .

يقول الرجل العادى تخلصا من هذا البحث « ان الله وراء كل شىء ولا سبيل لادراك الله » وهذا حق .

ولكن سله ماذا يرى فى الله ؟ تجد لكل رجـل رأيا ولكنهم يجمعون على أن الله كائن خارج عن الكون وانه بطريقة أو أخرى خلق كل شىء وكثيرون يقولون أنه بعد أن أتم عملية الخلق تركه وشأنه ويجد الانسان فى قوله (ان الله خلقه) حلا لكل مشكل ،

ولكن اذا لم نحلل معنى الالوهية هذا فاننا لا نستطيع أن نصل الى معرفة شيء عن طبيعة الكون ولا طبيعة الحياة .

ان العقل المحدود لا يدرك (غير المحدود) ولكنه يدرك قليلا منه بواسطة (العقل الروحى) وهذا القليل هو الذى يطلق عليه اليوجى اسم (الحقيقة) لا لأنه هو يعتقد ذلك ولكن لأن كل انسان يستطيع ادراك ذلك القليل مثله اذا سمح (للعقل الروحى) بأن يمسك زمامه .

ان مجرد الاقرار بهذه الحقيقة يكفى وحده لالهام من بلغ مرحلة الوعى بأنه حق وصدق . قد يسمو هذا الاقرار فوق مستوى القوة العاقلة ولكنها لاتنكره اذا تجردت من الخرافات التى وضعت فوقها فأثقلتها وحجبت النور عنها .

ينصح المعلم طالب جنانا يوجا عادة بأن يقوم بتدريبات عقلية وأن يلزم النظام ومراقبة النفس بحيث يكون الهدف أن يستطيع الانسان أن ينحى عن عقله ما يثقله من آراء ومعتقدات لقنها تلقينا منذ طفولته بدون أن يسمح له بمناقشتها فبقيت ثابتة فى العقل مسيطرة عليه .

تقول ينحى عن عقله ولا تقول ينفى عن عقله الى غير رجعة ، ينحيها فقط فاذا وجد فى نفسه حاجة اليها استعادها من جديد ، ولكن لابد من تنحيتها حتى يستطيع العقل أن يبحث ويتدبر ما يلقى

اليه بدون عقبة قائمة ناشئة عن تأثر العقـل بما يسيطر عليه من قديم ، وحتى لايختلط ذلك القـديم وما يحـوى من شكليات بالجوهر الذى سيلقى اليه لأن اليوجى يرى أن العقل اذا تجرد مما ألفه وقد نضج لتقبل الحق يعرف الحق بمجرد أن يعرض عليه لأنه يميز بفطرته النفيس من الخسيس من المعادن .

ونحن لانريد أن يقوم الطالب الآن بتلك التدريبات التى يصر اليوجى على العمل بها بادىء ذى بدء ولكننا نكتفى بأن ينحى الطالب عن نفسه مؤقتا سابق معتقده وأن لا يتقيد به وأن ينظر فيما نقوله نظرة غير متأثرة بسابق رأى مقطوع بصحته فان لم يرقه ما نقوله فما عليه الا أن يتركه ويعود لما كان فيه ولا ضرر عليه . انه غير مستعد له فى وقته هذا اما اذا استساغه ورأى فيه أنه ملأ فراغا فى نفسه لم يجد قبل اليوم شيئا يشـغله فهو اذن مستعد و (الحقيقة) أصبحت ملكا له .

يظن الكثيرون أن جنانا يوجا ترى رأى أصحاب وحدة الوجود وأنها شكل من أشكال عقيدتهم ولكن جنانا يوجا أكثر من وحدة الوجود بكثير .

نظرية وحدة الوجود تقول ان الله هو كل شىء تدركه الحواس كل ما ينظر ويسمع ويلمس ويشم ويذاق أى أن الكون كما نراه هو الله .

جنانا يوجا تقول ان هذا نصف الحقيقة فقط . انها تقول ان ما تدركه الحواس (بما فيه ما ترصده أقوى التلسكوبات وما تراه أقوى الميكرسكوبات وما تسجله أدق آلات التسجيل) جزء متناه فى الضآلة والصغر من الكون واننا اذا قلنا هذا الكون هو الله فاننا اذن نكون كمن يقول ان قلامة الظفر هى الانسان .

جنانا يوجا ليس فى تعاليمها أن الكون هو الله ولكنها تقول ان الله يتجلى فى كل ما يشمله هذا الكون وفى ملايين أكثر منه انها تقرر أن الفكرة الصحيحة عن الله أجل وأسمى من أن يدركها البشر بل ومن هم أسمى من البشر من خلق الله حتى تلك الكائنات التى يعلو نوعها النوع البشرى فى سلم الوجود بمثل ما يعلو النوع البشرى أتفه الحشرات .

وتقرر جنانا يوجا أن الانسان يستطيع أن ينمو عقله لدرجة تمكنه من ادراك أن الله فى كل الحياة ويمكن القول بأن خلاصة التعاليم اجمالا هى أن الله حاضر فى كل شىء ظهر أو خفى خلق أو لم يخلق عرف أو لم يعرف ، والفرق واضح بين هذا وبين القول بأن الله هو العالم — قول أصحاب مذهب وحدة الوجود كما أن الفرق واضح أيضا بينه وبين من يقولون ان الله كائن بعيد عن الكون .

ان جنانا يوجا لا تتحدث عن الخلق وانما تتحدث عن التجلى

انها لا تقول ان الأشياء مخلوقات صنعها الله ولكنها تقول انها مظاهر تجلى قدرة الله .

من العسير على الطالب الذى تعود المعنى المألوف لكلمة الله أن يدرك نظرية جنانا يوجا عن الاله ، انه متأثر بصورة الاله رجلا أو شيئا ينظر ويسمع ويغضب ويرضى وغير ذلك مما يتصف به البشر ، هذه الصورة التى ترجع الى عهد طفولة الجنس البشرى والتى انمحت من عقول المفكرين منذ أمد بعيد اذ لا تتفق هذه النزوات مع مصدر الحياة ومبدع الخلق وان كانت لا تنفى أن يكون لله الصفات العليا كالرحمة الشاملة والحب العميم وغيرهما مما يقوم عليه الكون [1] .

تبدأ جنانا يوجا بهذه الحقيقة « ان الله موجود » وهى لاتدعى أنها تستطيع أن تفسر للعقل البشرى ما يتساءل عنه كيف هو وماذا هو ولماذا هو وتجيب على كل من هذه الأسئلة اجابة واحدة ، انه

---

(١) هنا ثلاثة وعشرون سطرا تحدث فيها المؤلف عن قصور كلمة (God) الله عن التعبير عن فكرة الالوهية فى رأى جنانا يوجا ولذلك فانه يقول للقارىء أنه سيستعمل كلمة (Absolute) ـ المطلق ـ عند الحديث عن الله منعا للبس الذى ينشأ وسبب ذلك أن الهند تعرف آلهة كثيرة مركزهم كمركز الملائكة عندنا . أما كلمة الله فى العربية فهى تفهم على الوجه الذى يريده المؤلف ولذلك سنستعمل فى الترجمة كلمة الله بدلا من المطلق . (المترجم)

موجود ، فان قيل كيف يوجد شيء بلا موجد أجابت ان العلة والمعلول شيء خاص بهذا المستوى المحدود الذى يوجد عليه الناس حيث يريدون أن يعرفوا لكل معلول علة ولكل نتيجة سببا ولكن الله فوق هذا المستوى وليست تعوز وجوده علة .

اننا على هذا المستوى من الوجود نفكر على أساس أن كل شيء حولنا نتيجة لسبب وأنه بدوره سبب لشيء آخر يكون نتيجة له . ان كل شيء نراه ونسمعه ونلمسه حلقة فى سلسلة أسباب ونتائج أى أن الشيء سبقت وجوده سلسلة من الأسباب ترجع الى الماضى .. الى أين ؟ وان له سلساة من النتائج تمتد فى المستقبل .. الى أين ؟ وتجيب الجنانا يوجا على السؤالين بقولها (الى الله) كل شيء من الله بدايته والى الله نهايته . اننا نستطيع أن نتتبع سلسلة الأسباب فى الماضى حتى يكف العقل عن التفكير عجزا عنه . واننا نستطيع أن نتتبع سلسلة النتائج فى المستقبل حتى يعجز العقل كذلك فيقف ويكف عن التفكير .

ويعجز العقل لأن المستوى الذى نحن عليه كما أسلفنا القول يستوجب لكل شيء سببا لأنه مستوى النسبية ولا يوجد عليه شيء مطلق فالظلام نسبى والبرد نسبى والقوة والضعف كل منهما نسبى ولذلك فلا سبيل للعقل يدرك به شيئا لا ينسبه الى شيء .

الفلاسفة الذين يقولون بأن كل معلول لابد له من علة يقابلهم

فرضان لابد أن يسلموا بأحدهما وبأيهما سلموا تنهار نظريتهم هذه والفرضان هما :

١ — اما أن يسلموا بأن للوجود علة أولى وان علة الوجود هذه لا علة لهـا .

٢ — أو أن يسلموا بأن سلسلة العلل تمتد فى الماضى الى مالا بداية وأن العلة التى لا بداية لها ليست بحاجة الى علة وبذلك يكون القـانون الذى يريدون اقامته من أن لكل معـلول علة لا وجود له .

واذن فالعقل البشرى عاجز عن حل هذه المعضلة وعن الاجابة عن السؤال (من أين ؟) و (الى أين ؟) وكلما أمعن فى محاولة ايجاد الحل والجواب زاد امعانا فى الحيرة والغرق فى المعضلة الى غير قرار ونعود الى سؤال الطفل من خلق الدنيا ؟ الله ! ومن خلق الله ؟

وكذلك الماديون الذين يقولون انهم لا يؤمنون بالله ويقولون ان المادة موجودة منذ الأزل لاموجد لها ولا علة يحـارون نفس الحيرة عندما يرون لكل معلول علة فان سئلوا عن علة المادة قالوا لا علة لها وسبب حيرة الماديين أنهم يسلمون بوجود مظهر من مظاهر الله هو المـادة وينكرون مظهرا آخر هو الذى يسميه الانسـان العقـل .

وأخيرا تضطر القوة العاقلة أن تعترف بأن هناك شيئا لا علة له، وبذلك تعلن هزيمتها وعجزها ، وهى عاجزة لأنها موجـودة على

مستوى النسبية ولا قبل لها بأن تدرك الا ما على هذا المستوى والله محيط بالمستويات جميعا .

يقول اليوجيون ان الله هو العلة التى لا علة لها — العلة الأولى ويقررون أنه موجود فحسب ولابد للطالب أن يستقر هذا فى ادراكه بادىء ذى بدء وقبل أن يخطو أول خطوة ولابد أن يكف عن كل محاولة لوصفه أو معرفة ذاته بل انه يجب عليه أن يكف عن التفكير حتى فى اطلاق اسم عليه ولكن لابد وأن يسلم بوجوده تسليما وليترك الأسماء التى سماه بها الناس هم وآباؤهم من قبلهم أيا كانت الأسماء (الله أو المادة أو الطبيعة أو العقل أو غيرها) عليه أن يؤمن بوجـود الله مطلقا من كل قيد مجردا عن كل شـكل . منه كل شيء ، وبه كل شيء ، واليه كل شيء ، وهو فى غير حاجة الى شيء .

وسعت رحمته وقدرته وعظمته كل شيء وهو يتجلى فى كل شيء .

الخطوة الثانية أن يقتنع بالحقيقة التالية : كل ماهو موجود ما يرى وما لا يرى انما هو مظهر لله أو منبثق عنه ، اذ لا يمكن أن يكون شيء خارجا عن الله أو ليس منبثقا عنه ، فما من شيء عنـه خارج كل شيء لابد قد أتى من المنبع الوحيد وان الله اذ يصنع شيئا فمن محض قدرته يصنعه ، هذا على الأقل كل ماتستطيع قوتنا العاقلة أن تدركه . لا يمكن أن يكون فى العالم الهان ولا قديمان لا أول

لهما . اله واحد أو قديم واحد لا ثانى له ومن هذا القديم كل شىء خرج بارادته ومشيئته لامن شىء آخر كان موجودا معه بلا سبب مثــله .

واليكم شعرا لا يعرف شاعره ولكنه يعبر عن حقيقة عظمى بكلمات بسيطة :

« أنت الله العظيم الأبدى الكل الواســع بغــير حد » .

« الكون جسمك والنفس من روحك » .

فان كنت أنت ملء اللانهاية وان كنت أنت الكل فى الكل .

وان كنت موجودا قبلى فأنا لست موجودا على الاطلاق .

اذ كيف أعيش خارجك . أنت تملأ الأرض والسماء .

فليس لى حيز خال فأشغله فى أى مكان .

ان كنت أنت الله وأنت ملء كل المكان .

فأنا من الله ، تصورها كما تشاء ، والا فليس لى مكان .

وان لم يكن لى مكان وان لم أكن أنا هنا .

منفى ! لا يمكن أن أكون والا كنت فى مكان ما .

واذن فأنا جزء من الله لا يهم مهما كنت صغيرا .

فان لم أكن جزءا من الله فلا وجود اذن لهذا الله .

الخطوة الثالثة التى على الطالب أن يتخذها هى أن يدرك أن الله له الصفات التالية :

١ — القــدرة .

٢ — العلم بكل شىء .

٣ — الحضور والتجلى فى كل مكان .

وليس على الطالب أن يقبل هذه الحقيقة قضية مسلما بها بل لابد له من فهمها :

١ — القدرة : معناها أنه قوى قدير لا بمعنى أنه أقوى من شىء بذاته أو أقوى من كل الأشياء مجتمعة ولكن بمعنى أن كل مافى الوجود من قوة هى قوته ليس لأحد ولا لشىء قوة خاصة به مستقلة عن قوة الله منفصلة عنها يتصرف فيها ويستخدمها متى شاء اذا شاء فيما شاء ، وأن كل ما ندرك من قوة انما هى قوته ، بل ان قوة ادراكنا هى من قوته فلا مكان لقوة غير قوته .

كثيرون يتكلمون عن قــوة الله يتكلمون عن اله قوى قدير ولكنهم يدركون ذلك ادراكا يشوبه الغموض الشديد يتحاشون أن يفكروا فى حقيقة هذا الادراك وما يترتب على قبول القول بأن القوة كلها قوة الله . انهم ينسبون الى الله كل مظاهر القوة والقدرة التى يرون فيها مصدرا لما يسرهم ويسمونه الخير ، أما ما يصدر

عن هذه القوة ويؤذيهم أو يبدو لهم قسوة وشرا فانهم يخافون أن ينسبوه الى قوة الله : الى الله وهم اما أن يروغوا عن الاجابة أو ينسبوا هذا الشر الى قوة أخرى كالشيطان مثلا ناسين أنه ان كانت كل قوة قوة الله فكل ما فى الوجود من قوة من خير أو شر (وهذان نسبيان) فمصدرها هو الله وغاية الأمر وعلة المشكلة كامنة وراء رأى الانسان فى الخير والشر ، فهو يرى كل ما يأتيه بفائدة تسره خيرا ، وكل ما يعترض هذا الخير ويعكر هذا السرور شرا . (فالطقس الجميل مثلا هو الذى يسر الانسان والطقس الردىء هو الذى لا يسره ، ولو كان الانسان مجردا من الجسد الذى يحس بالطقس لاستوى لديه الطقس الجميل والردىء) .

٢ — الحضور والتجلى فى كل مكان(١) :

يراد بذلك أن الله فى كل مكان فى نفس الوقت . ان الله يملأ المكان كله كما نعرفه وكما لا يبلغه ادراكنا انه فى كل مكان وهنا أمر لاتدركه القوة العاقلة من غير أن تساعدها قوة على ادراكه — المكان — انها لا تستطيع أن تدرك وجود مكان بلا حدود كما أنها لم تستطع أن تدرك حدود المكان أو تتصور ما وراء المكان .

---

(١) فى الترتيب فى الصفحة السابقة وضع المؤلف العلم بكل شىء (٢) ولكنه فى التعليق جعل الحضور والتجلى فى كل مكان (٢) وقد ذكرنا هذا حتى لا يظن القارىء بالمترجم الظنون . (المترجم)

انها عاجزة عن تصور مكان لا نهاية له وهى عاجزة عن تصور مكان له نهاية — والا كانت بعد نهاية المكان أمام مكان جديد ولا تدرك زمانا له نهاية ولا زمانا لا نهاية له .

لنعد الى موضوعنا — وجـود الله فى كل مكان — ونحن لا نتصور امكان غير ذلك لأن الله لابد أن يكون فى كل مكان فى كل وقت ، فى الفضاء والناس والذرات[1] ؛ فى المادة وفى العقل وفى الروح . فان لم يكن موجودا فى أية نقطـة أو فى أصغر ذرة فانه اذن غير موجود فى كل مكان وتكون الحقيقة التى قررناها باطلة . وان كان موجودا فى كل نقطة فلا مكان لغيره اذن : فان صح ذلك فان كل شيء وكل نقطة تكون جزءا من الله أو مظهرا له أو منبثقة عنه . وكل شيء يجب أن يكون جزءا من الكل الأعظم الواحـد الذى لا يوجد غيره .

يتشدق الكثيرون بأن الله موجود فى كل مكان ويلقن ذلك كل طفل فى العالم الغربى ولكن ما أقل الذين يقفون أمام هذه العبارة يتدبرون معنى أن الله موجود اذن فى الأماكن المنحطة والعليا فى الأماكن القذرة الدنسة والأماكن النظيفة الطاهرة . انهم لا يدركون أنهم بقولهم ان الله فى كل مكان يقولون ان كل مكان لابد وأن

---

(١) ان صعدت الى السماء فأنت هناك وان هبطت الى الجحيم فأنت هناك أيضا (من مزامير داود) المترجم

يحتوى على الله ويجب فى الحقيقة أن يكون ذلك المكان مكانا لظهور الله ، لتجلى الله .

ان هذه الكلمات التى يستعملونها بغير اكتراث وبغير اهتمام تحمل معنى نابيا كريها ولسنا نريد أن يقبل الطالب القول بأن الله موجود فى كل مكان بغير فحص ولا تمحيص ولا يتسع المقام هنا لبحث الموضوع بحثا مستفيضا شاملا لكل وجه من وجوهه . ولكن العلم الحديث ملىء بالنظريات التى تثبت أنه ليس فى الوجود الا مادة واحدة وأن هذه المادة تشغل كل مكان كما يقرر العلم أن ليس فى الوجود سوى طاقة واحدة تظهر بمظاهر وأشكال متعددة . صحيح أن العلم وصل الى هذه النتيجة بطرق البحث المادية ولكن هذه النتيجة هى نفس ما تمسك بها الجنانى يوجيون منذ قرون ، تلقوها عن معلمين يرجع تاريخهم الى وقت موغل فى القدم . والديانات الأصيلة تؤيد نفس الحقائق — قدرة الله على كل شىء ووجوده فى كل مكان .

٣ — العلم بكل شىء .

ان الله حكيم بكل شىء عليم ، انه يعلم كل شىء وان له العلم كله وان ليس من شىء يخفى عليه وان لديه علم كل ما كان وما هو كائن وما سيكون فان فرضنا أن هناك مثقال ذرة تغيب عن علمه أو لا يستطيع أن يسعها علمه ، فالقول بأنه بكل شىء عليم اذن

لا يصح . وان كان يعلم كل شيء فلا يمكن أن يخطيء ولا يجوز أن يغير شيئا ولا أن يغير فكره فى شيء وانه لا يفكر الا عن علم ولذلك فكل قضاء يقضى به حكمة وعدل .

ولكن يبدو أن بعض الناس يرون فيه غــير ذلك يرون أنه يخطيء أو أنه لا يعلم كل شيء عن كل شيء ولذلك فانهم يرون من الضرورى الواجب عليهم أن ينبهوه سبحانه الى أمور لم يعرها انتباهه أو الى أخطاء ارتكبها ويرجونه أن يكون لهم أكثر رعاية فى المستقبل ، يحسبون أنهم على مداهنته وتملقه وخداعه قادرون. يا للأطفال المساكين !!

ان الطالب يستطيع أن يدرك حقيقة عــلم الله بكل شيء اذا أجال البصر حوله وفكر قليلا . ان لم يكن عند الله العلم جميعا فمن أين يأتينا العلم ؟ ليس من غير الله ، هذا لاشك فيه فليس فى الوجود غير الله حتى يأتى العلم من ذلكِ الغير .

أليس المعقول أن العلم موجود دائما وان ما يأتينا من العلم انما هو بقدر تفتح عقلنا لاستقبال العلم أو بقدر ما يتسع لما يفيض عليه من نور .

على أى حال من العبث التطلع الى مصدر للعلم غير الله ، اذ لا وجود لغير الله حتى يأتى العلم منه .

يقول الجنانى يوجيون ان الله قوى قدير عليم حكيم وهو ملء

السموات والأرض — فى كل مكان — ان له القوة جميعا ، كل ما فى الوجود من قوة ، وان له كل ما فى الوجود من علم وأنه فى كل ما فى الوجود من مكان وفى كل ما فى المكان من كائن ان كان كائن فى مكان وانه فى كل مكان وفى كل شىء فى كل وقت وفى نفس الوقت .

انهم يقولون ان الله مجردا من الصفات لا يمكن للعقل البشرى فى حالته الراهنة ادراكه ، ولذلك فانه سبحانه يتجلى فى صفات ثلاث يمكن العقل البشرى حتى فى حالته هـذه ادراكه بها ولو ادراكا جزئيا .

وهذه الصفات التى يتجلى بها أو يظهر فيها هى المادة والطاقة أى القوة والعقل .

أما ما يعرفه اليوجيون بأنه الروح فهو مظهر أعلى وليس من هذه المظاهر الثلاثة وقد قال البعض أن الروح عقل فى أسمى درجة من درجات الصفاء ولكن الروح أكثر من ذلك . انها شىء من الله لا تدركه الحواس وسنعالج الصفات الثلاث فى هذا الدرس على أنها مظاهر تجلى الله .

اننا نوجه نظر الطالب الى ما بين المظاهر الثلاثة والصـفات الثلاث السالفة الذكر من علاقة .

١ — فصفة الحضور فى كل مكان تتجلى فى المادة .

٢ — وصفة القدرة على كل شىء تتجلى فى الطاقة .

٣ — وصفة العلم بكل شىء تتجلى فى العقل .

نحن لا نريد أن نفهم من قولنا هذا أن هـذه الصفات التى يتجلى فيها الله هى الله بل انها مظاهر قدرته ، انها اشراقات نوره (انه من العسير أن نجد الكلمات التى تحمل المعنى المقصود بالدقة الدقيقة الكافية) .

ان الله لايمكن أن يرى ، أن تدرك ذاته بفكر الانسان ، ولذلك فلا بد للعقل أن يمسك بصفة أو أكثر ليستطيع أن يكون الفكر أو يدرك الفكرة .

فاذا فكرنا فى الله على أنه العليم فكرنا فى العقل ، ذلك المظهر من مظاهر قدرته . واذا فكرنا فى الله على آنه الخالق المبدع فكرنا فى القدرة التى هى مظهر له .

واذا فكرنا فى الله على أنه موجود فى كل مكان فكرنا فى المادة بصورة من صورها المتناهية فى اللطف كالأثير الذى لا يرى ولكنه مادة على أى حال تتجلى فيها قدرة الله .

انه من العسير على الرجل المتدين التقى أن يتصور الله ظاهرا فى القدرة أو المادة أنه يتصوره صانعا للمـادة أو مستخدما اياها ولكنه لا يستسيغ أن الله يتجلى فى المادة ولكن جنانا يوجا تساعده

على أن يرى قدرة الله فى كل شىء حوله وفى كل مكان (ان رفعت حجرا وجدتنى وان شققت شجرة فأنا هناك أيضا) .

ومن ناحية أخرى لا يجد المادى من السهل عليه أن يقبل التسليم بأن الطاقة والعقل مظهران من مظاهر الله والا كان مسلما بأن الهه (المادة) شىء قريب الشبه من اله المتدين الذى ينكر هو وجوده . ولكن جنانا يوجا توفق بين هذين الأخوين (المتدين والمادى) اذ تقول لهما انهما كانا ينظران الى شىء واحد من ناحيتين متقابلتين فاختلف حكم كل منهما عن حكم الآخر .

قد يقول رجل العلم ان العقل ليس مظهرا مستقلا من مظاهر الله وانما هو من نتاج المادة وأثر من آثارها واليوجى يرى العقل ماثلا فى كل شىء من أصغر ذرة من ذرات المعادن الى الانسان وان تفاوتت درجاته .

انه يدرك أن أقل ذرة تملك ذكاء باطنا يجعلها قادرة على أن تعمل ما يعجز العقل البشرى عن معرفة كيفية عمله . وأن أقل نوع من أنواع النبات فيه ذكاء غير محدود يعمل بواسطته ما لا يستطيع الانسان بعقله مهما سما أن يعمل شيئا مثله .

ان الله يتجلى فى أدق ورقة من أوراق النبات على ثلاث صور ، المادة أو الجسم والقدرة أو الطاقة والتدبير أو العقل .

يستطيع الانسان أن يجمع عناصر بذرة ما من بذور النبات من المواد التى حوله ويكون منها بذرة صناعية تشبهها تماما ويستطيع

أن يحيط تلك البذرة بالتربة الصالحة لنموها ويهيىء لها ظروف النمو ولكنها رغم ذلك لا تنبت ولا تنمو انها تنقصها القدرة على النمو والتدبير الذى يرتب عمل القدرة على النمو وينظمها ، انها تحتاج الى العقل الذى تعجز قدرة الانسان عن أن تصنعه أو أن تهبه للبذرة التى صنعها .

كل ذرة فى بذرة النبات تحوى فى نفسها العقل الكامن الذى يعمل على تنشىء النبات من البذرة وبنفس الطريقة تتكون أجسادنا. ان فى كل شىء قدر من العقل العـام المطلق يناسب حياته ويفى بحاجاته والعقل العام يصدر عن الله وينبثق عنه . أيحسب الانسان أن قوته العاقلة المفكرة الواعية تمثل أعلى درجات العقل فى الوجود؟ هراء ما يحسب ! .

ما على الانسان الا أن ينظر حوله ويتدبر فى كل شىء وفى صنع كل شىء من كل شىء والوسائل التى تؤدى الى نتائجها المحتومة ليجد نظام الكون وكيف تتداخل الأشياء وتندمج أطرافها بعضها فى أطراف بعض لتتكون موجـة الخـلق وموكب الابداع . انه لا يستطيع بعقله أن يعمل مثل هذا الذى يتم حوله والذى كان يحدث قبل أن يظهر الجنس البشرى على الأرض . ان قوة عاقلة لا تقاس بها قوة عقل الانسان تدبر شئون الحياة ، يستطيع الطالب أن يحسها حوله فى كل شىء ان هو فحص حبة قمح أو عين أرنب فتتكشف له عجائب الاعداد والخلق والابداع .

ومن كان فى شك فليرقب خلية نحل كما فعل صديق لنا كان مفكرا ملحدا حتى اشتغل بتربية النحل فتفتح عقله فقال انه وهو يرقب حياة النحل والعمل فى الخلية يحس شيئا هاتفا فى نفسه (الهى انى الآن أقرب اليك) .

ان ذكاء الانسان ثابت لا يزيد ولكن الذى يزيد فيه هو قدرته على تقبل المزيد من علم العليم الحكيم مصدر كل علم . انه يتقبل من ذلك النبع ما يتسع له عقله فان الله لا يضع كيلة فى صاع . ان رجلا من أهل المستوى الثالث لا يستطيع أن يدرك ما يدركه عقل رجل من المستوى السابع .

وشىء آخر ، كلما تقدمت النفس وتفتحت استطاعت أن تتقبل نصيبا أكبر من كل من صفات الله الثلاثة .

١ — انها تستطيع أن تعلم أكثر .

٢ — انها تصبح أقوى .

٣ — انها تتسلط على المكان والمادة .

كلما تفتحت النفس ساعدت على نيل حصة أكبر من علم الله ومن قوة الله ومن قدرته على الوجود فى كل مكان .

ولن نتحدث فى هـذا الدرس عن واجبنا لله وعن التصرف الواجب علينا نحوه سبحانه وموقفنا منه فان موضع هذا الحديث

فى (بهاكتى يوجا) فى الدرس القادم أما هذا الدرس فقاصر على جانب علمنا بالله (جنانا يوجا) .

وهنا نرى لزاما علينا أن نحذر الطلاب من خطأ شائع بين طلاب الفلسفة الشرقية ويشاركهم فيه بعض الأستاذين ، نريد بذلك الفهم الصحيح (أو بعبارة أصح عدم الفهم الصحيح) للعلاقة بين المصدر والصادر عنه ، فالانسان وان كان من الله الا أنه ليس الها وهو وان كان مظهرا للخالق فانه ليس الخالق نفســه انما هو التعبير المحدود لغير المحدود .

نشاهد هنودا وغير هنود من طلاب التعاليم الهندية يطوفون مهللين صائحين (أنا الله) لقد غلبهم على أمرهم وسلبهم لبهم ذلك الوعى الذى أشرق عليهم فرأوا وحدة الكل وبهرتهم صلتهم بالله وقربهم اليه فاختلط عليهم الأمر فظنوا أنهم كالله أو أنهم هم الله نفسه[١] .

وللغريب عن هذه التعاليم أن يرتاع لهذه الجرأة على الله التى توصف بالكفر والمروق وأن ينفر من هذا القول وينقبض له صدره.

ان هذا شر تحريف للتعاليم عن مواضعها وشر انزلاق بها الى مهاوى الضلال وظلمات الجهل ، ونحن نحذر الطلاب من الوقوع

(١) لعل الحلاج يمكن فهمه على ضوء هذا القول فيزول ما حوله من لبس ولغط . (المترجم)

فى هذا الاثم مهما سما مصدر هذا التحريف والتحول فى التعاليم ومهما أحيط بمظاهر الحكمة والعلم .

ان الراسخين فى العلم من أساتذة الهنود لا يقعون فى هـذا الخطأ ولكن بعض أتباعهم ينزلقون الى مهاويه . وقد حاول بعض كبار الأساتذة الهنود أن ينقلوا الفلسفة الهنـدية والأفكار التى تدور حولها الى اللغة الانجليزية وكان من جراء عـدم اتساع الكلمات الانجليزية لتحمل كل معنى الكلمات الهندية اذ أنها تارة تحمـل معنى أوسـع وتارة معنى أضـيق مما تؤديه الكلمـة السنسكريتية . كان من جراء ذلك أن عجزت التعبيرات الانجليزية عن تمييز ظلال الحقيقة بعضها من بعض تمييزا دقيقا مما ترتب عليه ذيوع آراء غير مطابقة تماما للآراء والأفكار الحقيقية وسقطت المذاهب التى ابتكرها بعض الانجليز والأمريكيين فى هذه الهوة مما جعل أتباع تلك المذاهب يجرحون شعور الناس من حولهم بادعاء كل منهم أنه الله سبحانه فاذا استطعنا أن نقتلع هذا الرجس من قلوب من وقعوا فيه فان هـذا الدرس يكون اذن قد حقق أسمى غرض .

ان أساس تعاليم جنانى يوجا هو هذا .

كل الوجود ظاهره وباطنه صادر عن الواحد الأحد .

تدبر كلمة (صـادر) انها مفتاح القضـية وبها يمكن فتح

مغاليقها ، صادر يعنى خارج من مصدر أو نابع من منبع . ولنتمثل بالشمس فهى المثل المفضل عند اليوجيين .

الشمس مصدر الاشعاعات والذبذبات التى تصل الينا فنتميزها نورا وحرارة فاذا دققنا فى استعمال الألفاظ لم نذكر كلمة الشمس الا اذا قصدنا ذلك الجرم السماوى البعيد فى الفضاء ، ولكن كل شعاع وكل ذبذبة صادرة عن الشمس هى فى الواقع جـزء منها وشعاع نبصر به وكل حرارة نحسها هى الشمس ولكنها ليست نفس الشمس — ألا نقول اخرج الى الشمس وخذ عن الشمس نعنى شعاعها وحرارتها .

ويقول وليام لويد فى كتابه (فجر الفكر Dawn of Thought) « اذا لمسنا طرف ظفر الرجل نلمس الرجل ولكن ليس كما نلمس منه نهاية أحد الأعصاب ولمس نهاية العصب يختلف عن لمس المخ » .

وعلى قدر المخلوق يكون مقدار الحياة الكامنة والسر الالهى فيه . الحياة والعقل موجودان فى كل كائن وكل مكان ، ولكن ليس مظهرهما فى كل مكان وكل كائن بدرجة واحدة . هناك خلاف بين المخلوقات فى الوعى كما تختلف مواضع الوعى والارادة والاحساس فى جسد الرجل الواحد فبينما تزداد فى جزء من الجسد نجـدها تقل فى الأجزاء الأخرى تبعا لقربها من المركز الرئيسى . ودرجة اتصالها به . كذلك الحال مع أصل الوجود ومصدر الحياة والقوة

والعقل ! فقد يكون من الخلق من يقترب أو ما يقترب منه فيكون نصيبه من قوته وآثاره ما يجعله أقرب اليه وأشبه به وبقوته من غيره من الخلق ويتدرج الشبه فى القوة والعقل مع البعـد عن مصدر القوة والعقل .

اننا نذكر هذه الأمثال والآراء حتى نضع أمام الطالب عـدة صور للفكرة نفسها ملونة بألوان تفكير أصحابها ، فان البعض يتأثر بالصورة الواحدة أكثر من البعض الآخر ، والبعض يرى الحقيقة ماثلة فى مثال بينما لا يرى البعض الآخر فى المثال نفسه شيئا من الحقيقـة .

نحن مثلا نفضل مثل الشمس — جرمها والأشعة الصادرة عنها — لأننا نراه أقرب لعقيدة الجنانى يوجيين من غيره ولكن أهدى الأمثال للطالب هو أحسنها عنده وأفضلها لديه وله .

كان أحد المعلمين يقدم للطلاب وردة يتضوع شذاها ويقول لهم ان الذرات التى تحمل الى الأنوف ريح الوردة ولو أنها من الوردة الا أنها ليست الوردة نفسها انها منها ولكن ليست هى .

نظن أننا قد لمسـنا فكرة الجنانى يوجا من ناحية واحـدة وسنتناول بعض نواحيها الأخرى فى الدروس القادمة .

سيكون درسنا القادم عن بهاكتى يوجا — فلسفة التقوى وحب الله ، الاخلاص والعبادة — وهو القسم المناسب لأن يلى

الموضوع الذى تحدثنا عنه ، فهو يصف العلاقة بين الانسان والله ، ويقرر أن الانسان يحيا فى الله ويعيش فى الله وكل كيانه قائم بالله .

لن يكون الدرس موعظة كالمواعظ ولو أن بهاكتى يوجا تتقدم بنفسها الى القلب لا الى العقل الا أنها تساير العقل والمنطق ولا تتعارض معهما .

ان فلسفة اليوجا تستجيب لحاجات الانسان جميعا بعضها لفريق من الناس وبعضها الآخر لفريق آخر ولكنها كلها تصلح للجميع فلا تهمل جانبا لأنك تفضل الجانب الآخر انك ستجد فى كل جانب ما ينفعك .

وأخيرا نود أن نوجه انتباهك الى حقيقة هى أن الكون ليس جمادا لا روح فيه ، انه حى ينبض بالحياة والقوة والعقل . انه كائن حى وأنت جزء منه ، من كله .

انك لست الله ولكنك ذرة فى شعاع من أشعة نوره تتجلى فيك قدرته .

انك على اتصال بالمركز والمركز يعرفك ويعرف صلتك به وصلته بك .

انك وان كنت ذرة الا أنك جزء من الكل ضرورى للكل لا غنى له عنك انك منه فلا يضرك شىء ولا يدمرك شىء .

انك تزداد معرفة له وتزداد شعورا باتحادك معه شعورا ليس نتيجة التفكير العقلى وحده . انه يقين ، عين اليقين .

ليكن السلام معك !!

الدرس السابع

بهاكتي يوجا

(طريق الاخلاص والعبادة)

ذكرنا فى الدروس السابقة أن فلسفة اليوجا تنقسم الى عدة فروع أو طرق يتفق كل منها وحاجات طائفة من الناس واستعدادهم وأن طرقها كلها مع ذلك تؤدى الى غاية واحدة هى التقدم والسمو واشراق الروح . فالرجل الذى يريد أن ينمو ويصل بقوة ارادته أى بضغط العقل على الحجب التى تكتنف الروح حتى تنحسر عنها ينجذب نحو الراجا يوجا ، والرجل الذى يريد النمو والوصول بالمعرفة أى بدراسة لغز الكون والادراك العقلى للقوانين والقواعد التى ترسى عليها أسس الحياة ينجذب نحو جنانى يوجا . وأما من كانت طبيعته الدينية قد سمت سموا كبيرا فأنه يفضل أن يتقدم فى معرفة الله والاتحاد به بقوة الحب بقوة الالهام التى تأتى من التعلق بحب الله على أى دين من الأديان ، وسلوك طريق العبادة التى تتمشى مع ذلك الدين . من كانت هذه حاله فهو بين آتباع

الطريقة التى نحن بصددها — بهاكتى يوجا ، طريق الاخــلاص والعبادة .

ومن الجائز أن يكون الرجل تابعا جادا للراجا يوجا أو عالما من أعلام علماء الجنانى يوجا وهو غارق فى نفس الوقت فىالتقديس والحب لله وبذلك يكون من الاتباع البارزين لطريق بهاكتى يوجا .
والحق أننا لا نستطيع أن ندرك كيف يتجرد من يتبع أى فرع من فروع اليوجا عن الايمان والحب ، فمن عرف الله أحبه وكلما ازداد به معرفة زاد له حبا واذا عرف الانسان نفسه أحب الله لأنه يشعر بما يربط نفسه بالله وكلما سمت النفس وجدنا أنها تزداد امتلاء بحب الله .

بهاكتى يوجا أو طريق الاخــلاص والعبــادة تولد فى القلب الحنين الى الحب فى الله والحب لله ، تلك الرغبة التى يطلق على مظهرها العاطفة الدينية — غريزة التعبد . وما من انسان الا وهذه الغريزة فيه بادية فى صورة من الصور حتى أولئك الذين يسمون أنفسهم (أحرار المفكرين) أو اللاأدريين أو الملحدين الذين ينكرون وجود الله على الاطلاق والذين يعتنقون مبادىء الماديين العقلية كل هؤلاء يحسون هذه الغريزة ويظهرونها فى ثوب حب (الطبيعة) أو الفن أو الموسيقى ولا يخطر على بالهم أنهم بحبهم هذا لأى مما يحبون انما يحبون مظهرا من مظاهر الاله الذى يجحدونه وبذلك يمجدون الله وهم لا يشعرون .

واذا قلنا أن بهاكتى يوجا (فلسفة الاخلاص والعبادة) هى علم محبة الله فاننا لانقصد بذلك أنها عـلم يضع فاصلا بين من يعبدون الله ويحبونه بطريقة بعينها ومن يحبونه ويعبدونه بطريقة أو طرق أخرى ، أى من يعبدون الها غير الههم .

هذه الطريقة على حقيقتها تفرض على معتقدها أن يعترف بأن من يعبد الله على أية صورة هو أخ وزميل له ، فالبهاكتى يوجى يرى أن كل الناس يعبدون الله روح الوجود ومصدر الحياة ، فهو بالرغم من وحشية صورة اله المتوحشين وقسوة طقوس عبادتهم يرى فيهم اخوة يعـبدون الله على أحسن ما تؤهلهم له عقليتهم وحالتهم البدائية وهو لذلك يرى فى المتوحش أخا له فى بهاكتى يوجا ولكنه أخ ما زال فى أول مراحل الطريق فى ألف باء المعروفة فيحنو على ذلك المتوحش ويقدر عقله الساذج فيسيل اليه حبـه وتنهل رحمتـه نحو ذلك الأخ البسيط الذى يفعل غاية ما وصل اليه ادراكه ، وبدل أن يحكم عليه بأنه كافر ، يدعوه أخاه ويفهم حقيقته وبلواه .

فأنت ترى أن أهل هذا الطريق لا تقوم بينهم حدود فاصلة . لا يتأثرون بالطائفية ولا باختلاف المذاهب لأنهم يشعرون بأن الناس جميعا أخوة لهم وهم على استعداد لأن يمدوا يد الصداقة للجميع .

ان الله واحد لا يتغير هو هو بالأمس واليوم والغـد ولكن

تصور الانسان لله هو الذى يتغير مع تطور الانسان الفكرى . فاله كل انسان دائما يسمو قليلا على ذلك الانسان وقد أحسن من قال ان اله الانسان هو صورة لذلك الانسان فى أحسن حالاته . فالصورة التى رسمها العهد القديم لله (اله اسرائيل) تختلف عن الصورة التى تخرج بها من العهد الجديد . والصورة التى ترسمها الكنيسة المسيحية اليوم تختلف تماما عن الصـــورة التى كانت ترسمها من خمسين سنة[1] .

وبديهى أن الله سبحانه ما تغير قط وانما هذا الخلاف سببه تطور عقول الناس الذين تتألف منهم الجماعة أو الطائفة ، فكلما ارتقى الانسان تكشفت له فى الله صـــفات لا تليق به ، ولما كان الانسان يتعبد لله فى أحسن ما يتخيله من صفات فانه دائما يضع عن الهه ما أضفاه عليه بالأمس من صفة ينكرها عقله فى يومه ليضفى على الهه ما يتناسب مع فكره اليوم . فاذا أشرقت على الانسان فى غده أفكار أعلى وأسمى من أفكار اليوم رأينا اله الغد يتمتع من صفات الالوهية بما لايتمتع به اله اليوم . وتعالى الله عما يصفون فانه الأحد الصمد لم يتغير فلم ينقص ولم يزد ولم يفقد ولم يجد

---

(١) يقول الملحـــدون الحديثون ان الله لم يخلق الانسان ولكن الانسان هو الذى خلق الله ولعل هذا الشرح يجعل ما يقوله الملحدون قولا مفهوما اذا كانوا مســـتعدين لاتخـــاذ الخطوات التالية التى سيشرحها المؤلف ويرضون بتفسيره — المترجم

وانما الذى يتغير هو الانسان وتبعا لتغيره تتغير الصــورة التى يرسمها لمعبوده .

المتوحش أى المتخلف فى الطريق يؤمن باله يبدو لنا شيطانا رجيما ولكنه اله شبيه بذلك المتوحش وان كان يفضله لحد ما . أنه ينحت صنما بشعا يمثل له ذلك الاله ثم يخر له ساجدا أو يرقص حوله وهو يقدم له القرابين التى قد يكون من بينها دم الانســان ينضح به مذبحه . وهو يعتقد ان الهه يحب منظر دماء أعدائه كما يحبها هو . وأعداء ذلك المتوحش هم دائما أعداء لإلهه وهذه عقيدة تصاحب الانسان منذ أمد بعيد ومن اليسير أن نراها اذا أنعمنا النظر حولنا فى يومنا هذا (سنة ١٩٠٤) م .

ومع الأيام يزداد المتوحش معرفة أو قل تزداد ذراريه معرفة وتفهما فيعمدون الى اله آبائهم فيخرجونه من هيكله ليضعوا مكانه الها يتناسب مع المســتوى الذى ارتقى اليه علمهم ومع درجــة تقــدمهم .

قد يكون ذلك التقدم بسيطا ولكنه خطــوة فى الطريق فى الاتجاه القويم اذ يكون الاله الجديد خيرا من القديم نوعا ما . فهو أكثر رأفة ورحمة وهو أكثر عطفا ومحبة من سلفه .

وهكذا تتقدم البشرية خطوة خطوة ويُرتفع مســتوى اعتقاد المؤمنين فى صفات الله أو ما يتخذونه رمزا لله ويصحب كل خطوة

التخلى عن مثل عليا قديمة لتحل محلها مثل أكثر تهذيبا وترفعا ومع أن عقول الناس ترى فى الله سبحانه آراء مختلفة ترتقى كلما ارتقت العقول فانه سبحانه هو هو جلت قدرته .

والأجناس المتخلفة لا تستطيع تصور فكرة الاله الواحد وانما تتصوره آلهة متعددة كل منها مظهر لصفة من صفات الله أو لمرحلة من مراحل الحياة أو لمظهر من مظاهر الشعور الانسانى أو الفكر أو العاطفة فلهم اله للحرب واله للسلام واله للحب واله للزراعة واله للتجارة واله لكل ما يخطر على البال وما لا يخطر . وهم يعبدون هذه الآلهة ويتقربون اليها يستجلبون رضاءها وهم لا يشعرون بأنهم فى عباداتهم هذه المختلفة انما يستجيبون للغريزة الدينية التى تقودهم فى النهاية الى عبادة الله الواحد الذى يجل عن الوصف . انهم يضفون على الله سبحانه صفات الانسان حتى بعد أن يتطوروا فى ايمانهم من عبادة الالهة المتعددة الى عبادة اله واحد كيفما كان ادراكهم له — فهم يتصورون أن ذلك الاله الذى يؤمنون به يقسم الناس الى فريقين — أصدقائه وأعدائه — يحسن الى أصدقائه وينكل بأعدائه[1] .

---

(١) واما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريما (التثنية اصحاح ٢٠ من التوراة) . المترجم

انهم ينسبون الى الله فعل ما كانوا هم أنفسهم يفعلون لو أتيح لهم أن يقدروا على منح المكافأة وتوقيع العقوبة وهم يعتقدون أنهم أحباب الله المختارون الذين اصطفاهم لنفسه فهو — ان قاتلوا — ينزل معهم الى ميدان القتال ينصرهم على أعدائهم وأعدائه . وهم يعتقدون أنه يحب سفك الدماء ويفرح بالدم المهراق وانه لذلك يأمرهم باعمال سيوفهم فى أعدائه الى حد قتل النســاء والأطفال الصغار ، أى والله بل انه ليأمرهم بأن يبقروا بطون النساء الحوامل وأن يجعلوا الأجنة طعما للسيف ، ان الههم سفاح متوحش لأنهم هم أنفسهم سفاحون متوحشون . أما الله سبحانه فقد تعالى عما يصفون ، انهم انما يصفونه بما فى نفوسهم ويعبدون ما تخيلوا ، وما تخيلوا الا جهد ما سمت اليه عقولهم تبعا لمكانهم من الزمان وما وصلت اليه قبيلتهم من مراحل التطور البشرى يسمونه سبحانه اسما بعد اسم .

وكذلك أعداء هؤلاء لهم الهتهم التى رسمها لهم خيالهم يطلقون عليها من الأسماء ما راق لهم وهم يعتقدون أيضا أن الهتهم هذه تنصرهم على من يعاديهم وتقاتل معهم حتى يحرزوا النصر على أعدائهم وعلى الههم الزائف . وهذه الآلهة ما هى الا انتاج عقل الطائفتين المتقاتلتين خلقت استجابة للغريزة الدينية فى مرحلة من مراحل تطورها .

اننا لتصيبنا رجفة من هذا القصص وهذه الأفكار ولكن هل نحن تقدمنا كثيرا عن هؤلاء المتوحشين ؟!

فى حروبنا العصرية نجد كلا من الطائفتين المقتتلتين تدعو الله لينصرها على عدوها وكل من الفريقين يعتقد أن الله معه .

ففى الحرب الكبرى الدائرة رحاها الآن بين روسيا واليابان[١] تدعو كل من الأمتين الها رسمه لها عقلها وتسأله أن يسير فى صفها لقتال أعدائه وهم لا يشعرون أنهم جميعا يعبدون الها واحـدا تحت اسمين مختلفين وان الله الواحد الحق لا يفرق فى حبه ورحمته بين الفريقين المتقاتلين !!

وفى الحرب الأهلية الماضية فى الولايات المتحدة الأميركية كانت كل من الطائفتين تدعو الله لينصرها وتعتقد كل منهما أن الله معها . لقد انشقت الكنيسة على نفسها واعتقد كل جانب أن الله يقاتل معه أو أنه الهان اله للشمال واله للجنوب ، اله يكره الرق ويمقته ويريد أن يقتل من يتمسك به ، والآخر يرى أن الرق من مشيئة الله وبأمر منه وأنه سيصيب بالهزيمة من يريد أن يمحوه .

ولا شك أن كل فريق كان يرى الله بمنظاره الخاص فيراه مثله

(١) كانت الحـرب تستعر بين الدولتين فى ذلك الوقت الذى القيت فيه هذه الدروس (١٩٠٤)

وان كان أكبر — ويرى ارادة الله صورة لارادته ، ومشـــيئة الله صورة لرغباته التى يتمنى تحقيقها .

وقد انتهى الفريقان بعد هذا الخلاف وبعد قتال مرير الى رأى واحد فى الله وحكمه ، فالرق كان شيئا أخذ دوره فى الوجود نشأ ونما ثم زال ، انه كان مرحلة من مراحل التطور البشرى تطور معه اعتقاد الانسان فى الله ومشيئته أما الله سبحانه فما تغير وما تبدل تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

لقد اضطهد الانسان أخاه الانسان لأنه رأى فى الله غير رأيه فلما اشتد ساعد الضعيف المضطهد وتمكن ممن هو أضعف منه ومن يرى فى الله غير رأيه اضطهده . وكل يعتقد أنه ينفذ مشيئة الله وهو ينكل بخصمه الضعيف وذلك الخصم وهو يلقى النكال يلقاه راضيا لأنه فى سبيل الله .

لقد أخرج المتزمتون (Puritans) من ديارهم بعـــد أن ذبح منهم من ذبح لعقيدتهم فى الله فلما استقروا فى الأرض الجـــديدة انتقموا من أصحاب المذاهب الأخرى المسالمين الوادعين (Quakers) لأنهم لايرون فى الله رأيهم . والكل يعتقد أو يدعى أنه يرضى الله بالانتقام من أعدائه .

وكم يبدو هذا كله عبث أطفال لمن أوتوا من سعة العلم وبسطته ما يجعلهم يدركون أن الناس جميعـــا عيال الله ، وأنهم جميعـــا

يعملون بخير ما وصلت اليه عقولهم ومعرفتهم ولا لوم ولا تثريب عليهم . فمن كان يعمه فى ضلاله فهو انما يعمل ما وسعه وكل ميسر لما خلق له ، وكل يعبد الله بما ألقى فى روعه وهو يؤمن بأن عبادته خير العبادات وأن ايمانه أصح الايمان وأن معبوده هو الحق وما يعبد الناس من دونه الا الباطل وكلهم يعمل بدافع الغريزة الدينية التى تحفز الناس الى الامام ، ان هؤلاء جميعا أتباع بهاكتى يوجا فى مراحلها البدائية وهم لا يشعرون .

انهم يظنون أنهم يعبدون آلهة مختلفة وما ذلك الا وهم ، فهم جميعا يعبدون الها واحدا ويقدسونه ، الخالق المبدع لا اله الا هو الواحد الحق .

ان العقول المختلفة لها مناظير مختلفة ترى خلالهـا لله صورا متعـددة حتى ليبدو بعضها للناس مخيفا ولكن هذا كله لا يغير الواقع ولا يبدله . فالحقيقة هى هى والله لا اله الا هو لا شريك ولا مثيل له الواحد الدائم الأول الآخر .

وأيا كانت العبادة ومهما بلغت من البدائية والهمجية فانهـا تصعد الى الله بمشيئته وسواء كان الرمز الذى يتعبد له الناس حجرا أو عصا أو صنما أو شجرة أو حيـة أو ما أوحى خيال الانسان من صور يرسمها لما يعتقده ويتصوره الها له ، فان المعبود هو الله الدائم القوى العليم بكل شىء الموجود فى كل مكان ، فمن

عبده فى أعلى ما يتخيل من صفاته فقد أحسن صنعا شأنه شأن الذين وصلوا الى المراحل السامية الذين يعبدونه حق عبادته وعليه أجرهم ، وسيزداد ايمان المتوحش والعالم التقى مع الزمن اذ ينبسط عقل كل منهما عاما بعد عام ليتقبل نعمة الله ويتفتح ليسمح للمعرفة الروحية بأن تفيض عليه .

وواجب من أوتى شيئا ولو قليلا من العلم أن يأخذ بيد من هم أقل منه شأنا ان استطاع وان قبلوا معوتته وارشاده . ولكن ليس لنا أن نعير من هم دوننا ايمانا وعقيدة فهم اخوتنا فى الله يسيرون على الطريق شأنهم شأننا وما نحن وهم الا أطفال فى مختلف مراحل التعليم كل حسب سنه ونضجه ، كل يعمل على شاكلته ، يعمل ما يؤهله اه سنه ودرجته . كل له من الفهم ما يمكنه منه سنه ، كل يحاول أن يصل بما يعمله الى حد الكمال الذى يستطيعه ويتصوره .

يجب علينا ألا نسخر من أحد أو نتهم أحدا أو نبغض أحدا يجب أن يغمر حبنا كل اخوتنا حتى ولو كانوا لم يفتحوا أعينهم بعد على ضوء المعرفة . هذه بهاكتى يوجا فى احدى درجاتها .

بهاكتى يوجا تنقسم الى طبقتين عظيمتين أو فرعين :

فالأول (جونى بهاكتى) وهو مرحلة ابتدائية فيه يعبد الانسان الله ، الها شخصيا (Personal God) والثانى بارا بهاكتى وهو الأعلى

وفيه يعبد الانســان الله مجردا (Impersonal God) والواقع أن العبادتين تتجهان الى اله واحد وان كان مبلغ نضج أتباع المذهب الأول لا ييسر لهم العبادة المجردة فيجدون أنفسهم قد تخيلوا الها يصفونه ويعبدونه .

ولكل من الطائفتين درجات يختلف العابد فى أحدها عن زميله الذى فى درجة غير درجته طبقا لما بلغ كل منهما من نضج عقــلى وروحى .

وسنحاول أن نلقى ضوءا على هذين القسمين فى اختصار ولكن بما يكفى للتمييز بينهما والحكم بأنهما من جنس واحد وان اختلفا فان اختلافهما مرجعه درجة النمو العقلى والروحى .

الانسان البدائى مدفوعا بالغريزة الدينية ولعجزه عن التفكير المستنير فى الموضوع يرضى غريزة العبادة فى نفسه بتوجيهها الى رموز فجة فيعبد قطعا من العصى أو الحجارة ويعبد الرعد والبرق والشمس والقمر والنجوم والرياح وغيرها من ظواهر الطبيعة ثم يتطور الفكر الى الشعور بأن الاله لابد أن يكون شخصا ما فى صورة رجل بالغ الضخامة والكبر يعيش فى مكان ما من الفضاء حيث يرى ولا يراه أحد ويتصور العقل فى هذه المرحلة أن الله يتصف بنفس صفات الانسان الا أنه يفوقه فى كل صــفة قدرة وعظمة . ونظرا لأن الانسان فى هذه المرحلة من تطور البشرية يكون

قاسيا متعطشا للدماء فانه لا يستطيع أن يتصـــور الله الا متصفا بالقسوة محبا سفك الدم ، فان كان الانسان أسود اللون فالهه أسود اللون مثله وان كان مغوليا ففيه تقاطيع المغول وان كان هنديا أحمر فالهه كالهنود يصبغ وجهه بالحمرة ويحوط رأســه بالريش ويحمل قوسا وكنانة أسهم .

وان كان هنديا من جهلة الهنود فان الهه يركب ثورا أو فيلا وهو عار أو يكاد يكون عاريا وهكذا يتصف اله كل شعب بصفات ذلك الشعب ويتزيا بزيهم . كل أمة مندفعة وراء الغريزة الدينية تبتكر صورة لالهها ولا تخرج هذه الصورة المبتكرة عن صورة من ابتكروها أو ما انبته خيالهم وكل اله من هذه الآلهة المخلوقة على صورة البشر يحب من يحبه شعبه ويكره ما يكرهه شعبه ومن يكرهه ، وكل اله من هذه الآلهة وطنى متطرف فى وطنيته وحبه لموطن الشعب الذى يعبده متطرف فى كراهيته للبـــلاد الأخرى وأهلها .

وكثيرا ما تكون تلك الآلهة عجيبة الصورة والتكوين منها ما له عشرة أيد ومنها ما له رؤوس متعددة وعيون تنظر فى كل اتجاه وآذان مرهفة نحو كل فج لتحصى خلجات الأعين وهمسات الألسن ويتسلح الآلهة عادة بأســلحة عصرهم ومنهم من يخرج للصـــيد والقنص وكثيرا ما خاضوا غمار الحروب ينصرون المؤمنين بهم .

وتغضب الآلهة وتأكل قلوبها الغيرة ويثور بغضهم ويشتد حقدهم وكثيرا ما غيروا فكرهم وشعروا بالندم ، ومن الآلهـة من يحب الأخذ بالثأر . ومجمل القول أن آلهة هذا الطور من أطوار البشرية يتصفون بصفات البشر أنفسهم فى هذه المرحلة وكيف لا والناس الذين رسموا للآلهة صورا لا يستطيعون أن يتخيلوا الها يتسامى عنهم تساميا كبيرا وأنى لهم أن يرسموا مالا يدركون ؟!

هذه الآلهة تطلب من عبادها التملق والقرابين ولهم طائفة كبيرة من الكهان يتغنون بمديحهم ويرتلون لهم عبارات الخضوع والطاعة ويعول الشعب كهانه بأمر مزعوم من الآلهـة التى وهبت الكهان سلطانا ، فهى تسمع بآذانهم وتمنح النعـم استجابة لدعائهـم ، والشعب والكهان يرون فرضا عليهم أن يسبحوا بحمد آلهتهـم ويتغنوا بجبروتهم يتباهون بقوتهم ويؤمنون بأنهم قادرون على البطش بآلهة الشعوب الأخرى ، ومن صفات هذه الآلهة حبها أن يتمرغ عبادها فى التراب تحت أقدامها يعلنون عبوديتهم لها وكأنما هذه الآلهة تسير سيرة ملوك العصر وشيوخه .

وهذه الآلهة تسبغ الخيرات على الشعب ان هو أغدق القرابين وأجزل النذور وأوفاها فان لم تتقبل القـرابين وان لم ترض عن النذور لأنها ليست قرابين ونذورا سخية صبت على الشعوب من

ألوان العذاب والضربات ما يكفل الاسراع فى تقديم القدر الكافى من تلك القرابين .

وتحب هذه الآلهة رائحة اللحم المشوى رائحة لحوم الثور أو الشاة تقدم محرقة قربانا لها كما تحب رائحة البخور والند والعود ، وكثيرا ما تتطلب الآلهة بين الفينة والفينة دما بشريا يرش على مذبحها .

والآلهة ترسل الوحى لرؤساء الكهنـــة والويل لمن يشك فى الوحى أو يكذبه ! ان الكثيرين من الكهنة مخلصون أمناء ولكن الأكثر يستغل سذاجة الشعب فيتخذ منه بقرة حلوبا تهيىء لهم مترف العيش .

ولقد رسمت شعوب كثيرة آلهتها ونحتت لها تماثيل فاختلط الأمر على البسطاء من الشعب فلم يميزوا كثيرا بين الرمز والاله الذى نحت الرمز ليقربه لأذهان الناس فأغراهم الرمز لقربه منهم بعبادته فعبدوه وغاب الاله عن أنظارهم فاختفى من وعيهم فنسوه.

نحن لم نذكر هذه الأشياء بروح النقد الجارح أو السخرية اللاذعة فما لهذه الأحاسيس فى نفسنا أثر . انما ذكرنا هذه الحقائق لنرى الطالب وعورة المسالك التى اجتازها الانسان فى سعيه الى الله ، ومهما كانت الفكرة عن الله فجة بدائية ومهما كانت طريقة العبادة بربرية وحشية ومهما طمرت الخرافة جوهر هذه الألوان من

الديانات ، فان كلا منها خطوة من خطوات تقدم الانسان نحو اتحاده بالله ويجب أن ننظر اليها على هذا الأساس .

لقد طرح الانسان عن روحه حجابا بعد حجاب وانتزع عن قلبه قفلا بعد قفل وكلما نزع حجابا وجد ما تحته أقل منه كثافة وأقرب لأن يشف عما تحته ، ولا تزال عملية نزع الحجب هذه مستمرة تنتقل بنا من حالة الى حالة أفضل منها وهذا جزء من عملية التطور .

يشير الملحد المادى الى هذه الحقائق التى ذكرناها يؤيد بها رأيه فى فساد الديانات جميعا فان التاريخ يثبت فساد ديانة كل عصر فى رأى العصر الذى يليه وهو لا يدرك أن نظريته نفسها عن المادة والطبيعة ماهى الا خطوة أخرى من خطوات التطور الفكرى وان مركزه الحالى ما هو الا درجة من درجات السلم تماما كما كانت تلك النظريات والآراء السابقة التى سخر منها فى حاضره ، انه كالمتوحش وذراريه يبحث عن الله ولو أنه لا يدرك ذلك وهو يتمادى فى انكار وجود الله .

ان من يدرس الديانات يدرك من غير شك أن فكرة الانسان عن الله تنمو مع الزمن فهى يزيد أفقها اتساعا وتصبح أرق حاشية وأخطر قدرا وأكثر رحمة عاما بعد عام حتى وقتنا هذا اذ امتازت السنوات العشرون الأخيرة بتغير خطير فى هذه الناحية فلم نعد نسمع بأن الله يحرق صغار الأطفال فى نار أبدية وازداد ترديد ذكر

محبة الله ورحمته بدل الحديث عن نقمته وكراهيته للبشر لأنهم يخطئون . وبدأ التعليم يتجه نحو حب الله بدل الخوف من بطشه . وهذا التحول يسير حثيثا نحو أمور خير مما عهدنا ، ولكن يجب ألا ننسى أن كل طريقة من طرق العبادة وكل نحلة وكل مذهب أيا كان ما يبدو على تعاليمه من البدائية ، لها مكانها فى التطور الدينى للبشرية ، وان كلا منها يناسب المؤمنين به وعلى هـذا فيجب أن يقابل بالاحترام .

وكلما تقدم ادراك المؤمنين وارتفع عن مستوى نوع من تعاليم دينهم أسقط أئمة ذلك الدين من تلك التعاليم ما لم يعد يتناسب مع حال المؤمنين حتى تستقيم الأمور .

ان الأئمة عادة سابقون لماحون يرون ما لا يمتد اليـه بصر رعيتهم وتابعيهم فهم أبعـد منهم نظرا ولكنهم ينتظرون الوقت المناسب لادخال التعديل بالتدريج وان أشـد الديانات محافظة واستمساكا بقديم شرائعها لتبدو فى نظر السلف من أئمتها بدعا لما أدخل عليها بل وجحودا وكفرا . ان المذاهب والديانات تتطور فيسقط عنها من المعتقدات والتعاليم ما رثّ وبلى وظهرت للناس عيوبه وعوراته لتحل محلها أخرى يستسيغها النـاس ويتقبلونها بقبول حسن ومع ذلك تتمسك هـذه المذاهب والديانات رغم ما يطرأ عليها من التغيير بأسمائها القديمة .

مثلها كمثل قصة مدية الصبى التى تحطم نصلها مرة بعد مرة فركب لها فى كل مرة نصلا جديدا ثم تحطم مقبضها مرة بعد مرة فغير لها المقبض كل مرة ومع ذلك فان صاحبها يعتبرها مديتـــه القـــديمة .

كثيرون أدركوا فساد بعض التعاليم الدينية فخرجوا من حظيرة الجماعة وهم ينظرون باحتقار وازدراء الى أولئك الذين ظلوا ثابتين حيث كانوا هم الى وقت قريب ، وهـــذا خطأ فادح ، فان أولئك المحافظين على تلك التعاليم تمسكوا بها لأنها أصلح بيئة لهم وأنسبها لظروفهم وادراكهم ، فاذا نضـــجوا وسما ادراكهم خلعوا تلك التعاليم كما يخلع الثوب القديم ولحقوا بمن سبقوهم واقتفوا آثارهم ولو بعد حين . واستهزاء السابقين بالمتخلفين لايقل خطأ عن ثورة المحافظين على المجددين المارقين . واليوجى الحقيقى بين هؤلاء وهؤلاء ينظر الى الناس جميعا نظرة المواساة والحدب فالكل متجـــه نحو الله بغض النظر عن المرحـــلة من الطريق التى يجتازونها .

أما من لم يصلوا الى شيء من صفاء الروح فانهم يبرهنون على حبهم لله باظهار الكراهية لمن لايدينون بدينهم ومحاربتهم ، يتقربون بذلك الى الله ويكسبون رضاه فهم يظنون أن عدم ايمان غيرهم بما يؤمنون به أو اختلافهم معهم عليه افتراء على الله واهانة له

سبحانه وأنهم وهم عبيد الله يجب أن يثوروا لهذا الافتراء كأن الله محتاج الى مساعدتهم ليؤدبوا له من عصاه ، وكأنما الله فى حاجة الى نصرتهم له على أعدائه وحاشا أن يكون لله من خلقه أعداء سبحانه ، ان من بلغ من صفاء الروح أى مبلغ خليق بألا يرى مثل هذا الرأى الذى لا تستسيغه الا الطفولة وأن يرى أن حب الله يجب أن يكون حبا دائما وحبا صافيا توجبه صلة كل المتعبدين ببعضهم أيا كان نوع تعبدهم اذ أنهم زملاء فى السفر ، السفر على الطريق ، وان حب الله لا يمكن أن يكون سببا فى بغض أحد أو شىء .

أنواع العبادة التى تتخذ لها الها (شخصيا) سواء كان ذلك الاله اله المتوحشين الذى أشرنا اليه أو اله الرجل المستنير المتمدين، كل هذه الأنواع يشملها القسم الأول الذى ذكرناه من بهاكتى يوجا (جونى بهاكتى) .

فاذا أسقط الانسان من ادراكه كل فكرة الصور الشخصية عن الله انتقل الى القسم الثانى (بارا بهاكتى) حيث يكون الايمان بالله بمعنى أسمى وأرفع لا لأن الله تنقصه الشخصية ولكن لأنه يتسامى عن الشخصية ويتجاوزها لأنه يتعارض معها .

ان من يحب الله يستطيع أن يحبه كما يحب الولد أباه وأمه أو الرجل طفله أو صديقه أو المحب حبيبه فان صفات الله تشمل هذه الأنواع من الحب جميعا ولها القدرة على الاستجابة لكل نوع

منها ومقابلته بمثله وان كان المحب فى غير حاجة لأن يسأل الله مقابلة حبه بمثله ، فكما يغرق الانسان فى أشعة الشمس ودفئها اذا خرج اليها وعرض نفسه لها كذلك الرجل الذى يحب الله يغمره الحب الالهى ويكتنفه ويضفى عليه فضله وبركته ، فان مجرد حب الانسان لله يفتح مغاليق نفسه لفيض العطف الالهى . فمن وجد فى نفسه حاجة الى بر (الأب) وظل جناح رحمته فما عليه الا أن يفتح قلبه ليستقبل ذلك البر وأن يطوى نفسه تحت جناح رحمته فيغمره البر ويظله جناح الرحمة .

واذا أراد الانسان أن يبسط لله من الحب ما يبسطه الوالد للطفل فان هذا الحب كسابقه فى متناول يده . ولئن خشى الكثيرون أن يكون فى حب الله كما يحب الطفل شيء من الكفران حين يعدون الله طفلا فانهم يجدون فيه تسرية للهم عنهم تشبه الرضا بما يحسون به من استجابة الطفل لحبهم وتعلقه بهم .

ان الديانات الغربية لا تعرف هذا النوع الأخير من حب الله ولكنه ليس بالشيء الغريب فى الشرق وانك لتجد المرأة الهندية تلجأ الى التعبير الشعرى الهندى فتتحدث عن نفسها كأنها (أم الله) ومهما بدا هذا القول عجبا للعقل الغربى ، فما هو من هذه النسوة الا ايمان بأن الله يلبى كل حاجات القلب البشرى لأنواع الحب فيحب الانسان الله كما يحب صديقه وزميله وأخاه ويحبه الحب

المتأجج الذى يشتعل فى قلب المحب لحبيبه ويحبه كما تحب الأم طفلها وهذا أسـمى أنواع الحب وأكثرها ذيوعا فى قلب المرأة قلب الأم .

كل هذه الأنواع من حب الانسان لله معروفة لتابع بهاكتى يوجا بخلاف ما عرف الغـرب الذى لايرى الا أن يكون حب الانسان لله كحب الطفل لأبيه بينما يجد كل قلب بشرى فى بعض الأوقات حاجة ملحة الى حب كحب الأم ولدها يفيض عليه من عند الله . ليس الله ذكرا وليس الله أنثى سبحانه تنزهت ذاته وتعالت صفاته وما هاتان الصفتان الا نقطتين فى بحر صفاته ومظهرين من مظاهر قدرته وحكمته وكثير منهـا غيب لم يكشف لعلمنا حتى اليـوم .

اليوجى يعلم أنه بفضل حبه الدائم لله يقترب من الله شـيئا فشيئا حتى يصل فى النهاية الى معرفة صلته بالله والاحساس بها وتذوقها .

أما ما يحسه أصحاب (جونى بهاكتى) من حب الله فلا يقاس بما يحسه أتباع (بارا بهاكتى) من عارم الحب ولذة القرب وان مثل الأول كمثل حب الطفل لزميل طفولته ولعبه وهو يظن أنه يعرف طعم الحب ومثـل الثانى كمثل هـذا الطفل اذا بلغ هو وصاحبه الرجولة وأحس الحب كل منهما لزميله ، الحب العميق البرىء الذى يدفع الرجل الى افتداء صاحبه بروحه .

الأول يمس حبه لله ناحية واحدة على أحسن فرض بينما الحب الآخر يجعله يحس بأن الله يستجيب لكل نجوى ويحقق كل رغبة وانه يمس نفسه فى ألف ناحية وناحية انه يحيط به احاطة أشعة الشمس بمن يريدها فما عليه الا أن يخطو نحوها فتغمره بدون أن يطلب من الشمس أن تغمره بأشعتها ، كذلك يشعر صاحب (بارا بهاكتى) بحب الله ، ليست به حاجة الى أن يسأل الله فضلا انه غارق فى فضل الله .

ولا يحسبن الطالب الغربى أن هذا الحب شيء مما يراه فى اتباع بعض المذاهب من تلك النوبات الهستيرية الصاخبة ، فان أتباع هذه الفلسفة فى الغالب الأعم رجال يزينهم الوقار حظهم من العلم كبير . انهم لا يطوفون مهللين مكبرين ، انهم يسيرون فى دروب الحياة المختلفة يؤدون عملهم ويوفون التزاماتهم كغيرهم من الناس أحسن وفاء ولكن يملأ قلوبهم احساس بحب الله مقيم لا يريم ينبع من معين معرفتهم به وقربهم منه وحقهم فى الاتصال به وحقه عليهم بعد أن عرفوه .

انهم ثابتون فيه وهو ثابت فيهم انهم يحسون أنهم به يحيون وبه يغدون ويروحون وانه آناء الليل وأطراف النهار منهم قريب ، بل انه معهم أقرب اليهم من أجسامهم انهم ليسوا محترفى صلاح وتقوى مظهرى تهجد وتعبد ولكنهم فتية آمنوا بربهم يرونه فى كل

مكان وفى كل شىء وانهم بكل ما يؤدون من عمل يتعبدون له . انهم جادون فى السعى (لملكوت السموات) انهم يعلمون انها فى قرارة أنفسهم ومن حولهم . انهم يحسون كأنهم بين الملأ الأعلى فى كل لحظة ، أن عبادتهم لله دائمة فى كل مكان وفى كل وقت ، انهم يرون أن كل ما يعملون كسب لمرضاته لأنه بأمره ومشيئته وان كل مكان معبده لأنه فيه ، انهم يشعرون دائما بأن قوة الله تغمرهم وانها هى قوتهم لا قوة لهم الا بها وأنهم دائما بسمعه وبصره وانهم دائما فى حضرته . انهم لا يعرفون الخوف فقد ملأ الحب كل جوارحهم فلم يبق فيها متسع لغيره من الاحساسات لقد أقصى نوره كل ظل لكل شىء بغيض .

ان كل يوم من أيامهم أحد وكل وعر وسهل وحقل وبيت معبد لهم وفى نظرهم كل رجل وكل امرأة كاهن وكاهنة فى محرابه وكل طفل عاكف على هيكله انهم ينفذون ببصرهم خلال الجسد متخطين هذا الحجاب الكثيف الى ما وراء الجسد من روح .

ان اليوجى لا يؤمن بأن الله يطلب من الناس أن يحبوه وأنه يحتفظ بالخير والبركات مكافأة يغدقها على من يحبه وأنه أعد العذاب لمن يبخل بحبه عليه ويضن به فانه يرى فى هذه العقيدة ما يتنافى وما يعتقده فى الله من يعرفه حق معرفته .

انه يرى أن الله أجل وأعلى من هذه الأحاسيس التى توحى

بالمكافأة والعقوبة وهو يرى أن رحمة الله وسعت كل شىء وأنه حبه لخلقه جميعا حب لا تزيده عبادة ولا ينقصه كفران ، وهو يعلم أن الله لا يأمر الناس بتقديم خدمة له ولا يسألهم عبادة ولا خشوعا وان مثل الله عنده كمثل الشمس لا تنظر الى الناس تحرم منهم العاق من أشعتها وتسكب آشعتها على الطائعين انما تشرق على الجميع . كذلك فضل الله يصيب الناس جميعا لا يحرم منه حتى من يجحد وجوده ويكفر به .

ولكن اليوجى مع ذلك يعلم أنه قد أعد نعيم لمن أتى الله بقلب سليم ولكن ذلك النعيم ليس مكافأة له لرضـــا الله عنه انما هو نتيجة لعمل الانسان .

فكما أن المقرور يجد الدفء فى ضوء الشمس ان هو عرض نفسه لها والدفء فى هذه الحالة نتيجة خروجه الى ضوء الشمس لا لرضا الشمس بأن تدفئه كذلك يغمر النعيم من يبتغى فضل الله ورضوانه فيخرج بنفسه الى حب الله وابتغاء مرضاته ذلك الحب وتلك المرضاة التى أعدت للمتقين مقيمة لا تريم فى انتظارهم أنى شاؤوا ومتى أرادوا فمن تخلف عن الخروج الى دفئها استمر فى زمهرير الخوف محروما من نعمة ومغفرة وفضل عميم لا لأن الله غضب عليه فعاقبه ولكن لأنه لم يسع الى ما فيه خيره ورضى بالمقام غير الحميد ولا عجب اذن أن نجد فى كثير من كتابات الشرقيين

الرمز الى الله بالشمس فقد وجدنا هذا الرمز فى معظم ما قرأنا بما فى ذلك التوراة — والتوراة من كتب الشرق .

قد تبدو بعض هذه الآراء فى الله غريبة للغربيين ولكن الباحث المسيحى لو أنعم النظر لوجد هذه التعاليم سارية فى تعاليم المسيحية مسرى الخيط الذهبى الذى ينتظم حبات العقد فتعاليم المسيح مليئة بهذه الآراء التى اختفت على مر القرون لقد آمن المسيحيون الأولون بهذه الآراء كما يتضح ذلك من الرجوع الى ما كتبه آباء الكنيسة ولكن علماء اللاهوت أحاطوا تلك الآراء الأصيلة بطبقة سميكة من القذى أخفتها عن العين الا أن ينفذ البصر وراء هذه الطبقـــة .

اليوجى يصلى لله فى أول مراحل الطريق صلاة يحملها بمطالبه وحاجاته كأنما هو سائل يقف بباب الله يطلب حاجة بعد حاجة — حاجات مادية كلها فى الأعم الأغلب حتى اذا قطع من الطريق مرحلة فقرب بعض الشىء من النور بدأ يشعر أن صلاته هذه ليست وسيلة التقرب من الله فينتقل الى المرحلة التالية التى يسأل الله فيها العون على الهداية ويطلب منه القوة على بلوغ مرحلة الصفاء الروحى وهو فى هذه المرحلة يعتقد أن الله يثيبه على صلاته باجابة سؤله فيمنحه ما طلب من عون وقوة كما ينعم الملك على من يتوسل اليه بما طلب.

ولكن اليوجى الحقيقى — تابع بارا بهاكتى — لاينتظر أجرا

ولا يطلبه ومع ذلك فانه يحظى بأرفع الهبات فهو يعلم أن الصلاة لا تنفع الله ولا تساعده وأن الله غنى عن عبادته وثنائه وحمده ومع ذلك فان للصلاة أعظم الفائدة وفيها أكبر الخير للانسان لأنه بفضلها يقترب من مرضاة الله وفضله وتنسجم بها روحه مع الملأ الأعلى وتفتح مصاريع روحه لتيارات القوة والحكمة التى تغمر من يتقرب من الله مصدر كل قوة ومنبع كل حكمة . هذا هو سر الصلاة .

ان الرجل الذى يتجه الى الله بحرارة قلبه وعميق وجـدانه وروحه حين يصلى ينقل نفسه وروحه الى جوار الله حتى تمس روحه حجب العظمة فتنصهر بنارها وتصفو بنورها بغض النظر عن الكلمات التى تصاغ بها الصلاة ، ان الحالة النفسية والعقلية وقت هذه الصلاة هى التى تجعل الانسان ينتقل الى نوع من الاندماج فى قدرة الله وحكمته فتغمر الحكمة والقوة روحه . ومع ذلك فان أكثرنا يتعلق بالكلمات والآيات يرددها فى صلاته يجد فيها العون على هدوء العقل وشعوره بالرضا ولكن الكلمات ما هى الا وسائل لهذه الغاية ليس الله بحاجة اليها فان العقل المحدود — عقـل الانسان — اذا اتجه الى العقل الكلى غير المحدود استمد منه الحكمة من غير قول .

ولكى تؤتى الصلاة ثمارها يجب ألا تكون صادرة عن الشفتين كأنما هى ثرثرة ببغاء فهذه لا تؤدى الى فتح مصاريع العقل لتقبل

الحكمة الالهية ، يجب أن تكون الصلاة حديث قلب لقلب بين العبد وربه لا لأن الله بحاجة الى حديث يحمل اليه حاجاتنا فانه يعلم من أمرنا ما لا نعلم ولكن لأن حديث القلب يفتح شغافه فاذا تفتحت انصب فيها ما يملؤها عزاء وحكمة من فيض من تفتح القلب للحديث معه ، فان فيض الحكمة موجود دائما وما علينا الا أن ندنى أرواحنا وقلوبنا من سيلها الدافق وأن نفتح القلب والروح له فيمتلئان فضلا وحكمة . انه مجانا يعطى كالهواء والضياء ولكن يجب أن نرفع الحواجز التى بيننا وبينه تلك الحواجز التى أقمناها حين أبعدنا أنفسنا عن الله اذ تصورنا أنه بعيد عنا مع أنه منا قريب .

ناج الله كما تناجى أباك وأمك أو زوجك أو حبيبك ونجيك ، انه كل هؤلاء وأكثر وما أحسست أنه يقربك منه فعليك به .

آمن بقرب الله منك تجده قريبا ، وابثه نجواك كما تبثها لأقرب القلوب من قلبك تجده سميعا ان الله لا يتربع على عرش كملك يطلب منك أن تسجد أمامه ذلة وخضوعا وتلقى سؤلك عند قدميه .

ان الله يأمرك أن تقترب منه وأن تجلس اليه وأن تضع نفسك فى كنف رحمته وعطفه وأن يبث قلبك نجواك وشكواك وأن تذكر قصة همك وبلواك ولا تظن أن الله بحاجة الى رأيك فى تفريج

كربك أو مشورتك فى قضاء حاجتك انما ألق عليه همك ودع الأمر له مؤمنا بأنه سندك وأنه راعيك وهاديك ومرشدك يسدد خطاك لخيرك ويلقى السداد الى عقلك فلا يخطىء وهو يقويك ويعينك على ما فيه صلاح أمرك .

ان لم تجد من كربك مخرجا ولا لمشكلتك حلا وان لم تجد الطريق أمامك واضحا فاتجه الى الله بجوارحك فانه يفتح عينيك على الطريق فتسلكه وأنت آمن .

ليس هذا الذى نقوله وعظ كاهن مما اعتدت سماعه من كل منبر يلقى كالقاء الببغاء ، انه الحقيقة العظمى التى يحيا فى ضوئها آلاف السالكين . انك ان تسلك هذا السبيل تزدد مع الامعان فى السلوك شجاعتك وتقوى ثقتك فى هذا الطريق ، وترى أى أفق واسع تفتح لبصرك وبصيرتك .

ان لب الفكر فى بحث صلة الانسان بالله هو أن الله هو المصدر الأكبر للحياة . هو محورها وقطب رحاها هو مركز الدائرة ونحن ذرات فى الأشعة التى تنبعث من ذلك المركز . نحن لسنا منفصلين عنه ولكننا لسنا ذلك المركز نفسه اننا مرتبطون به ارتباط الأشعة بالشمس .

ان القوة والحكمة التى تفيض منه مع الأشعة المنبثقة عنه لنا ان نحن رضينا أن نتخذها عدة لنا ورضينا أن نمكنها من أنفسنا لتكون أنفسنا أداة لها .

ان العجلة الصغيرة المرسومة فى وسط الشعار الخاص بالدار التى تطبع هذه الدروس ، هذه الدائرة داخل المثلث تمثل هذه الحقيقة ولو أنه تمثيل قاصر دون الكمال لأن الأشعة المنبعثة فى الرسم تنتهى بمحيط الدائرة بينما أشعة الخالق لا نهاية لها ؛ ذلك لأن اللانهاية لا يمكن تمثيلها برسوم محدودة ، ولذلك رسمت حول الأشعة دائرة تمثل فهم الانسان المحدود .

اذا استطعت أن تتمثل هذا الرمز لله وما يصدر عنه من أشعة ، وجدت نفسك تتدرج فى ادراك هذه الحقيقة . المركز روح نقى . هو الله . واذا ما تفتحت روحنا اقتربنا من ذلك المركز وكلما ازداد الناس نموا فى الروح ازدادوا قربا وزادوا نورا ، وكلما بعدوا عن المركز ازدادوا مادية واظلاما ، وان هناك وراء كوكبنا . هذا عوالم أكثر بعدا من المركز فيها ذرات أمعن فى المادية مما تتخيل هنا على الأرض كما أن بيننا وبين المركز عوالم بها كائنات تسمو على ادراك البشر بمراحل ذلك بما اقتربوا من الله . والانسان فى حالته هنا بين بين انه وسط بين الملأ الأعلى الذى صفاه القرب وتلك الذرات المظلمة التى ما زالت بعيدا . بعيدا عن مركز النور . عن الله .

ان فوقنا كائنات نورانية الفرق بينها وبيننا كالفرق بيننا وبين الأسماك البدائية ، ومع ذلك فهذه الأسماك البدائية وما دونها من مخلوقات داخلة فى دائرة الحب الالهى متصلة بتلك الأشعة المنبثقة من الله .

فلم نخاف اذن ولماذا نفقد الايمان والشجاعة ، اننا لانفنى حين نموت ولا يمكن أن نمحى من الوجود ، اننا جزء من الكل العظيم، اننا فى حركة دائمة متجهة نحو الكمال نحو مركز الحياة وقطب الوجود ، أما سر الوجود وحقيقة الحياة فهى فى علم علام الغيوب وواهب الحياة وموجد الوجود ، كلما ازداد الانسان صفاء وقربا أشرق عليه ضوء ينير له ما يكتنفه من ظلام الجهل بأصل وجوده وهدف حياته فيزداد حكمة ويزداد قوة ، والحكمة والقوة من صفات الله يفيضان على من يقترب من حضرة الله مصدر القوة والحكمة فيتسربل بردائهما على قدر قربه واتصاله . هذه ومضة من نور المعرفة يبصرها من تفتح بصره ويسمع حفيفها من ألقى السمع وهو شهيد .

لا تحسبن حب الله يستوجب طريقة خاصة من الحياة يرضى عنها الله ، فما على الانسان الا أن يعيش كغيره من الناس يعمل فى أية مهنة ويسعد فى الحياة بكل طيباتها التى تقع فيما قدر له من أسباب لا يتشبث بشيء بعد عنه ولا يزهد فى شيء أتيح له ولا تظنن أن الله يرضى عن العابس المقطب جبينه أكثر من رضاه عن المرح الطروب . كن على سجيتك وفطرتك بغير تكلف ، هذا كل ما عليك.

ان الرجل (أو المرأة) الذى يحس حب الله يسرى فى كيانه خليق بأن يكون سعيدا مرحا يشرق حـوله نور يمشى بين يديه

اينما سار ولا جناح عليه ان صدح بالغناء أو هزه الطرب للرقص فرقص . فهذه الأشياء لا ضرر فيها اذا كان لنا عليها السلطان ولم يكن لها السلطان علينا . لنتمتع بالشمس والهواء والمطر ولنضرب فى السهل والجبل ولتكن الطبيعة بجمالها وجمال ما فيها من مشرق الشمس ومغربها مجلبة لسرورنا . ان اقترابنا من الله يزيد احساسنا بما حولنا من جمال ويجعل كل شىء مصدر سعادة لنا . ليكن شعارنا فى الحياة الرضا والمرح .

لقد رسم كاربنتر الشاعر الانجليزى فى احدى مقطوعاته ما يفيض من الفرح والانشراح على من يحس حب الله يسرى فى نفسه ويأنس بقربه من جلاله وعظمته اذ يقول :

« انى لأصحو خارجا من ندى الليل فأهز جناحى .

لم يعد للدموع والنواح وجود . والحياة والموت محدودان أمامى .

انى أشم عبير نسمات الأثير الحلوة تهب من أنفاس الله .

ان حياتى عميقة عمق الوجود . هذا ما أعرفه معرفة لا ينتزعها منى شىء . لا يستطيع شىء لى ضرا ولا أذى .

المرح والسرور يصحوان فأصحو أنا .

ترسل الشمس نحوى سهام ضيائها التى لا ترد فتتخللنى نشوة السرور بها فاذا جن الليل استنقذها منى .

انى أطير خلال الليل فأخترق جميع مجاهل العوالم ، والمفاوز التى أختزن فيها الموت والدموع منذ القدم ، ثم أعود منها ضاحكا مستبشرا ضاحكا .

اننا نمخر عباب الفضاء تحت لمعان النجوم على جناحين أنا والضحك الضحك الضحك » .

ان من يعرف الله حق معرفته وينعم بحبه متفائل أبدا .

انه ينظر الجانب المشرق للأشياء دائما .

انه يستخلص من أشد الأماكن ظلاما ضياء كالشمس .

انه يقطع مفاوز الحياة وعلى ثغره ابتسامة مشرقة وأغنية عذبة قوى الايمان بالله .

انه يحب الحياة ويحمل دائما رسالة الأمل واليقين والاقدام .

انه واسع الأفق متسامح رحيم برىء من الحقد والحسد والضغن بمنأى من الخوف والهم والغم ، انه لا يتعرض لما لا يعنيه ولا يفرق بين أحد وأحد من الناس .

انه ملىء بالحب يفيض منه على الجميع .

انه يسير فى دروب الحياة مستبشرا بما يلقاه ولو كان ما يلقاه يبعث الرعب فى قلوب غيره من البشر ، انه يتخطى العثرات ويجتاز العقبات التى تعترضه فى الطريق .

ان السلام الذى يكتنفه ينبعث من قرارة نفسه فيحسه من حوله من الناس .

انه لا يسعى لاجتذاب الأصدقاء والأحباء ، انهم ينساقون اليه بقوة جاذبيته .

انه فى أكواخ العمال وفى قصور الأغنياء كأنه فى بيته وبين ذويه لا فرق بين الكوخ والقصر ولا يفرق بين العامل والغنى .

انه أخ للقديس الورع والخاطىء الشرير يحبهما كليهما فهو يرى أن كلا منهما يعمل على شاكلته وأن كلا منهما ميسر لما خلق له . انه يبحث عما فى الشرير من خير وحسن أكثر من بحثه فى الورع عن مواطن الشر والضعف ولعلمه أنه غير خال من الشر ولا منزه عن الخطأ لا يقذف أحدا بحجر .

ان المنبوذ يرى فيه أخا له والمرأة التى جربت وذاقت حنظل الخطيئة واكتوت بنار العار وذله تركن اليه وتثق به لأنها تعلم أنه يقدر الظروف التى لا ترحم .

انه لن يحجب حبه عن أخ مهما انزلق فى مهاوى الشر ولا أخت مهما أظلمت الهاوية التى تردت فيها حتى يحجب الله رحمته وبره عن أشد الناس امعانا فى العصيان .

انه لا يدين أحدا فهذا عمل الله ولن تغتصب ما خص الله به نفسه .

انه يعمل ويتقن عمله ويجد فى العمل مسرته .

انه يحب أن يبتكر شيئا ينفع الناس تشبها بمبدع الأشياء .

انه لا يتعجل ولا يندفع لأن الوقت أمامه لا نهاية له . وهل للأبد نهاية ؟!

ان ايمانه بالله لاحد له ولا حد لايمانه بعدل الله ورحمته . وانه مصدر الخير كل الخير ولا شيء غير الخير .

انه يؤمن بقرب الله منه لأنه يحس يده تسنده .

انه أحس قرب الله منه فى ظلام الليـــل فلما أشرق عليه نوره تبينه فترة أقل من طرفة العين ولكن نار تلك الاشراقة تركت أثرها فى عقله .

انه مخلوق بسيط وادع شفيق ، انه نبوءة بالمستقبل . فاذا شئت أن تصبح مثله ، اذا شعرت بالدعوة فلا تتردد ولكن أجب الدعاء لبيك لبيك لبيك . اللهم لبيك انى عبدك بين يديك .

اذا أحسست الرغبة فلا تمانع ولا تعارض ولكن افتح للشمس مغاليق نفسك وتقبل أشعتها وسيكون كل شيء خيرا . لا تخف وتجمل بالحب الذى يقصى عنك الخوف ، ضع قلبك فى يد الله وقل « اللهم اهدنى . انك بعد آجال من الطواف تعود الى موطنك » .

لعلك تحسب أنك تحب الله ؟ تعلم كيف تحبه ، اصغ الى هذه الأقصوصة ثم انظر ان كنت تحبه حقا .

حدث ذات يوم أن أقبل تلميذ على أستاذه يسأله أن يعلمه آخر مراحل بارا (بهاكتى) وأسماها لأنه فى غير حاجة الى تعلم مراحلها الأولى لأنه قد حذق معرفة الله وعرف كيف يحبه .

وأجاب الأستاذ تلميذه بابتسامة .

وعاد التلميذ مرة بعد مرة يلحف فى الطلب ولا يظفر من الأستاذ بغير الابتسامة . وأخيرا نفد صبره وأصر على أن يعلم من أستاذه تفسير هذا المسلك الذى التزمه معه .

عند ذلك أخذ الأستاذ تلميذه الى نهر عظيم فدفعه فيه حتى غمره الماء . والتلميذ يحاول أن يتخلص من قبضة أستاذه وأن يطفو على وجه الماء ليتنفس فقد أوشك على أن يختنق فلما أشرف على الغرق تركه الأستاذ فخرج يملأ رئتيه بالهواء فلما استرد أنفاسه سأل أستاذه عن سبب ما فعل به فقال له :

أى بنى أى شىء كان أحب اليك عندما كنت تحت سطح الماء ؟
قال التلميذ : نسمة هواء .

قال الأستاذ : اذا أصبح حبك لله ورغبتك فيه كحبك لنسمة الهواء واشتهائك لها عندما كنت تحت الماء فعند ذلك فقط تصبح أهلا للمرحلة العليا من اليوجا التى تطلبها وعند ذلك فقط تكون محبا حقا لله .

وليكن السلام لكم .

الدرس الثامن

دارما (Dharma)

داوما كلمة سنسكريتية تترجم بكل من الكلمات الآتية : فضيلة . واجب . قانون . استقامة .

وما من كلمة من هذه الكلمات تحمل المعنى الدقيق لكلمة دارما . ونحن لا نستطيع أن نعدل هذه الترجمة الى ما هو خير منها ولكننا لكى نستطيع أن نلتزم أقرب تعبير عن معنى هذه الكلمة سنستعمل فى درسنا هذا عبارة (العمل الصالح) ولكن المعنى بالتحديد لكلمة (دارما) هو (خير طريقة للعمل والحياة تلائم حاجات روح الشخص وتفى أحسن الوفاء بمساعدة تلك الروح بالذات فى الخطوة العظمى التالية فى تطورها) .

فعندما نتحدث عن (دارما) انسان ما نقصد أرفع طريق للعمل يجب أن يسلكه . الطريق الذى يناسب درجة نضجه وحاجات روحه .

نحن نعتقد أن هذا الدرس قد آن أوانه وأن فيه اجابة لطلبات الكثير من الطلاب . نحن نسمع هذا السؤال من كل جانب : ما هو الحق ؟

ان الناس لا ترضيهم الاجابات القديمة التى كانت تناسب الماضى والتى كانت تسوى فى الأهمية بين بعض الشكليات والطقوس والتقاليد (المرعية) وبين العمل الصالح والتفكير الصحيح ان لم تفضلها عليها .

ان الباحث الحصيف الناضج يبين لنظره سخف التقسيم القديم بين الحق والباطل ويعلم أن أشياء كثيرة باطلة اعتبرت (باطلا) أو (حراما) لأن رجالا مخصوصين حكموا استبدادا عليها بأنها باطلة وان أشياء كثيرة اعتبرت حقا أو حلالا لنفس السبب .

ينظر حوله فيرى أن الحق والباطل يختلفان باختلاف المكان وان تقدير الحق والباطل يتغير باستمرار على مر العصور بالتعديل والالغاء ولهذا فان الطالب اليوم يتعرض للحيرة فيما يتعلق بدستور الاخلاقيات فقد ضاعت منه القيم والمقاييس والمعالم القديمة وليس يدرى بأى ميزان يزن الحق والباطل أو الحلال والحرام فيفرق بينهما .

فهو من جانب يجد الفلسفات القديمة تقرر مراعاة شكليات واتباع طقوس استبدادية لا يقرها العقل وتأباها الروح لأنها سمت عن مستوى تلك الترهات .

وهو مع ذلك لا يستريح لما يسمعه من الجانب الآخر جانب المحدثين الذين يقولون ان (كل شيء حسن وصالح) وكثيرون من

هؤلاء المحدثين لا يدركون معنى هذا القول ، وهذه النظرية أو الفلسفة الحديثة لا ترضى الطالب العادى فان فطرته ووجدانه يدلان على أن هناك أشياء صالحة وأخرى سيئة وان من الطرق ما هو خير ومنها ما هو شر ولو أنه لا يستطيع أن يحدد السبب الذى يعتبر من أجله الشىء خيرا أو شرا ، انه فى حيرة من أمره .

ومما يزيده حيرة على حيرته أنه يدرك ادراك اليقين أن ما يبدو له حقا صراحا لا يبدو كذلك للبعض ممن حوله الذين لم يبلغوا مبلغه من صفاء البصيرة فلا يستطيعون أن يؤمنوا بما آمن به من مثل ومبادىء .

وهو يتبين أن ما قد يكون صالحا لهؤلاء الذين لم يبلغوا مبلغه لأنه خير مما يعملون يكون سوءا بالنسبة له ان فعله فقد ارتد على عقبيه ومن ارتد فقد ساء سبيلا .

وشىء آخر : انه يرى هؤلاء الرجال الذين لم يتقدموا على الطريق يعملون الحسنة ويمتنعون عن السيئة طمعا فى عشرة أمثال الحسنة وخوفا من العذاب أن قارفوا السيئة وذلك فى نظره أنانية لا تجمل بمن يعمل الحسنة لأنها حسنة والاحسان للاحسان لا يبغى جزاء ولا شكورا وهو مع ذلك يسلم بضرورة احتياج هؤلاء المتخلفين الى ما يحفزهم للخير والى ما يمنعهم عن الشر لأنهم لا يسمون الى ما فوق ذلك من دوافع .

هذه المشاكل ، وغيرها مما لا يحصى ، تقوم فى وجه الطالب فتحيره وتجعله يشعر بأن ما كان يقف عليه من ركائز الايمان قد ماد تحت قدميه دون أن يجد عنها بديلا يرسى عليها أقدامه ونحن نعتقد أن هذا الدرس المتواضع من فلسفة اليوجا الذى يطلق عليه (دارما) سيساعده على أن يتلمس طريقه . انه سيسدد خطاه على الطريق الذى أخفته عن ناظريه فى وقته هذا ومرحلته هذه أشواك نمت على الطريق حتى حجبته فضل عنه . ولئن كان الموضوع أكبر بكثير من أن نلم بأطرافه فى هذا المقام فاننا نرجو أن نوفق لتحديد القليل من القواعد العامة والخطوط العريضة والمقدمات التى يستطيع الطالب أن يسير عليها ويقتفى آثارها حتى يصل الى نتائجها المنطقية المحتومة .

فلننظر نظرة موجزة خاطفة الى مسألة الاخلاقيات عامة Ethics وبعض النظريات أو المبادىء المقررة فيها .

الاخلاقيات أو الأخلاق تعرف بأنها (علم السلوك) وهى تعالج مشكلة جعل العلاقات بين الرجل والمجتمع منسجمة ، وفى الغرب ثلاث نظريات هى :

أولا — نظرية الديانات المنزلة والسلطان فيها لله .

ثانيا — نظرية الالهام والسلطان فيها للضمير .

ثالثا — نظرية المنفعة والسلطان فيها للعقل .

والمتبع فى الغرب أن صاحب كل نظرية من هـذه النظريات الثلاث يؤمن بأن مذهبه هو وحده الحق وما عداه هـراء ، أما فلسفة اليوجا فانها ترى الحق فى كل من هذه النظريات والمذاهب على السواء ولكل منها مكانه فيما تسـميه (العمل الصـالح) (دارما) وحتى نكون فكرة صحيحة عنها يجب أن نلقى نظرة عاجلة فاحصة على كل من هذه المذاهب الثلاثة .

(فالأخلاق) عند أصحاب الديانات المنزلة تجعل أساس طهارة السيرة والاحسان (نقصد حسن السيرة لا الصدقة) ما أنزل الله على الأنبياء والرسل ومن تبعهم من الكهنة والشيوخ والأستاذين وان اختلفت أسماؤهم ونحلهم .

والشرائع والسنن التى رسمها الأنبياء نزلت عليهم وحيا من عند الله وقوبلت بالسمع والطاعة على درجات متفاوتة من ايمان الشعوب بها فى مرحلة أو أخرى من مراحل تطورها ، ومع اختلاف كبير فى تصور هذه الشعوب لله الذى أنزل تلك الشرائع والذى من عنده نزلت .

وهذه الشرائع جميعا تشابهت الأسس التى أرسيت عليها وان اختلفت التفاصيل اختلافا شديدا .

فكل من الكتب السماوية الكبرى جاء بمجموعة من الشرائع والقوانين شاملة لمبادىء الأخلاق فرض على المؤمنين الايمان بها

وتصديقها والعمل بموجبها لا جدال فيها ولو لم تقرها أو بعضها عقولهم وتفسير هذه الشرائع متروك لأئمة الدين دون غيرهم من الشعب .

يرى كل قوم أن دينهم الذى نزل به كتابهم على الرسول الذى بعث فيهم هو دين الحق وأن الدين كله بعد دينهم باطل . ومع ذلك فقد اختلف كهنة كل دين فيما بينهم واختلف شيوخ كل دين فى تفسير نصوص كتابهم ، وأدى اختلافهم الى أن أصبح كل دين شعبا ومذاهب ، وتباينت الآراء فى تفسير كل شيعة لما أنزل عليهم . وتصر كل شيعة على أن تفسيرها هو الصحيح الذى يستند الى ما أنزل على رسولهم وأن هذا الذى أنزل هو وحده الحق .

ومع الزمن والتطور عادت كل شيعة الى ما بأيديها فحرفت الكلم عن مواضعه ليلائم التطور الذى وصل اليه الشعب ، فحاجات كل شعب تتغير مع تطوره ، ولا بد أن تأخذ التعاليم الشكل الذى يناسب الحالة بعد أن تبدلت . فيقول الشيوخ ويقول الكهنة فى هذه الحالة ان الله أراد بهذا القول (كذا وكيت) لا (كيت وكذا) كما قال السلف أو كما يظن أنهم قالوا ، ومع مضى الزمن تصبح مبادىء الأخلاق وقواعد السلوك وقد استندت على التفاسير لا على ما أنزل .

ويحتج أتباع المذهبين الآخرين — مذهب الالهام ومذهب

العقل — على ما انتهى اليه أمر أصحاب الديانات السماوية بقولهم: لو أن الله أراد أن ينزل دينا بقانون للأخلاق والسلوك يطبق على جميع الناس فى جميع العصور لوضعه فى صيغة واضحة جلية لا يستعصى ادراكها على أشد الناس غباء وجهلا ، وأنه سبحانه يعلم من غير شك أن البشر يتطورون مع الزمن وان حكمته سبحانه وعلمه بما سيحتاج اليه الناس من تطور فى قانون السلوك كانت تقضى بأن يضمن ما أنزل ما يحتاج اليه الناس فى مستقبلهم وقت نزوله على الرسول أو فى رسائل متواترة . وسنعود الى بحث هذا المذهب فيما بعد .

وننتقل الى النظرية الثانية نظرية الالهام .

يرى أصحاب هذا المذهب أن الانسان يعرف الخير والشر بالالهام وأن الله جعل فى كل انسان قدرة غريزية تميز الخير من الشر ومركز هذه المعرفة الضمير وأنه بدافع من ضميره يتحكم فى نفسه .

وهذه المدرسة تقول بأن كل انسان يجب أن يحكم ضميره فى تصرفاته جليلها وتافهها ، متجاهلة حقيقة مسلما بها هى أنه لا يمكن أن ينطبق ضميران لشخصين مختلفين على بعضهما تمام الانطباق . والأخذ بهذا المذهب من شأنه أن يجعل عدد مبادىء الأخلاق بعدد أفراد المجتمع ، لأن لكل فرد ضميرا يختلف كثيرا أو قليلا عن

ضمير الآخر ، ويتبع ذلك أن تختلف المثل العليا ويتسع الخلاف الى ما لا نهاية له وبذلك يكون لأى فرد أن يفعل أى شيء ما دام (ضميره يرضاه) لأن الضمير عنده هو الناموس ، وقد اختلف أصحاب المذهب أنفسهم فى تحديد الضمير وماهيته .

فقال جماعة ان الضمير هو الجانب الرفيع من العقل يتحدث الى الانسان .

وقال آخرون انه العقل الباطن يردد ما ألقى اليه وان الضمير لذلك يزداد وينمو مع التجارب والخبرة وانه يتغير بتغير البيئة .

وقال آخرون انه صوت الله يتحدث الى الروح .

وقال غير هؤلاء بغير هذا مما سنعود الى تفصيله فى مكان آخــر .

أما أصحاب المذهب الثالث والأخير أصحاب نظرية المنفعة التى تسمى أحيانا بالمذهب النفعى فهم يقولون بأن الفضيلة هى ما تمليه المصلحة ، وقيل فى تعريفها (سعادة الأغلبية يجب أن تكون أساس جميع الدساتير الاجتماعية والسياسية) وهذه هى النظرية التى تبنى عليها القوانين الوضعية . وقد قال بلاك ستون الشارح الكبير للقانون الانجليزى ان القوانين البشرية وضعت على أساس (قانون الطبيعة) The law of nature ، وهو يقول ان قانون الطبيعــة هذا يرتكز على القوانين الالهية ، القوانين الازلية التى لا تتبدل

ولا تتغير ، قوانين الخير والشر التى جعل الله الانسان يدركها بعقله . ويستمر بلاك ستون فيقول ان قانون الطبيعة هذا لأنه خلق مع الجنس البشرى موازيا له ولأنه من وضع الله سبحانه ، له السيادة والأسبقية على كل ما عداه . وليس لأى قانون بشرى وضعى قيمة ولا اعتبار اذا تعارض مع قانون الطبيعة . وان كل قانون من هذه القوانين البشرية ان كان سليما (valid) انما يستمد كل قوته وكل سلطانه مباشرة أو بالواسطة من هذا الأصل .

هذا كله يبدو سهلا جميلا يستدرج الانسان الى أن يعجب لأمر هذه المدنية كيف لا تجعل الحياة على الأرض نعيما حتى اذا تذكر كيف تسن القوانين فى هذا العصر الحديث وكيف تنفذ وعلم انها ما هى الا قوانين العصور الماضية مع تحسين بسيط زال عجبه.

انه لسهل أن تتحدث عن (قانون الطبيعة) ولكن ما أعقد تطبيق هذا القانون على واقع الحياة وتنفيذه فيها ، وقد تبين بلاك ستون هذه المعضلة فهو يقول : (لو أن عقلنا كان دائما صافيا كاملا لكان الأمر سهلا وجميلا ولما احتجنا دليلا سواه وهاديا . ولكن الذى انتهى اليه الانسان بعد التجربة والاختبار هو أن العكس هو الصحيح . ان عقله غير صاف ، انه مشوش التفكير خاطىء الفهم والتقدير ملىء بالأخطاء يسوده الغباء والجهل) .

ان من خبر شئون القضاء واجراءات المحاكم يتفق مع الفقيه الانجليزى الكبير فيما وصل اليه من الحكم .

صحيح أن قوانين أية أمة انما هى صورة لخير ما وصلت اليه مثلها الأخلاقية ، ولكن صحيح أيضا ان هذه المثل الأخلاقية تتطور بسرعة أكبر من السرعة التى تعدل بها القوانين . ولذلك فان هذه القوانين تكون دائما متخلفة عن الوقت الذى تطبق فيه بالنسبة لما يراه الناس صوابا وما يرونه خطأ ، انها دائما متخلفة عن الرأى العام ، وهذا التخلف يجعل فى القانون منافذ ينفذ منها من يريد الخروج على القانون اذا أراد أن يعتدى على أى من مبادىء الأخلاق التى تطور اليها المجتمع بدون أن يقع تحت طائلة القانون لقصوره عن تناوله لأنه — كما قلنا — متخلف لم يدركه التعديل الذى يجعله ينطبق على هذا الخارج عليه . يرى بعض الناس فى الأخلاق رأيا يلتزمونه ، ذلك الرأى هو أنه لا خطأ ولا ذنب فيما لا يتعارض مع حرفية القانون ، وهم لذلك يدبرون ويأتمرون مستندين الى المستشار القانونى البارع الذى يستخدمونه ليصلوا الى أهدافهم بما يصون نص القانون وهم ينتهكون روحه ، وما دام القانون لا ينال تصرفاتهم بالعقوبة فهم فى نظر أنفسهم شرفاء تستريح ضمائرهم الى ما اجترحوا ما داموا آمنين غائلة القانون .

لقد حدد جستنيان المشرع الرومانى العظيم القانون البشرى فى ثلاث نقاط :

أن تعيش بأمانة . ألا تضر أحدا . وأن تعطى لكل ذى حق حقه .

هذا قانون بسيط جميل واتباعه بأمانة كفيل بأن يصلح العالم فى يوم وليلة . ولكن كل انسان يفسر كل مبدأ من هذه المبادىء الثلاثة بما يتفق ومصلحته الخاصة ولو تعارض التفسير مع مصالح الغير . وانه لمن العسير على الانسان فى حالة العالم هذه آن يحدد تحديدا دقيقا كيف تكون الأمانة التى بموجبها يتحاشى الانسان الاضرار بالغير ، أو التى باتتهاجها يعطى كل ذى حق حقه ، أو حتى معرفة ما لكل واحد من حقوق حتى يعطيها له .

على أننا نشير مرة أخرى الى ما وضعه جستنيان قاعدة لمدى ادراك العقل للسلوك القويم فهى قاعدة يقرها كل ذى لب سليم يريد أن يبرىء ذمته من حق كل ذى حق وان لم يسم الى الآفاق العليا لتعاليم الطريق .

ولكن حتى أولئك الذين يستطيعون أن يسيروا السيرة التى رسمها جستنيان يجدون أنفسهم عاجزين عن ارضاء الناس الذين يتطلبون مراعاة بدع كثير منها يدعو الى السخرية ولكنها بدع أدخلت على الشرائع الواجب اتباعها ولا نريد أن نتعرض لما توجبه السلطات المدينة بأوامرها ونواهيها . وأصحاب فلسفة المنفعة هؤلاء يختلفون فيما بينهم فى أصل قواعد الاخلاق وتاريخها ونشأتها . فيقول بعضهم ان هذه الاخلاق أقرها العقل بتوجيه الله وأمره بينما

يقول البعض الآخر مؤثرا التفسير المادى البحت ان القانون والتقاليد والأخلاق انما هى وليدة تطور الانسان ونتيجة تجاربه تجربة بعد أخرى ، كل منها تعدّل ما سبقها الى أن وصل الانسان الى ما هو عليه الآن . وواضح أن هذا البعض يرى أن القانون والتقاليد والفضائل انما مرجعها كلها العقل البشرى ، لا أثر فيها لقانون سماوى ولا لوحى الهى ولا لمعرفة روحية . وأمام هذه المدرسة وخير من شرح قواعدها العالم الانجليزى هربرت سبنسر فى كتابه حقائق الأخلاقيات The data of Ethics فانه تحفة خالدة فى البحث العقلى على هذا الأساس .

(دارما) تعترف بالمذاهب الثلاثة وتحل كلا منها محلا كريما فى اعتبارها لأنها ترى فى كل منها قبسا من الحق ، وترى أن ثلاثتها ان مزجت ببعضها وربطت بينها التعاليم الروحانية كونت كلا مترابط الأجزاء . وسنبين كيف تتلاقى هذه النظريات ، المتباينة فى ظاهرها ، وتتفق . ولكن لعله من الخير قبل هذه المحاولة أن نلقى نظرة أخرى على كل من هذه المذاهب نحلل فيها ما يوجهه كل مذهب الى المذاهب الأخرى من انتقاد وطعن فى صحتها واتهام لها بأنها قاصرة عن الكمال المنشود لنصل بعد ذلك الى ما فيها جميعا من قوة اذا اتحدت تمشت مع قوانين (دارما) . وسنأخذ هذه المذاهب واحدا بعد واحد حسب ترتيبها :

١ — نظرية الوحى (الكتب المنزلة) :

الاعتراض الأساسى الذى يوجهه خصوم هـــذه النظرية من أنصار المذاهب الأخرى اليها هو أنه ليس هناك دليل أو برهان على صحة الوحى .

يقول أصحاب مذهب العقل والمنفعة ان هذه الأوامر السماوية ان كانت تتفق مع مصلحة الشعب لا مع مصلحة الكهنة الخاصة — فهى نتيجة تفكير النبى السليم ذلك النبى الذى كان عملاقا يبز معاصريه من بنى جنسه فى عقله وتفكيره ، وان ذلك العقل الجبار أدرك ما فيه الخير لشعبه ، وانه صاغ بثاقب ادراكه مجموعة من الأوامر والنواهى قائلا انها هبطت عليه من عند الله ليكون تقبل الناس لها وائتمارهم بأمرها وانتهاؤهم بنهيها أتم مما لو قال انها من أمره ونهيه .

ويقول أصحاب مذهب الالهام أن ما يسمى بالوحى والشرائع السماوية انما ينبع من ضمير النبى وبالهام روحه وان النبى وهو انسان بلغ من التقدم الروحى ما لم يبلغـــه معاصروه كان أكثر استماعا الى صوت روحه منهم الى أصوات أرواحهم وانه كان يعتقد أن صوت ضميره وحديث روحه هو صوت الله ووحيه ، ولذلك فانه كان يبلغ رسالته للناس على أنها من عنـــد الله وكان معاصروه يجدون لما يقوله صدى فى ضمائرهم فيؤمنون بما أبلغهم على أنه وحى الله حقا .

واعتراض آخر يوجهونه الى نظرية الوحى : ذلك أن هناك أكثر من وحى ، وان كل وحى يختلف عن الآخر اختلافا بينا وان كل نبى واتباعه يختلفون مع النبى الآخر وأتباعه ، وان الله سبحانه لو أراد أن يرسل وحيا للناس فيه ما يعملون وما لا يعملون ، يبين فيه الحسنة والسيئة فيتبعون الحسنة ويمتنعون عن السيئة ، لأرسل وحيا واحدا لا خلاف فيه ، وحيا من السهل أن يعرف الناس انه وحى .

ويمضى الاعتراض فيقول : انه من المستحيل التسليم لاحدى هذه الديانات الموحى بها بأنها هى الحق دون غيرها لصعوبة اختيار واحدة من هذه الكثرة من الديانات ، لأن نبى كل ديانة يصر على أنه تلقى الوحى من الله ، وليست هناك محكمة عليا لها الكلمة النهائية فى الفصل بين هذه الديانات المتنافسة .

ويقولون ان بعض الأوامر التى تنسب الى الله ليس فيها ما يمت الى الأخلاق بصلة ، وانما هى تتصل بشكليات فى شئون الناس كطريقة ذبح الحيوان مثلا ، وتحديد ما يؤكل من الأطعمة وما لا يؤكل ، وطقوس مختلفة للعبادة واحتفالات دينية وغير هذه كثير مما توجبه الأديان وتلزم الناس باتباعه على أنه من الدين والأخلاق وان اتباعه حلال واهماله حرام وللحلال ثواب وللحرام عقاب .

كذلك يقولون ان الأوامر السماوية تجعل قتل الأعداء فى وحشية تمنعها القوانين الدولية الآن عملا من أعمال البر والتقوى والتقرب الى الله ابتغاء مرضاته وهو الآن عمل همجى لا تقارفه الا الشعوب البدائية المتوحشة.

ويقولون ان ضمير الانسان الآن أصبح فى مستوى أعلى من المستوى الذى رضيه الله للناس ويضربون المثل بالرق وغيره مما يسوقونه ضد الديانات السماوية بالاضافة الى اعتراضهم الأساسى وهو ان لا دليل على صحة الوحى ، وأن ما سمى بالوحى ما كان الا نابعا من عقل النبى وأنه أذيع بين الناس اما لمصلحة الناس ورخائهم واما لحفظ نفوذ الكهنة ورجال الدين والابقاء على مصالحهم أو للسببين معا.

وفلسفة اليوجا تبحث هذه الاعتراضات وتجيب عليها كما سنرى فيما بعد.

٢ — مذهب الالهام (الضمير):

والاعتراض الأساسى الذى يوجه الى هذا المذهب هو أن الضمير انما هو نتيجة لما بلغ الانسان من علم يتأثر بما للبيئة الجنس والتهذيب والسن وغير ذلك من أثر فيه. وأن ضمير انسان قد يمنعه من قتل بعوضة بينما يرى انسان آخر غاية الصواب فى قتل عدوه والتمثيل به. وان الضمير قد يدفع صاحبه الى أن

يتقاسم ما بيده مع أول عابر سبيل ويرى أنها خطيئة أن يحتفظ لنفسه بملكية شيء مهما قلت قيمته بينما يبيح ضـمير النشال واللص اقتناص كل ما تصل اليه يده من مال الغير وربما أنبـه ضميره وأقض مضجعه لأنه ترك فرصة للسرقة تفلت من يده .

فمن الناس من لا يختلف ضميره عن ضمير الهرة التى لا تجد حرجا فى سرقة قطعة لحم أو جبن لا يمنع من خطفها الا خوف العقـوبة .

ان من درس طبيعة البشر وتاريخ الشعوب يعلم أن الضمير مرتبط بالجنس والعصر والحضارة والبيئة حتى انه ليرفض أن يجعل ضمير أى انسان العمدة فى وضع قانون للأخلاق للانسانية قاطبة تسير عليه كل الشعوب فى كل العصور .

فقواعد الأخلاق التى توضع استجابة لالهام ضمير رجل غير متحضر تكون بعيدة كل البعد عن أن تصل الى مستوى الرجل العادى فى عصرنا هذا . بينما تكون القواعد التى يمليها ضمير رجل صفت روحه وحلق فى سماء التقوى أرفع بكثير من مستوى الرجل العادى أيضا لما توجبه من مثل عليا يمليها ذلك الضمير الرفيع . وكم من أعمال قارفتها الشعوب ارضاء لضمائرها ونحن نرى فيها اليوم ذنوبا لا تغتفر . كم عذب الناس فأحرقوا أحياء ومزقت ألسنتهم وجلودهم لعقيدة يعتقدونها فذاقوا النكال ارضاء لضميرهم بينما

معذبوهم ومضطهدوهم يصبون ألوان العذاب ارضاء لضميرهم هم الآخـــرون .

اذا ترك الحكم للضمير كانت النتيجة أن تذيق الغالبية الأقلية سوء العذاب كما يحدثنا التاريخ كلما استمعنا الى حديثه ، واذن فنظرية اعطاء السلطان للضمير والهامه على أنه السلطان الذى لايخطىء والواجب الاتباع نظرية عليها ألف مطعن ومطعن ، ومع ذلك فان فلسفة اليوجا (دارما) مع اقرارها بصحة تلك المطاعن ترى هذه النظرية صحيحة من نواح ، وهى لذلك تدخلها فى حسابها وتدمجها فى جهازها وسنبين ذلك بعد قليل .

٣ ــ نظرية العقل (المنفعة) :

وهذه النظرية الثالثة الأخرى يهاجمها خصومها لأنها مبنية على الأنانية وحب الذات ، لأنها تقول ان أســاس الأخلاق يجب أن يكون السعادة ــ سعادة الفرد مشروطة بسعادة من حــوله ــ سعادة أكبر عدد لأقصى حد ، وهذا أساس لا يعنى بالمصير الأعلى للانسان لأنه مبنى على الماديات الدنيوية دون السعادة الروحية .

ويرد أصحاب هذه النظرية بأن كل نظرية أخرى فيها الكثير من الأنانية وحب الذات وان الرجل الذى يرغب فى أفعال ويعرض عن أضدادها ابتغاء مرضاة الله وما فى أذيال ذلك من نعم وبركات أو فردوس وجنات ، واتقاء غضب الله وما يجره من عذاب وجحيم ،

انما يفعل ذلك مدفوعا بأنانيته شأنه شأن من يسعى لكسب السعادة الدنيوية ويتقى الشقاء فى هذه الحياة .

وخصوم هذه النظرية يهاجمونها بقولهم ان الانسان فى سعيه وراء ما ينفعه يندفع حتى يحتفظ لنفسه بالكثير فيسعد هو ويشقى غيره ، وما الذى يمنعه من ذلك ما دام ينفذ القانون حرفيا لا يحيد ولا يزيد . والقانون يبيح له ما يفعل .

ويقولون كذلك ان هذه النظرية وان كانت تليق بالانسان فى مراحل الصفاء الروحى ، الا أن الرجل العادى ان سار عليها جعلها مطية لأهوائه ، غير عابىء بمصلحة غيره ولا بمصلحة الأجيال القادمة . فهو يرى فى الرجل الذى يضحى مصلحته لأهداف الخير والانسانية أبله أو معتوها لأنه يلقى بسعادته فى الهواء استجابة لنزوة أو جريا وراء خيال .

وكذلك يقول خصوم هذه النظرية ، نظرية سعادة أكبر عدد ، ان وجود القلة البائسة المحرومة من السعادة وصمة فى جبين هذه النظرية ، وان سعادة الكثرة لا يمكن أن تكون سعادة حقيقية صحيحة وعلى مرأى من الكثرة تلك القلة المعذبة مهما قلت ولو كان المحروم من السعادة انسانا واحدا .

ويقول أصحاب الديانات السماوية ان كفر أصحاب هـذه النظرية بالله وانكار وجوده كاف لهدم هـذه النظرية . ويقول

أصحاب الالهام (الضمير) بفساد هذه النظرية لاهمالها للضمير ، وجعل الحكم للمصلحة والمنفعة فقط ، وجعل العقل وحده هو الذى يحكم على شىء بأنه صواب أو خطأ مع أن العقل ينظر الى الأشياء نظرة تختلف باختلاف العصر والبيئة ودرجة الحضارة والمصلحة الشخصية وغير ذلك من المؤثرات التى لا تستقر على حال.

وفلسفة اليوجا (دارما) تنظر الى هذه المآخذ جميعا بعين الاعتبار ولكنها ان رأت أن نظرية العقل ليست هى كل الحقيقة فان لها من الحق نصيبا ، انها أحد الأعمدة الثلاثة التى يرتفع عليها صرح الحق ، وهى ترى أنها والنظريتين الأخريين دعامات الحق لا غنى لواحدة عن الأخرى .

دارما تقول انها تستطيع التوفيق بين هذا التناقض والتنابذ فهى تعرف أن كل نظرية صحيحة من ناحية وتستطيع أن تنهض بجزء من العبء ولكنها بمفردها تعجز عن القيام بالعبء كله . فهى تأخذ من كل نظرية شيئا فتبنى من هذه الأشياء مجتمعة بناء كاملا متماسك الأركان وبذلك توفق بين النظريات المتعارضة .

أو هى ترى فى الكون بنيانا كاملا وانما لا يرى أصحاب كل مذهب من ناحيتهم الا الدعامة التى يقوم عليها جانب من جوانب ذلك الكيان الكامل فيظنونها الدعامة الوحيدة للبناء كله ولا يرون دعامتى الجانبين الآخرين فيجحدون وجودهما ويتهمون من يتحدثون عن أيهما بالجهل والكفر .

وهكذا ينظر أصحاب كل من المذهبين الآخرين الى مخالفيهم ويتهمونهم بنفس التهمة ولكل منهم بعض العذر لأنه يرى جانبا واحدا يظنه الكل وما هو الا جزء فقط .

وشعوب الغرب اليوم فى أشد الحاجة الى تعاليم (دارما) هذه لما هم فيه من اضطراب روحى وعقلى وخلاف على مثل الأخلاق وآداب السلوك ، فهم شيع ثلاث :

الأولى — الذين يؤمنون بالأديان السماوية ولا يعملون بتعاليمها لأنها على حد قولهم تعاليم غير عملية وغير قابلة للتنفيذ ، وهذا الفريق فى الواقع يؤمن بالوحى معدلا بما يتفق مع العادات والتقاليد الخاصة بكل عصر ومبلغ تقدم أهله .

الثانية — الذين يقولون بالتقيد بالضمير والالهام ولكنهم يحسون أنهم لا يستندون الى أساس متين ولذلك فهم يخضعون لقانون بلادهم وما تمليه عواطفهم ويرضى احساسهم .

الثالثة — الذين يستندون الى العقل دون غيره مسترشدا بهدى القانون الوضعى ويتأثرون لحد بعيد بما يشرق عليهم من آفاق العقل العليا من لمحات وان كانوا ينكرون وجود هذه الآفاق.

ان لنا أملا أن يكون فى دراسة (دارما) ما يساعد على وضع الأمور فى نصابها بالنسبة للبعض . صحيح أن هذا الدرس الصغير ما هو الا اشارة وجيزة الى دور (دارما) وحقائقها ولكننا نظن

أنه سيكفى لايضاح الأمر للبعض ويجعل من السهل تحديد موقفهم من هذه التيارات المتعارضة التى تتقاذفهم ، تيارات هذه النظريات الثلاث . فلننظر ماذا لدى الدارما من قول .

اننا فى هذه الدراسة الموجزة نرجو الطالب أن يهبنا أفقا واسعا من عقله ، نقصد أن يترك — لفترة قصيرة — ما يؤمن به من قبل من نظرية أو مذهب وأن يستمع الينا استماعا مجردا من التأثر بعقيدته الأصلية ونحن لا نطلب اليه أن يعتنق تعاليمنا — اللهم الا اذا اقتنع بها وأقرها عقله والهامه . نريد منه استماع القاضى غير المتحيز لا استماع المحامى الذى يتلمس السقطات قبل أن تتم سرد ما نريد من نقاط القضية فى كل جوانبها ، ذلك ما نريد وليس هذا أكثر مما يسير عليه الطلاب الراغبون فى العلم حين يقبلون على الدرس والتحصيل ، اننا لانملى على أحد ما يجب عليه أن يفعله ولكننا نبسط أمام الطالب المبادىء العامة (للدارما) .

ولعل خير طريق لعرض فلسفة الدارما أن نوضح وجهة نظرها ورأيها فى هذه المذاهب الثلاثة التى ترتكز عليها مبادىء السلوك والأخلاق فنأخذها مذهبا بعد مذهب ، ولكن قبل ذلك نود أن يكون ماثلا فى ذهن القارىء دائما الفكرة الأساسية فى فلسفة اليوجا وهى أن الأنفس جميعها تنمو وأنها تتفاوت فى الدرجة التى بلغتها على الطـريق ، وأن التطور الروحى الدائم دائب لا تفتر

حركته ، وان كل نفس تبنى على ماضيها أساس مستقبلها وأن ماضيها يمتد من حياتها الراهنة هذه الى حياة تتلو حياة فى المستقبل يكون للنفس فيها جسد بعد جسد كما كان لها فى الماضى جسد قبـــله جسد .

ليست الحياة مجرد وجود النفس فى الجسد أعوام العمر فى هذه المرحلة من الوجود . للنفس أمس سبق وجودها هذا ، سبقه أمس متكرر بلا عدد . ولها غد بعده غد الى ما لا نهاية فى الأبدية يرتفع بها كل غد الى مستوى أرفع من سابقه فى حلزون دائر مرتفع لا نهاية له .

نحن لا نصر على الايمان بهذه الحقيقة ولكننا نذكرها ليتضح لك أن النفوس التى حولك فى الرجال والنساء تختلف فى درجة ارتقائها على سلم الوجود وان كل نفس لها درجتها التى بلغتها من الارتفاع على ذلك السلم ، وان اختلاف المرحلة التى تجتازها كل نفس عن المرحلة التى تجتازها غيرها فى الارتفاع ، يتبعه اختلاف فى حاجات كل نفس عن حاجات غيرها .

ويرى اليوجى أن تقدم المثل العليا للأخلاق والمعاملة والسلوك ايذان بأن العقيدة الخاطئة فى انفصال كل نفس عن غيرها واستقلالها بكيانها قد بدأت تسير نحو الزوال وان فجر الوعى والاحساس بالوحدة قد بدأ يطلع على العقل البشرى ، وعلى ضوء فجر هذا

الوعى بدأ الناس يرون أخطاء كانوا هم وأسلافهم يرونها صوابا ، وأصبح الانسان يشعر بآلام أخيه الانسان ويحزن لحزنه ويفرح لفرحه ، لقد أصبحنا أكثر تأثرا بما حولنا وبمن حولنا اذ صرنا نشعر بما يربطنا بالغير من صلة لا انفصام لها . هذا هو سبب تزايد الشعور بالأخاء الذى يبسط جناحيه على الانسان فى هذا العصر وان كان القليلون فقط ممن غمرهم هذا الشعور يدركون سر التحول .

ان تقدم النفس وارتقاءها نتيجته ارتقاء الفكر البشرى وسمو المثل العليا للانسان وهو السر فى تطور معايير الأخلاق ومفاهيمها ، ذلك التطور الذى يراه من يدرس التـــاريخ ويستطيع ملاحظة مميزاته فى مختلف الأعصر ، وفهمنا الصحيح للدارما يمكننا من دراسة الأخلاقيات دراسة مقارنة تعصمنا من أن ندين أخوتنا فى البشرية أولئك الذين يعيشون على مستوى منخفض عن مستوانا ويقدسون مبادىء للأخلاق ما زالت غير مهذبة اذا قيست على مبادئنا . فكلما ازدادت النفس صفاء وتقدما ازدادت المثل الأخلاقية ارتفاعا وتهذيبا ، لأن تفتح النفس يكشف لها عما فى المثل الموروثة من غلظة وقسوة يجعلها تنحيها لتختار ما هو أرقى منها وأليق بها بعد أن كانت تعتبرها صالحة فى مرحلتها السابقة . على هذا الأساس نبدأ بحث مصادر السلوك الثلاثة .

تعترف فلسفة اليوجا بالوحى السماوى واحدا من أعمـدة الدارما الثـلاثة ، وترى أن الله سـبحانه فى فترات من تاريخ الجنس البشرى أوحى الى نفوس سامية بما يحتاج اليه الناس فى الفترة التى تعيش فيها بين الناس ، وأن تلك النفوس عادت الى الحياة الدنيا من مسـتويات الوجود العليـا — عادت برغبتها واختيارها لتسدى الى اخوتها ما تحتاج اليه من هدى وارشاد ، وتأخذ بأيديها فى طريق السداد ، فعاشت بين الناس فى صورة واحد منهم يؤدى رسالة النبى أو المعلم . وتاريخ البشرية حافل بهؤلاء القادة الروحانيين وان كانت سيرهم قد انحدرت الينا عبر العصور ومنها ما مسخ والتوى حتى لو بعث أصحابها لأنكروها وتبرأوا الى الله منها ومنها ما نسجت لها برد فوقها برد من الخرافة والتهويل حتى حجبت الحقيقة واختفت الا عن النظر السليم ، ومنها ما تآكلت أطرافها وزالت معالمها حتى أصبحت كالمسخ الممجوج .

ليس من أولئك القادة من كتب بنفسه ومن كتب منهم اختفى الأصل الذى كتبه تحت أنقاض الزمن ، لذلك فقد وصلت الينا تعاليمهم[1] التى كتبها أتباعهم بعد فترة طالت أو قصرت مصبوغة بلون أولئك الأتباع مدسوسة بينها آراؤهم ، الا أنها برغم ذلك

(1) الكتاب لايذكر الاسلام انما يعنى ما سـبقه من الديانات السماوية والقرآن لاينطبق عليه هذا القول فقد حفظه الله من التحريف (المراجع)

تحمل جوهر التعاليم التى جاء بها النبى أو المعلم . وكان أولئك الأنبياء على درجات مختلفة من الصفات والتقدم ، منهم من عادت نفسه من مستوى رفيع غاية الرفعة ومنهم من جاء من مستويات أقل من ذلك درجة أو درجات ، ولكن كلا منهم جـاء قومه بما يناسب وعيهم فى مرحلتهم تلك وعصرهم ذلك فتقبلها قومهم تبعا لاستعداد نفوسهم فكان ما تقبلوه وآمنوا به أساسا عليه بنت الأجيال التى تعاقبت ومنهم من كان أسمى من جيله سموا جعل أهل جيله ينكرونه فقتلوه أو أخرجوه .

ولا يقلل من شأن تلك التعاليم ولا من شأن الأنبياء الذين جاوءا بها ولا من شأن المصدر الذى استقى منه الأنبياء تلك التعاليم أننا الآن قد تقدمنا شأوا بعيدا أرفع مما ترمى اليه تلك التعاليم حتى لقد اطرحنا الكثير منها فلم نبق الا القليل من الأسس التى أريد لها البقاء والخلود ، ولو أن أصحاب هذه المذاهب المتشيعين لها بالحق والباطل يصرون على أنها لا يأتيها البـاطل وأنها نزلت بأحكام لا تنقض للأخلاق والسلوك لكل الناس فى كل العصور ، ونظرة تأمل تظهر فساد هذا المعتقد .

خذ مثلا موسى وانظر الى تعاليمه تجدها وضعت لقومه فى عصره خاصة لخيرهم وفائدتهم فحققت كليهما لهم ، وارجع البصر كرتين فى تلك التعاليم تجدها أو معظمها تصبح سخفا وهراء ان

طبقت على الناس فى هذا العصر ، ولا يخفى أن القواعد الرئيسية التى أرسى عليها موسى شريعته ما زالت وستبقى راسخة سليمة أما التفاصيل التى وضعت لبنى اسرائيل فى شئونهم اليومية فقد انتهى وقتها وفات أوانها ومن العبث محاولة التزامها أو فرضها اليوم .

ان نقاد نظرية الوحى يرون فى الكثير من المبادىء التى وضعها موسى بربرية ووحشية يترفع عنها الناس فى عصرنا هذا ومع ذلك فان تلك المبادىء والتعاليم كان هدفها الذى وضعت لتحقيقه مساعدة الناس فى طورهم ذلك من الرقى والتقدم الروحى ، أعنى تقدم النفوس التى كانت فى أجسادهم آنذاك باعطائهم شرائع أعلى قليلا مما كان يسود عصرهم فتأخذ النفوس بها فترتفع على السلم درجة ، وقد قطعت بها فى طريق التفتح الروحى مرحلة أخرى . ومن تلك التعاليم التى تبدو لنا وحشية قاسية ما لو بحث على ضوء الحالة السائدة عند ظهورها لاتضح أنها كانت تقدما محسوسا فى ذلك العصر ، ولكنها تبدو لنا الآن ونحن ننظر اليها من حيث نقف من سلم الحيـاة على درجات أعلى من تلك التى كان يقف عليها الناس فى ذلك العصر الذى نزلت فيه ، تبدو لنا على مستوى منخفض من مستويات التقدم ولكن لو نظرنا اليها من المستوى الذى كان الناس يعيشون فيه وقت نزولها لوجدناها فوق مستواهم بكثير .

ومن غير المعقول أن يقال انه كان يجب وضع شريعة تبلغ غاية الكمال للانسانية فى مراحل طفولتها ويكفى لاثبات هذا أن تتصور ما كان يحدث لو وضعت تعاليم المسيح السامية لبنى اسرائيل فى أول أمرهم يوم كانوا أقرب للبربرية طبعا وأخلاقا . ولكن لا نريد فى هذا المقام أن تفوتنا الاشارة الى أن فى تعاليم موسى البدائية نواحى خفية تكفى للتذكرة بأن سدنة الشريعة وواضعيها كانوا على بينة من التعاليم العليا التى ضن بها على الكافة . هذه الأسرار أخفيت فى طيات التعاليم الظاهرية التى وضعت لسواد الناس . وهذا هو الحال دائما فى كل شريعة . وهذه تعاليم المسيح لايدرك كنهها الكافة فى عصرنا هذا بله العصور السابقة واسمع التاريخ يحدثنا عن المسيحية خلال العصور التى مرت بها وكيف أن من يدعون أنهم أتباع المسيح أساءوا فهم تعاليمه والى أى حد من البربرية والتوحش انحطت مبادئهم ومفاهيمهم للمسيحية حتى فى عصرنا هذا ولكن هذا لا ينفى أن النفوس التى سمت وارتفعت الى حيث يشرق النور كانت خلال التسعة عشر قرنا الماضية فى كل جيل تستطيع أن تنفذ الى تعاليم المسيح السرية الباطنية من بين السطور — تلك السطور التى نقلت الينا أقواله مثقلة بالشروح والتفاسير حتى بدت محرفة حينا ومشوهة فى معظم الأحايين .

ومع ذلك فقد أتت تلك التعاليم بالعجب العجاب رغم عدم

ادراكها على حقيقتها ! وهذه موعظة الجبل — جبل الزيتون — لم تبلغ المسيحية حتى اليوم مستواها ، ولكن الأجيال القادمة ستعيش من غير شك فى ضوئها الساطع وتهتدى بهديها الرفيع .

ونريد أن نوجه النظر فى هذا الموضع الى هذه الحقيقة : ان كل الشرائع قصد بها مساعدة الانسان على نزع الحجب عن العقل ، عن الجزء الأسفل منه ان صح أن نتخيل للعقل أجزاء سفلى أقرب الى الغرائز وعليا أقرب الى الروح والكمال فتساعد الانسان بنزع تلك الحجب على الارتقاء الى المراتب العليا . وان تطور النفس وارتقاءها هو ما هدفت اليه تلك الشرائع ، والقاعدة التى وضعت لذلك التطور هى خطوة واحدة كل مرة — وما زالت هذه القاعدة قائمة لا تبديل فيها . كانت الكلمة التى تقال فى كل مرحلة ليست هى الكلمة الأخيرة وانما كانت لتملأ فراغا فى وقتها لا يملؤه غيرها، هذا هو مفتاح ادراك سر التفاوت بين الشرائع والتناقض البادى فى الأديان أن الأديان والشرائع كلها انما أريد بها رفع الانسان درجة بعد درجة وأريد بها رشدا .

لم يقصد بها أن يقوم الانسان بأعمال على أنها واجبات عليه لله كما ألقى فى روعنا وطلب الينا الايمان به فما كان الله بحاجة الى ما يعمل الانسان وما كان الله فقيرا الى ما يقدمه الانسان له وما كان الله تياها يحب المدح ويطمع فى الثناء ، وما كان يرغب فى لذة

ينالها من ذبائح الناس ومحرقاتهم حين يرتفع اليه ريح الشواء ، ان هذا ما تصوره الناس والانسانية بعد فى المهد ، والله غنى عن العالمين وغنى عن عبادتهم وابتهالاتهم . انما الذى ترجع اليه فائدة ذلك كله هو الانسان نفسه انه هو الذى يكسب من حبه لله وما كان سبحانه لينالة من فعل الانسان ضر ولا نفع وهو الغنى الحميد .

فان شرع الأنبياء والحكماء للناس فروض العبادة فما ذلك الا ليوجهوا نظر الانسان ووجدانه الى وجود قوة فوقه ، فانه اذا اتجه الى هذه القوة ببصره وبصيرته حولت اتجاهه الى آفاق السمو فارتقى وسما بدل أن ينصرف الى الصغائر والدنايا فيصغر ويصبح دنيئا .

انزع من فكرك أن الله محتاج الى حمدك وثنائك وتعبدك ، وانه يقابل بالارتياح ما تقر له به من العظمة والجلال وأن تعبدك يرضيه ويسترضيه .

ان التقوى والصلاة والعبادة والتقرب لله فائدتها للانسان نفسه خالصة لا يشاركه الله فيها ، انها ترفع الانسان الى مستويات تقر عينه بما فيها ، ويرضى عن نفسه بالوصول اليها ، فيتخيل أن الله نزل اليه واستجاب دعاءه ورضى عن عبادته ، وليس فى ذلك الا قلب الأوضاع .. ان الانسان بالتقى يرتفع الى حيث يصبح قادرا

على ما كان يعجز عنه قبل بلوغ ما بلغ من مرتبة وهو بذلك صاحب المنفعة فى تعبده لا ينفع بعبادته الا نفسه ، فان هوى الى حضيض الظلمة والعجز فاثمه على نفسه ، والله غنى حميد والناس فقراء اليه محتاجون الى حبه وحمده ليرتفعوا بهما درجات .

لكى نفهم تعاليم جميع الأنبياء ومختلف الديانات يجب أن نضع أنفسنا فى مكان النبى وأن ننظر الى الناس الذين ظهر فيهم ، عند ذلك يتضح لنا أن ما شرع لهم من عقيدة انما وضع لكى ينهض بقومه خطوة واحدة الى الأمام ، وأنها أدت رسالتها ولكن سمو قصد تلك الشريعة وتحقيقها ما هدفت اليه من رفع من نزلت عليهم ليس مبررا لأن تتقيد بحرفية بعض النظم بعد أن تطور المجتمع .

اننا ان أدركنا هذه الحقيقة ادراكا صحيحا على ضوء ما أشرنا اليه نستطيع أن نترك قشور التعاليم التى يعتبرها العامة لبها وأن نبحث فيما بين أيدينا منها عن لب نستسيغه ونقبله ففى الشرائع جوهر لا يزول ، جوهر يبقى على الزمن ينتفع به من يستطيع الوصول اليه ولكن لنحذر التقيد بالظاهر اذا انتهى وقته وراحت جدته ولنذكر الجوهر دائما ولنعلم أن ظاهر الشرع اذا أصبح غير منسجم مع مستوى الفكر وجب التخلى عنه ، لا يشفع له انه وحى وانه من السماء نزل ، ففى الشرائع ما نسخ نسخه الذى سنه وفيه ما يجب مع مر الزمن أن ينسخ كما نسخ ما قبله ، لنذكر الدعامتين

الأخريين من دعائم الأخلاق والسلوك دعائم دارما لنذكر الالهام والعقل ولنلجأ الى حكمهما ولكن لنحذر دائما من أن نسخر من الشرع ومن أن ننكره وننكر أنه من السماء لأن ظاهره كان لزمان غير زماننا ولقوم غيرنا كانوا أهل ضراوة لسنا منها الآن على شيء .

لنذكر أن الحدس لم ينقطع وأن وحى الروح ما زال يترى على البشر وأن أمرسون له من الحدس حظ لا يقل عن حدس أنبياء اليهود ، كان كل منهم اماما لعصره يسبقه ليسير خلفه الناس وان عجزوا عن ادراك ما جاءهم به أحيانا حتى لقد بلغ الفرق بينهم وبينه ان أنكره قومه فأساءوا اليه ومنهم من قتله قومه وقصص ذلك كثير .

ولا نخص امرسون بالذكر لأنه الوحيد انما نضرب به المثل لندل على غيره وهم كثيرون حتى فى هذا العصر [1] .

فلسفة اليوجا تعترف بأن مذهب الالهام أو الضمير هو الدعامة الثانية للدارما وكما سبق القول ، عند ذكر هـذا المذهب ، ان كثيرين ممن أقبلوا على دراسة الاخلاقيات هاربين من العقبات والمصاعب التى تكتنف نظرية الوحى من السماء ، تلك العقبات التى جعلتهم ينكرون هـذه النظرية ويقولون ان تلك الشرائع

---

(١) بعد هذا فقرة قدرنا أن الاستغناء عنها خير .

(المراجع)

أعطيت لأقوام بدائيين فى الأعصر الماضية ولا يصح التقيد بها فى هذا العصر وأنها لا تصلح للناس الآن ، فهم لذلك ينكرون أن هذه الشرائع وحى من السماء ويتلمسون فيما حولهم نظرية تملأ الفراغ الذى يتخلف عن هذا الانكار فيلجأون الى نظرية العقل والمنفعة لأنها ترضى عقولهم ويستريح اليها تفكيرهم وان لم تشبع رغبة أرواحهم وتشعرهم بالرضا .

وغير هؤلاء قوم آخرون ينفرون من أنانية هذه النظرية ، نظرية المنفعة ومن حاجتها الى حرارة الحياة ومع ذلك يمنعهم عقلهم من العودة للايمان بعقائد السماء فيلجأون الى نظرية الالهام أو الضمير يرون ان الالهام أو الضمير هو الفيصل فى الحكم على الأخلاق والسلوك ، وان شرائع الانسان كلها ترتكز على هذه القاعدة ومنهم من يتطرف فيقول ان صوت الضمير أو الالهام انما هو صوت الله يخاطب الناس ويجب عليهم أن يطيعوه وان الله يوحى الى كل انسان ويملى عليه ما يشاء .

وكما قلنا من قبل لقد هوجمت هذه النظرية فى عنف لأن ضميرين اثنين لا يتفقان وان الضمير وليد البيئة والسن والجنس والرأى العام والثقافة ويتأثر بها جميعا بدرجات لا نهائية التفاوت وانه لذلك لا يصلح هاديا ولا تؤمن قيادته اذ يكون لكل انسان مثله ومبادئه التى لا يلتزم بها غيره ولا ينزل على حكمها سواه .

دارما توائم بين هذين المذهبين المتناقضين فى ظاهرهما فلننظر ماذا تقول فى الالهام أو الضمير .

الدرس التاسع

مزيد عن الدارما

ختمنا الدرس السابق ونحن على أبواب الحديث عن نظرية الالهام أو الضمير ثانى الأعمدة التى تقوم عليها الدارما وها نحن أولاء نبدأ الحديث حيث وقفنا به .

كل انسان يحس — وان تفاوت احساس كل انسان عن احساس أخيه — يحس وجود صوت داخلى يتردد فى حنايا نفسه ! انه شيء من المعرفة ظاهر الاستقلال عن القوة العاقلة (Intellect). هذا الصوت يتحدث اليه اما بلهجة الآمر أو بلهجة المستدرج الراجى — اما يأمره بأن يفعل كذا وكذا أو أن يمتنع عن فعل كذا . يدفعه حينا الى رفيع العمل وصالحه ويسكت حينا عما لا يليق به من سوء الفعال أو يحبب اليه فعل السوء .

هذا الصوت ندعوه الضمير اذا سما وارتفع فان هوى الى ما سفل من الأمر سميناه وسواسا (Temptation) يهتف الأول بالانسان أن اعمل خيرا ويوسوس له الآخر بفعل السوء .

وبالاضـــافة الى صـــوت الضمير وتحـــريض الوســـواس (The urging of the tempter) نجد فينا (قيادا Leading) فى المسائل العادية وفى الأخلاق التى لا تتصل بالخير ولا بالشر عندما نحزم أمرنا ونبت فى شئون الحياة العادية من عمـــل أو صفقات أو غيرها ، هذه القوة الثالثة نطلق عليها اسم (الالهام) .

كثير من الناس يستعمل هذه الأسماء الثلاثة ويعلم الفرق بين كل منها والآخـــر ولكن لا يمكنهم ايضـــاح حقيقـــة كل منها ولا مصدره .

فلسفة اليوجا تقدم ايضاحا ، ودارما تعتمد على هذا الايضاح الى حد كبير فى اعتمادها على ثانى الدعامات — الالهام والضمير — (الدعامة الأولى الوحى السماوى والدعامة الثالثة العقل أو المنفعة).

هذه الدعامات الثلاث تمثل أولا صوت الله وثانيا صوت الالهام فى الانسان وثالثا صوت عقل الانسان ، واليكم ما تقوله فلسفة اليوجا عن الدعامة الثانية صوت الالهام وطبيعة الرسالة التى تأتى من هذه الناحية من نواحى الذات .

لكى نفهم طبيعة الضمير والالهام والوسوسة التى تنبع من مواطن باطن الوعى المختلفة فى العقل يجب أن نعود الى ما سبق قوله فى الدرسين الثانى والثالث من الدروس الأربعة عشر عندما

تحدثنا عن العقول المختلفة فى الانسان الواحد أو المستويات المختلفة التى يعمل فيها عقل الانسان وانكم لتذكرون ما قلناه عن العقل الغريزى والقوة العاقلة والعقل الروحى. ولقد قلنا عن ثلاثتها فى تلك الدروس وفيما تقدم من سلسلة الدروس الحاضرة ما يجعلنا نعتقد أنكم رسمتم صورة صحيحة لكل منها ، فالوسوسة أو الاغراء بفعل السوء أو الخطأ من الأفعال تأتى من الآفاق المنحطة فى العقل ، نواحى ذلك الجانب الذى نسميه العقل الغريزى الذى تتصل به الرغبات الحيوانية بما فيها الدوافع والاتجاهات والاحساسات التى ورثناها عن الماضى ماضى الانسان الأول أو البدائى وهى كلها حاجات الجسد. انها ليست سوءا فى نفسها ، ولكنها تبدو لنا سوءا لأنها بقايا مرحلة من مراحل تاريخ تطور النفس خلفناها وارتفعنا عنها الآن ولعلها كانت فى تلك المرحلة المتوغلة فى القدم تعتبر غاية ما يسمو اليه الانسان من لائق الفعال وجميل السجايا. كانت تعتبر فى وقتها ومحيطها من مستلزمات الحياة الكريمة بل لعلها كانت من أسباب المحافظة على الحياة نفسها وكانت بجانبها صفات وأعمال ينظر اليها أهل ذلك الوقت على أنها مليئة بالخسة والدناءة ، والصوت الذى كان يحفز الى فعل الأولى هو نفس صوت الضمير الذى يلهمنا الآن كريم الخصال ، لقد كان هو نفسه الذى يدعو الى أفعال على المستوى الحيوانى اذا قسناها بمقاييس هذا العصر كانت سوءا.

أما الآن وبعد أن اجتزنا المرحلة التى كانت فيها هذه السيئات — بالنسبة لمستوانا — الحالى تعتبر أخلاقا كريمة ، أما الآن وقد سما الأفق الذى نعيش فيه وتفتح وعينا لصور أرفع وأسمى ، فقد أصبحنا نرى حسنات تلك المرحلة التى خلفناها سـيئات ، فاذا خرجت برأسها توسوس لنا من مستويات الوعى المنخفضة فزعنا لمرآها وساءنا أن فينا من الحيوانية ذلك القدر الذى تمثله تلك السيئات .

ولكن لا مبرر لهذا الفزع من سوء مخبرنا الذى تدل عليه هذه الوسوسة ، انها بقايا الحيوانية التى اجتزنا مراحلها ، انها ميراث ذلك الماضى ، انها صورته وصوته . فاذا أحسست الوحش القديم يتحرك فى طبقات وعيك السفلى يريد أن ينطلق من الغياهب التى واراه فيها ما علاه من طبقات التطور نحو الكمال ، فلا تفزع ولا تضطرب انك اذ تبصر به وتدرك أنه شىء منفصل عنك يريد أن يدفعك الى فعل ما لا ترضاه وما تجد أنه لا يليق بك ، هذا وحده دليل الخير وبشراه . لقد كنت فيما مضى ذلك الوحش وأما اليوم فانه جزء منك فقط متوار فيك وعما قليل سيختفى من كيانك اختفاء تاما الى غير رجعة .

ارجع الى ما ذكرناه فى الدرس الأول من هذه الدروس وسنزيد ما قلناه هناك ايضاحا بعد قليل فى هذا الدرس عند الحديث عن

النسبية فى الخير والشر ، وسنرى عند ذلك أن الشيء الذى كان حسنة فى الماضى أصبح اليوم سيئة وأن ما نراه الآن حسنة سيصبح سيئة مع الزمن بعد الارتقاء الى مستويات أرفع وهكذا دواليك (هذا من ناحية النسبية فقط اذ عند كمال الوعى الروحى والنظر بغير عين النسبية يتلاشى الخير والشر) .

أما ما يعنينا الآن ابرازه فهو أن ما تحسبه وسواسا يوسوس لك بفعل السوء انما هو تحرك غريزة قديمة دفينة ما تزال فيها بقية من حياة فهى تهتز وتختلج اهتزاز المشرف على الفناء — انه التشبث بالحياة — انها حلاوة الروح تجعلها ترفع رأسها أملا فى فسحة من البقاء استجابة لعوامل محيطة حركت ساكن تلك الدفينة فاهتزت ولكن اذا أنت لم تستسلم للاغراء فانها تموت وتذهب لغير رجعة ، هذا هو الوسواس بالسوء ، أما الالهام فانه يأتى اما ومضات من العقل الروحى تشرق على أفق الوعى أو من باطن القوة العاقلة وطبقاتها اللاشعورية ، ففى الحالة الثانية يحدث أن تبحث هذه القوة العاقلة مسألة ينشغل الوعى كله — شعورى ولا شعورى — ببحثها حتى اذا نضج بحثها فى العقل الباطن وهو الوعى اللاشعورى ووصل الى نتيجة مرضية تسلمها الوعى فى الوقت المناسب بصورة الاملاء الذى يوحى بالاقتناع فالقبول .

ولكن أكثر الالهام يهبط الى العقل الواعى من العقل الروحى

الذى لا يفكر فيما يريد بل يعرفه معرفة يقين ، والعقل الروحى يعطينا دائما خير ما نحن مستعدون لقبـــوله حسب طاقتنا التى تتناسب دائما مع ما بلغنا من تقدم . والعقل الروحى يسهر دائما على خيرنا يهدينا سواء السبيل ، ويهيىء لنا من أمرنا رشدا حسب ما يسرنا خلقنا له . لا نريد التعمق فى بحث هذا الموضوع الآن ، وانما نذكره لنظهر مراتب الخلاف بين الالهام والضمير ، فالضمير يتصل بالخير والشر يبصر بهما العقل ، والالهام يتصل بما يجب فعله فيما لا صلة له بمبادىء الأخلاق ، الضمير يهدى للخير وينهى عن الشر والالهام يسدد خطوات الانسان فى طريق النجاح .

الضمير يحدثنا عن مدى انطباق فعل ما على أسمى ما يرسمه علم الأخلاق فى مرحلتنا هذه من مراحل التقدم ، والالهام ينبئنا بأحسن ما نصنعه لمصلحتنا فى شئون حياتنا — هل وضح الفرق ؟ . الضمير نور العقل الروحى يتسلل من خلال الحجب التى تحيط بالنفس . هذا تعريف سقيم يجب أن نصلح من شأنه .

نور العقل الروحى يحاول باستمرار أن يشق طريقه فى طبقات العقل فينفذ خلالها من أعلاها حتى يصل أدنى الطبقات ولكن نوره يكون خافتا لأن كثافة الحجب المضروبة على هذه الطبقات يمنع وصول الضوء قويا منيرا ، وكلما نزع حجاب بعد حجاب زاد الضوء نورا لا لأنه يقترب ولكن لأن مركز الوعى تسقط عنـــه

الحجب التى بينه وبين الروح . انه كزهرة تنحى أوراقها الخارجية وهى تتفتح فاذا فرضنا أن فى قلب الزهرة جزءا مشعا يحاول أن ينشر نوره منعته أوراق الزهرة المحيطة به قبل أن تتفتح وكلما هوى صف من الورق المحيط به زاد ظهور النور من داخل الصفوف الباقية ، حتى اذا تفتحت الأوراق كلها وانحسرت عن قلب الزهرة المضيء ، أشرق الضوء واضحا لا يخفيه شيء . هذا تشبيه فيه عسف ولكن لعله يقرب الحقيقة من البلج .

ولنضرب مثلا آخر مصباحا كهربائيا التفت عليه طبقات من قماش طبقة فوقها طبقة — نور المصباح كالروح وطبقات القماش هى الحجب التى بينه وبين العقل كلما رفعنا طبقة تكشف لنا النور أكثر قليلا من ذى قبل فلا يزال يزداد تكشفا كلما سقط عنه حجاب حتى اذا سقطت الحجب جميعا سطع النور فجاء الحق أبلج وزهق الباطل بظلامه .

ولنبدأ والحجب كلها محيطة بالضوء . ان ما يسطع خلال الحجاب الخارجى من الضوء هو غاية ما سمحت الحجب التى بين الضوء والحجاب الخارجى بالنفوذ منها ، فاذا رفعنا ذلك الحجاب الخارجى وجدنا ما يظهر من الضوء خلال الحجاب التالى أكثر مما كان يظهر خلال الحجاب الذى ارتفع فاذا نزعنا الحجاب التالى ظهر الحجاب الثالث أكثر استضاءة من سابقيه ، وهكذا كلما سقط

حجاب زاد ظهور النور حتى اذا كشفنا آخر الحجب عن المصباح يهر ضوءه الأعين .

لو أن قطع القماش التى تراكمت على المصباح أول الأمر كانت تستطيع التفكير لتخيلت انها هى والمصباح الذى فى داخلها شيء واحد يقول عن نفسه التى هى هذه الكتلة (أنا) ولو كانت كل طبقة من طبقات القماش تستطيع أن تعقل لرأت أن الطبقة التى تليها من الطبقات الداخلية أكثر من نفسها نورا ولحسبت ذلك النور الذى تشرق به تلك الطبقة التالية لها أعلى درجات النور وبدت تلك الطبقة الأكثر منها نورا كما يبدو الضمير بالنسبة للقوة العاقلة وبذلك تكون كل طبقة من القماش بمثابة الضمير للطبقة التى تليها خارجها لأنها أشد منها استضاءة وبذلك تكون الطبقة التالية للخارجية مثلا أعلى فى قوة الاضاءة ، فاذا قورنت هـذه بطبقة داخلية — الطبقة الرابعة ، أو الخامسة مثلا وما ينفذ فيها من ضوء لكانت مظلمة بالقياس اليها . وهكذا تكون كل طبقة خيرا من التى تليها ، فكل طبقة نور بالنسبة للخارجية وظلام بالنسبة للداخلية ، فاذا جعلنا النور رمزا للخير والظلام رمزا للشر كانت كل طبقة خيرا اذا قيست بالتى تليها شرا اذا قيست بالتى بينها وبين النور .

واذا قلنا ان كل طبقة تمثل الضمير للتى تليها ، أدركنا كيف

آن كل ضمير يختلف عن غيره كثافة وصفاء تبعا لسمك الحجب وعددها ومبلغ ما ألقى منها ، أى مبلغ صفاء النفس وقلة سمك الحاجز بينها وبين الروح مصدر النور .

أرأيت كيف أن النور الذى يشع من طبقة القماش يختلف شدة وقوة باختلاف بعد الطبقة عن مركز النور وقربها منه وان ما نراه نورا اذا قيس بما هو أشد منه استضاءة كان ظلاما . وان الضمير اذا اهتدى به كان الاهتداء على قدر ما بلغ الضمير من النور الداخلى ، وان مبلغ النور هذا قد يجعل الضمير مشرقا وقد يجعله مظلما ، قد يرى صاحبه فى ضوئه مادق من الأمور فيضع كل أمر فى نصابه ، وقد يضعف نوره حتى يغيب عن صاحبه الكثير فلا يراه ولا يكون له فى حسابه وزن ، لذلك قد يفعل الرجل الفعلة الشنعاء فى نظرنا وهو يتيه على الناس من أمثاله اعجابا بما فعل وهم يصفقون استحسانا لسوء فعلته ، لأنهم يحسبون انه يحسن صنعا - « اغفر لهم ياأبت لأنهم لا يعلمون ماذا يصنعون » .

ولكن ليس مما يقلل من شأن صوت الضمير وينقص من قدره اننا نرى ضمير الرجل المتأخر يحسن له فعل القبيح فى نظرنا وهو يستحسنه فان ذلك القبيح حسن اذا قيس بما هو أشد منه قبحا .

ولا تحسبن نفسك محسنا فتتيه باحسانك الذى أملاه عليك ضميرك ودعاك الى فعله لحسنه ، فان من الناس رجالا بلغوا الشأو

الذى يجعلك تبدو فى نظرهم كما يبدو المتوحش فى نظرك . أتشك فى قولنا هذا ؟ اليك الدليل :

انك تعتبر نفسك أمينا وصادقا . أتستطيع صادقا أن تقول انك أمضيت شهرا واحدا لم تقل فيه غير الصدق ؟ والصدق كله كاملا ؟ .

ان الكذب لدافع شريف ، كانقاذ موقف أو لعدم الاساءة الى من يطلب اليك ابداء الرأى فى أخلاقه كذب لا يخفف من وصفه هذا نبل الدافع اليه . كذلك الكذب اذا تستر وراء (سر المهنة) أو لعقد الصفقات[1] أو بدافع الأدب ، أى كذب من هذا النوع يجعل اجابتك على السؤال بالسلب .

---

(١) ضرب شيشرون الفيلسوف الخطيب والمحامى الرومانى سنة ٤٠ قبل الميلاد المثل التالى « اذا كان فى كريت مجاعة والناس يشترون القمح باضعاف ثمنه ووصل الى كريت تاجر قمح قادم بسفينته من الاسكندرية وقد علم ان عددا كبيرا من سفن القمح تتجه الى كريت ويعلم ان وصول هذه السفن بالقمح بعد يومين او ثلاثة على الاكثر سيضع حدا للمجاعة ويعيد أسعار القمح الى مستواها الطبيعى هل له أن يستغل عدم معرفة الناس بأمر القمح الذى فى الطريق اليهم ويستغل اندفاعهم لشراء قمحه بأثمان المجاعة الباهظة وهل يعتبر رجلا شريفا وهو يبيع قمحه باسعار يعلم انها بعد يومين او ثلاثة ستهبط هبوطا شديدا ؟

ام انه يعتبر رجلا غير شريف ؟!

ان شيشرون يجيب بأنه غير شريف ولو كان فى نظر الناس والقانون بريئا من كل سوء .

المترجم

نحن لا نتهمك . والواقع اننـــا لا نستطيع أن نتصور أناك تطالب بأن تبلغ من الأخلاق مدى لم تبلغه الانسانية فى مرحلتها هذه من التطور ، وحسبك أن تتهم نفسك ، وأنت تبذل أقصى الجهد ، بأنك مازلت مقصرا وان مثلك العليا لا ترضيك .

وهذا المثل الذى ضربناه ما هو الا مثل بسيط ، فان الانسانية فى مرحلتها هذه ترتكب آثاما بالغة الخطورة اذا نظر اليهـــا من مستوى أعلى قليلا من مستواها الذى بلغتـــه الآن . أليس فى الانسانية شعوب تعيش فى هجـــير الفاقة والاحتياج ؟ أليس من اخوتك فى الانسانية محرومون من نصيبهم مما بلغته الانسانية من رفاهية ؟ هل الأمور كلها على ما يجب أن تكون عليه من خير ؟ ألا تستطيع أن تقترح ولو تحسينا بسيطا للحالة الراهنة ؟ انك من غير شك لست مطالبا باصلاح الحالة بمفردك ، ولكنك فرد من الجنس البشرى تتمتع بما وصلت اليه البشرية من ميزات ، انك فرد من ركاب السيارة الضخمة التى تطأ الضحايا الذين يسقطون تحت عجلاتها . صحيح انك لا تملك من الأمر شيئا ولابد لعجلة التطور أن تدور ولا بد لها فى دورانها من ضحايا حتى تبلغ آخر الطريق وتخرج من هذه الحمأة وها هى فى تقدمها قد بدأت تشعر بآلام الضحايا وبدأت تتألم لآلامهم وما عليك الا أن تشارك فى المناداة بضرورة الاصلاح حتى اذا بدأ ساهمت فيه .

ان تصريف الأمور فى يد الله (يقلبها بين أصبعيه) وعليك أن تؤمن وترضى بما يجىء به القدر فان الايمان والرضى سيرفعان عنك الكثير من البلاء الذى يعانيه من لا يؤمن ولا يرضى — وحتى هذا البلاء هو الآخر خير لأنه جزء من عملية التطور .

ولنعد الى موضوعنا ، أما زلت تشعر الآن بأنك صالح ومستقيم ؟ الدرس هو : لا تدينوا ، ومن كان بلا خطيئة فليرم أول حجر ، وليس منا من بلغ مرتبة الصلاح القصوى ومع ذلك فكلنا يسير الى الأمام .

لنعش أصدقاء يوما بيوم نعمل الخير جهد الطاقة ، كلمة طيبة هنا وعملا طيبا هناك ، غير مدعين الصلاح والتقوى ، نعطى الغير حقه كما نريد أن يعطينا الغير حقنا . لا نضطهد أحدا بل نحمل للناس الحب والتسامح والمواساة . ولنعلم أن كل الخلق جزء من الكل الأعظم وأن كلا يعمل على شاكلته ، وان كلا ميسر لما خلق له . وعلينا أن نرى قدرة الله فى أقل خلقه شأنا وأصغرهم كيانا ، وان الله مع أشد الناس جهلا وأمعنهم فى السوء فعلا يسمع ويرى ويهدى على قدر الحال الى سواء السبيل . ليكن الرفق رائدنا ، الرفق بالناس جميعا .

هذا الدرس درس المصباح المضىء الذى تحيط به طبقات فوق طبقات من الحجب ، اذكره دائما واجعله ماثلا فى تصورك وليكن لك سلام .

ان التأمل فى هذا المثل الذى ضربناه للروح والحجب التى تكتنفها يجعلك ترى أن الضمير هو صوت الروح نستمع اليه من خلال جدران الغرائز الانسانية الدنيا أو بعبارة أخرى أن الضمير هو رواسب التجارب والخبرات الغابرة وما وصلنا اليه بفضلها من تقدم ، مضافا اليها ما اكتسبناه نحن بفضل ما ينفذ الى عقولنا من نور الروح خلال الحجب التى لم تتوصل بعد الى رفعها .

ان الانسان فى تقدمه قد أفاد من خبراته السابقة فوضع مثلا عليا جديدة تتفق مع حاجات النفس وفيها استجابة لنزعاتها نحو أمور أسمى مما كانت تنزع اليه فى الماضى ، وفيها شعور بروابط الاخوة التى تربط الانسان بأخيه الانسان وتربط الانسان بالله ، هذه أمور صاحبت نمو النفس — نقصد بنمو النفس اتساع دائرة النور الذى يخترق الحجب وظهور ما كان خافيا بسبب الظلام الذى بدده النور فى هذه الدائرة التى تتسع رويدا رويدا رويدا — وكلما اتسعت الدائرة ظهرت فى نورها مثل أرفع مما كان ظاهرا . وكلما شبت النفس زاد الحق وضوحا لناظرها . والانسان فى كل مرحلة يصلها يعتبر ما وصل اليه المثل الأعلى الذى يجب التزامه ، هذا المثل الأعلى الذى سطع عليه من نور الروح ما نفذ من خلال الحجب يعتبر غاية ما يسمو اليه الانسان فى مرحلته تلك ويحاول كل فرد جهد طاقته الوصول اليه فيكون هدف الانسانية ومقياس

الخلق عندها ، حتى اذا ألقى الانسان عن نفسه حجابا آخر وازداد النور قوة وازدادت دائرته اتساعا ، بدا مثل أعلى أرفع من سابقه ، ما كان يجول بخاطر السلف وجوده ، وكيف يستطيع النـاس العمل للوصول الى ما لا علم لهم به ؟! حتى اذا علموا به وعملوا على الوصول اليه ووصلوا ، وجدوا بعد هذه القمة التى تخيلوها الغاية التى ما بعدها غاية ، وجدوا قمة أخرى قد بدت فى الأفق فشدوا اليها الرحال ، وهكذا كلما ارتفع الانسان على سفح المرتقى وكلما سقط حجاب من حجب الروح بدت مثل بعدها مثل ، كل مثل أرفع من سابقه وأدنى الى الكمال ، حتى اذا بلغ الانسان القمة العظمى وجـد نور شمس الروح تشرق يكاد ضـوءها يذهب بالابصـار .

ان من الخلق رجالا زاد اشراق أرواحهم حتى ظهرت لهم قمم لا علم لنا بها كما أن من الخلق متخلفين قد خلفنا القمم التى يرونها ويكدحون للوصول اليها منذ أمد بعيد . يجب أن ندرك هـذه الحقيقة ان كنا نريد أن ندرك حقيقة العمل والمثل العليا والضمير فى الغير . يجب أن يكون رائدنا ألا نلوم ذلك الغير اذا قصر عن ادراك مثلنا العليا وأن نعمل على تشجيعه وأن نرشده الى الطريق القويم كما نرجو نحن أن يرشدنا من سبقنا على الطريق ووصل الى ما لم نصل اليه من مرتقيات .

وأخيرا نود أن نذكر مرة أخرى أن الضمير ما هو الا دعامة من دعامات الدارما وليس هو الدعامة الوحيدة ، ولكن يجب أن يكون له نصيب كبير من التقدير ، وان كنا نعلم أنه غير معصوم من الخطأ ، انه يشير لنا الى أعلى هدف نستطيع أن نتجه اليه وأن نبلغه ، ولكن ذلك الهدف العالى ليس هو أعلى الأهداف اطلاقا . ان وراء الضمير قوة معصومة من الخطأ ، قوة الله الخالق وقدرته، أما الضمير فهو مخلوق والمخلوق يخطىء ويصيب لأن ما يهديه من ضوء الروح محدود فيصيب ما أظهره النور ويخطىء فيما تكتنفه الظلمة ، ولكن علينا أن نتبع هديه ونسترشد به ، وأن نكتفى بما اكتفى به صاحب هذه الأنشودة :

أرشدنى أيها الضوء الرفيق فى حلكة الظلام .
أرشدنى خذ بيدى للأمام .
الليل بهيم وأنا عن موطنى بعيد
أرشدنى وخذ بيدى الى الأمام
سدد خطاى . لا أسألك الرؤية
رؤية المنظر البعيد
حسبى أن أخطو خطوة الى الأمام
أرشدنى خذ بيدى فى الظلام .

بقيت دعامة (دارما) الثالثة مذهب المنفعة الذى أشرنا اليه فى الدرس السابق . دارما تعترف لمذهب المنفعة بما فيه من فائدة ولكنها لا تغفل فى نفس الوقت عن قصوره عن أن يكون وحده كافيا لحمل البناء .

كل القوانين التى وضعها المشرعون بمختلف أسمائها بنيت على أساس المنفعة العامة ، وان حاول البعض أن يظهرها وكأنما تستمد سلطانها من أمر الله . فالقانون ما هو الا محاولة الانسان وضع قواعد يسير عليها الناس لخير البشرية . لذلك فقد تطورت القوانين بتطور البشرية مع مضى الزمن ونمت وما زالت تتطور وتنمو وتصلح أخطاءها فما هى بمعصومة من الأخطاء .

واذا كان الضمير دائما يسمو على عقل الانسان درجة أو درجتين فان القانون دائما متخلف عنه خطوة أو خطوتين . فالضمير يشير دائما الى ما يجب أن يرتفع الانسان اليه من الاخلاقيات بينما القانون يوضع ليمنع المتخلفين من الزلل والآثام ، ويأخذهم بجريرتها حتى يرتفع آخر من فى قافلة البشر عن مستوى مقارفتها ، وعند ذلك يعدل القانون ليتناول حاجات ما كان للمشرعين بها علم عند وضع القانون القديم ؛ ولاختفاء الزلات التى وضع ذلك القانون لمنع الناس من ارتكابها . ولكن القانون دائما يبقى فى المؤخرة نافذ المفعول على مستوى فات أوانه .

القانون نتيجة لمتوسط قوة عقل الشعب مصطبغا بمتوسط ضميره . فالعقل يرى حاجات جدت ولابد من أن يضع فى القانون ما يعالج تلك الحاجات ، والضمير يوحى بأن بعض ما فى القانون أصبح عبئا لا طاقة للناس بحمله ، أو أن فيه جورا يجب رفعه . فان اقتنع العقل بوحى الضمير ، حور القانون بالحذف والتعديل والاضافة فيرضى الضمير ويقتنع العقل بأن الصيغة الجديدة تواجه ما وصل اليه الناس من تطور .

وقد تتدخل الأهواء فتوضع قوانين فاسدة حين يعاون المشرع الذى لا خلاق له الحاكم الذى تتحكم فيه الأهواء .

وقد يسىء القاضى فهم القانون أو تفسيره فيكون فى حكمه كمن يحكم طبقا لقانون فاسد فترتكب أخطاء وتقع مظالم ومرجع هذا كله ان الانسان والقانون كليهما غير معصوم .

ولكن اذا جعلنا الأغلب الأعم أساسا لحكمنا فاستبعدنا ما أشرنا اليه من عيوب ، وجدنا أن القانون فى وضعه وتفسيره وتنفيذه يعطى صورة صحيحة لمتوسط ما يطيقه الشعب وما يسيغه وما هو أهل له .

فاذا تقدم الشعب — فى متوسطه — خطوة تقدم القانون فى أثره خطوة واذا أصبح الشعب فى حالة يتطلب معها تشريعا جديدا

يتفق ويتناسب مع حالته الجديدة حصل الشعب على ذلك التشريع عاجلا أو آجلا .

وطبيعى أن ينظر الفريق الذى بلغ مستوى أرفع من متوسط عامة الشعب[1] . الى القانون القائم الذى يرضى العـامة نظرة الساخط لما يراه فيه من أخطاء وظلم وقصـور ، بينما يرى فيه الفريق المتخلف عن متوسط عامة الشعب أيضا أخطاء وظلما وشدة، الأولون لأن القانون على مستوى لا يساير تقدمهم ، والآخرون لأنهم لم يرتفعوا الى مستوى القانون ، ذلك لأن القـانون كما قدمنا نتيجة عقل أوساط البشر وضميرهم ، فاذا تطور ذلك القسم المتوسط تطور القانون بما يتفق مع حالتهم .

لقد رأى بعض المفكرين أن خير أنواع الحكم هو الحكم المطلق ، ملك غير مقيد بشرط أن يجلس على العرش ملك لا انسان.

ويرى البعض أن تسمو الرعية وتتنزه عن الصغائر وأن تلغى القوانين اذ لا يكون للرعية عندئذ بها حاجـة ولكن كلا الرأيين يتطلب الكمال ، فى الحاكم فى الحالة الأولى ، وفى المحكوم فى الحالة الثانية ، وهذا خيال .

ولكن الواقع أن كل شعب توضع قوانينه كما يريد أو كما يتمنى ويتخيل ، أعنى كما تريد الكثرة التى تمثل متوسط ما بلغ

(١) لايقصد بعامة الشعب لهازمه ولكن أوساطه . (المترجم)

الشعب فى تطوره من تقدم ، وهذا صحيح وهو يوشك أن يحدث فى روسيا القيصرية (هذا فى ســنة ١٩٠٤) الاتوقراطية ، وهو الحادث فعلا فى غرب أوربا الديمقراطية . ان الشعب لا يوضع على أعناقه نير الا اذا طأطأ أعناقه لذلك النير ، فاذا تطور الشعب وأصبح لا يرضى بذلك النير ألقاه عنــه[١] ، غالبية الشعب لا الأفـراد المتقدمون فى الطليعة ولا الأفراد المتخلفون فى المؤخـرة[٢] وقد يرضى الشعب اليوم بقوانين يراها فى غده — اذا تطور — غير لائقة به .

القانون على الرغم من أنه معرض للخطأ واقع فيه الا أنه دعامة ضرورية من دعامات المجتمع وهو يمثل أوساط مبادىء الأخلاق مصورة فى قواعد وأوامر وأحكام لتسيير الناس . والقانون فى مجموعه حل وسط يجور على هذا أو ذاك ويزيد فى ارضاء هذا أو ذاك ولكنه وضع ليكفل أقصى الخير لأكبر عدد .

يقول أصحاب مذهب (المنفعة) هــذا ، ان الانسان يسمى الشىء (سوءا) أو (خطأ) لأنه مصدر تعب أو ألم له . فمثلا ،

---

(١) يؤيد هــذه النظرية التى تحدث بها المؤلف منذ نصف قرن ما حدث فى روسيا نفســـها فقد رفع الشعب رأسه فأطاح بالنير والقيصر سنة ١٩١٧ . (المترجم) .

(٢) يقصد المؤلف بالمتخلفين الحثالة التى تعيش دائما خارج القانون فمن وقع منهــا فى قبضة القانون اطلق عليه اسم (المجرم) (المترجم)

لا يحب الرجل أن يقتل أو ينهب ماله ولذلك نبتت فكرة اعتبار القتل والسرقة جريمة . ويتبع تلك الفكرة وضع عقوبة لجريمتى القتل والسرقة لمنع وقوعهما ويمتنع الانسان عن القتل والسرقة ليكفل امتناع غيره عن قتله هو أو سرقته . كذلك يرى المجتمع الضرر فى عدم قيام الانسان بأن يعول أطفاله وعلى هذا يعتبر تقصير الرجل فى هذا الواجب ذنبا يدفع نضج الوعى لوضع العقـوبة لمرتكبه حفظا للمجتمع ، ويمضى أصحاب هذا المذهب على هذا النحو فى التفكير ، وتفكيرهم صحيح ، وهو أســاس القوانين الموضوعة وهو جانب من جوانب التفكير فى الحــق والبــاطل أو الخطأ والصواب . ولكن اذا كان العامل الأساسى فيه هو المنفعة أو قل الأنانية فان له سببين آخرين غير الأنانية والمنفعة .

أصحاب هــذا المذهب ينسون أن تطور روح المجتمع يزيد شعوره بآلام الغير ، فاذا أصبح هذا الشعور لا يطاق ولا يمكن السكوت عليه نبتت مقاييس جديدة للصواب والخطأ تطبق على هذه الآلام لتخفف آثارها وتقتلع أسبابها وهذا يدعو الى وضع مبادىء جديدة للتشريع واضافة مواد جديدة الى القانون لتنفيذ تلك المبادىء .

وكلما تطورت روح المجتمع وزاد فيه الشعور بآلام الغير ، تفتحت روح الفرد فزاد احساسه بما يحس به غــيره من الأفراد

فيتقارب الأفراد بعضهم من بعض ويزداد اقترابهم من الهـدف الأعلى — وحدة الكون .

ان ازدياد شعور الانسان بحرمة العدالة لا يستند الى ارتفاع مستوى قوة العقل وتقديرها للعدل فقط ، ولكن يستند أيضا الى نمو وعيه الروحى ، ونمو شعوره بصلته الروحية بمن حوله مما يجعله غير مستريح ازاء ما يعانيه الغير من شدة وما يثقل كاهلهم من متاعب ، ولا يعود كما كان ، كل همه منحصر فى نفسه وما عداه لا يعنيه من أمره شيء . انه يبدأ بزوجه وأولاده ، يحس أنهـم كنفسه ، ثم تتسع الحلقة فتشمل أسرته كلها ثم قبيلته ثم القبائل المتشابكة مع قبيلته ، ثم أمته ، ثم غيرها من الأمم التى تتحدث نفس اللغة وتؤمن بنفس الدين ، ثم تتسع الحلقة حتى تشمل البشرية كلها ، أحمرها وأسودها ، مؤمنها وكافرها ، ثم تتسع لكل الخلق من زاحفة وذات جناح ، ثم كل شيء فى الوجود . انه يحس أنه جزء من كون واحد . عند ذلك يحس بمعانى العـدالة وآثارها تنبسط وتتسع ، لم تعد المسألة مسألة تصور بالعقل انما هى أشعة الروح تزداد قوة وسناء والادراك يزداد استنارة والماما ، واذا معانى العدل والحق تتبدل وتظهر فى ثوب قشيب .

مذهب المنفعة أو المصلحة لا بأس به حتى يبلغ مداه ولكن بعد هذا المدى ، مدى يصبح هذا المذهب فيه قاصرا لا يرضى به صاحب الأفق الأكبر .

لا يكفى صاحب هذا الأفق ولا يرضيه (أكبر سعادة لأكبر عدد) فانه لا يرضى بأقل من السعادة الكاملة — لاأكبر سـعادة فقط — لكل الخلق ، لا لأكبر عدد فقط . فهو يرى أنه لا يمكن أن يهنأ بشىء من السعادة طالما أن هناك تعسا واحدا ، وهو يرى أن العدالة لا تقوم وفى الناس مظلوم واحد ، ولهـذا فهو يمضى فى سبيله قدما يبذل أقصى ماله من جهد ، يخطىء ويصيب ويكبو وينهض يدفعه دائما الى الأمام ذلك الحافز الخفى المسيطر على عقـله دون أن يدركه (الى أن تنفتح عينه) ولكنه يملك عليه حواسه ويقض مضجعه جريا وراء شىء لا يدرى ما هو .

الآن وقد رأيتم سير الأمور لعل آلامكم تخف ولعل فهمكم يصح فتقفون جانبا تنظرون موكب البشرية مندفعا فى تقدير الحق والباطل وكيف تتعذب البشرية بالجهل . ولكن حـذار من أن تحاولوا أن تقولوا ما تبصرون أو تصلحوا فاسد ما تدركون فساده من آراء والا قيلت لكم كل كلمة شريرة ووصفتم بكل وصف قبيح، اتركوا الناس وقوانينهم ومثلهم العليا فى الأخلاق وما يرتاحون اليه من عادات فيتركوا اليوم ما تمسكوا به بالأمس ويتمسكوا اليوم بما تركوه بالأمس ، واتركوهم يحكموا على مخالفيهم بما يشاءون فانهم لا يستطيعون الا آن يفعلوا ، وكل ميسر لما خلق له . ولكن لا تفعلوا فعلهم ، لا تدينوا مخطئا فان التطور لابد له من أن يأخذ

مجراه ، المخطىء والمحسن كلاهما لا غنى عنه ولا مفر من وجوده ، وكل عمل فيه خطوة من خطوات التطور وليست خطوة بذاتها صوابا أو خطأ . كل ما خلا الله باطل . كل ما خلا الشعور بأبوة الله للبشر وباخوة الانسان للانسان باطل ، كل ما عدا الشعور بالوحدة الشاملة باطل ولا استقرار ولا سلام مع وجود باطل ، قفوا جانبا وانظروا الأطفال يلعبون — انما الحياة لهو ولعب .

مفتاح الاطلاع على هذا التيار الجارف من التبدل والتطور وعدم الاستقرار هو نمو الروح وتفتحها فهو الذى يريك كيف يحاول الناس أن يضعوا لحاجاتهم قانونا يسهل قضاءها ولمصالحهم قواعد تكفل المحافظة عليها وهم فى محاولتهم هذه يضعون مقاييس يقيسون بها وموازين يزنون بها وكلما بدت حاجة لا يغطيها القانون أضافوا للقانون ما يغطيها به من ردف واذا وجدوا القانون قد أصبح فضفاضا يغطى أكثر مما يريدون قصوا ما زاد منه على ما يريدون أن يغطيه القانون وهم يضعون القاعدة ويلزمون أنفسهم ويلزمون الناس بالتزامها ويوقعون العقوبة على من يخالفها ما دامت القاعدة تكفل مصلحة أو نفعا يريدونه . فاذا تعارضت القاعدة مع المصلحة والمنفعة بسبب تطور الظروف وتغير الأحوال ، عمدوا الى القاعدة فأطاحوا بها ووضعوا مكانها ما يحفظ المصلحة فى ظل الظروف الجديدة ، ووضعوا العقوبة لمن يخالف هذه القاعدة

الجديدة . وهكذا يضع الناس القواعد ويبدلونها ويضع النـــاس القوانين ويعدلونها ، والهدف دائما هو المنفعة .

تمسك بخير ما تعتقد انه الخير وعليك فى تمسكك هذا أن تعلم أن هذا الخير انما هو خطوة للأمام ، خير خطوة ، ولا تلم من يعمل ما تراه شرا فقد يكون ذلك الذى نراه شرا أجمل الخير فى نظره — طبقا لما بلغ من مستوى — ولا تهزأ بقانون من قوانين الناس مهما بدا لك من خطئه وسوء نتائجه فهو خطوة على ما فيه من نقص وهو درجة من درجات السلم وخير ما يناسب أغلبية الناس فى حالتهم هذه وزمنهم هذا ، واذكر دائما أن الكمال لله وحده ، للواحد الحق الذى لاشىء مثله ، وان الجنس البشرى يسير نحو الكمال ، يقطع مراحل الفهم فالوعى ثم الاتحاد بذلك الواحــد المطلق . وانك فى تقدمك خلال هذه المراحل الثلاث — الفهم ثم الوعى ثم الاندماج ، يجب أن تعلم أنك كالصخرة التى تتلاطم عليها أمواج البحر ، تضربها فى عنف وشدة ، ولكن لا تعبأ فلن تنال منك شيئا ولا أثر لها اللهم الا أن تطهرك وتغسل عنك وزرك فاذا انحسرت عنك بقيت ثابتا فى مكانك .

ومثلك أيضا كمثل من ينظر من نافذة فى داره الى صبية يلعبون ويصخبون ويتجادلون ويدعون ما ليس لهم به علم ويظهرون بمظهر السيد تارة والخادم أو اللص تارة يوقعون العقوبة ويعطون المثوبة

ثم ينفض سـامرهم فتبقى آثار لعبهم الى أن يجرفهـا الكناس — الزمن .

فانظر الى الرجال والنسوة من حولك تر فيهم وجوه الصبية اللاهين اللاعبين وهم يحاولون أن تظهر عليهم سيما الجد وكأن ما هم بسبيله حق ، ولكن بعد قليل أيضا ينفض سامر هؤلاء كما انفض سامر الصبية ، وان طال الزمن فى حالة عن الأخرى ، ومع ذلك فكما تبسم للصبية فى لهوهم ولعبهم وتدعو لهم بخير ، كذلك ابسم للرجال والنساء من حولك وادع لهم بالخير ، ولو أنهـم لا يدركون دعاءك ، ولو نظروا اليك نظرة القادر الى العاجز القعيد.

لعلنا قد أوضحنا أن النظريات الثلاث أو المذاهب الثلاثة — الديانة السماوية (الوحى) والالهام أو الضمير والمنفعة أو العقل — لا تضارب بينها وأن كلا منها يتمم الآخر وان كلا منها فيه جانب من الحقيقة وان دارما تجمع بينها كلها وان ثلاثتها تشترك فى بناء هذه الفلسفة الشاملة أو أن هذه الفلسفة الشاملة تحتويها كلها وتقرها كلها لأن دارما هى العمل الصالح أو بقليل من الايضاح : دارما هى سبيل العمل والحياة فى أحسن صورهما انطباقا على مصلحة الفرد وعلى مساعدته ليخطو الخطوة السديدة التالية نحو الكمال أو كما قلنا من قبل اذا تحدثنا عن دارما الرجل قصدنا أسـمى ما يستطيع أن يعمل لصالح نفسه وصلاحها حسب درجة تقدمه .

ولابد أنه قد وضح الآن للطالب أن الحق والباطل أو الخير والشر فى فلسفة دارما نسبيان وان الحق المطلق عند الله وفيه وبه ومنه وانه ليس ثمة شر مطلق أبدا وان الشر أو الباطل الذى تحدثنا عنه انما هو نسبى مقيد ، فهو ناتج عن فهم لصورة من صور الخير فى مستوى منخفض بالنسبة لمن بلغ مستوى أرفع ، وان العمل الواحد يبدو خيرا لمن يعيش فى مستوى أقل من المستوى الذى عليه ذلك العمل بينما يرى أهل المستويات العليا انه شر .

ألا ترى كيف ينظر الأغنياء المترفون الى وليمة الفقراء ؟ انهم يرون فيها مظهرا من مظاهر الجوع والحرمان بينما يرى فيها الفقراء الذين يتمتعون بها فرصة من فرص السعادة . أو كيف يرى المعذب بالمرض فى فترة سكون الألم عنه بفعل الدواء فترة من السعادة بينما لا يكاد السليم يرى تلك الفترة الا مرحلة من مراحل المرض الطويل .

ليس فى الدنيا شر أو سوء مطلق ، انما الشر أو السوء هو بقدر البعد عن الخير والحق فى كل حالة . هذه نظرية يبدو فيها خطر كبير ولكن لننعم فيها النظر كرة أخرى .

عند استعراض تاريخ تطور الانسان نجد أن أعلى مثل الانسان الأول ما كانت تزيد على حالة الحيوان كثيرا ، فما كان عليه جناح أن يقتل أخاه ويسرقه ، حتى لقد كان القتل مفخرة للانسان القوى .

وكان له أن يأخذ من القتيل ما شاء حتى اذا تكونت الأسرة والقبيلة ضاقت دائرة القتل المباح فأصبح قتل فرد من القبيلة أو الأسرة عملا سيئا ولعله اعتبر كذلك حتى لا تنقص قدرة القبيلة على القتال والقتل نتيجة لقتل أفرادها بعضهم بعضا ، وبذلك دخل القتل فى نطاق الشر والجريمة اذا كان القتيل من أفراد أسرة القاتل أو قبيلته، ولكنه عمل من أعمال المجد والبطولة اذا كان القتيل من قبيلة أخرى . ونحن نرى فى هذه التفرقة وحشية فالقتل عندنا هو القتل والقاتل معتد سواء كان القتيل قريبا له أم غريبا عنه .

ومع ذلك فما زال هذا الانسان الأول موجودا فينا يستبيح القتل والنهب ، فقط يجب أن تكون حالة الحرب قد أعلنت ، فعندها يكون القتل بأبشع صورة مجدا وفخارا يزداد فى نظرنا كلما ازداد عدد القتلى وكبرت الغنيمة ، وكل الفرق بيننا وبين الانسان المتوحش أن الأخير لا ينتظر اعلان حالة الحرب لأنه فى حالة حرب دائمة .

ونحن نرى أن الانسان البدائى كان يفعل كل ما نعتبره نحن اليوم جريمة بدون أن يشعر بأنه يأتى أمرا ادا ما دام من يقع عليه اعتداؤه ليس فردا من قبيلته وكلما كبرت (الجريمة) ازداد فخر من يرتكبها . ومع تطور البشرية تحولت أعمال المجد والفخار هذه التى كانت أحسن الخير وأجمل الحق الى جرائم ينظر اليها الانسان فترتعد فرائصه .

هذا التطور كان الفضل فيه للأنبياء والمرسلين ولمن تبع هديهم من الكهنة سدنة الدين ورعاة الوحى بعد الأنبياء فى رأى المؤمنين بالديانات السماوية .

وكان هذا التطور نتيجة ليقظة الضمير والهامه الناس أن يفعلوا الخير وأن يتجنبوا الشر عند أصحاب مذهب الالهام والضمير .

وأخيرا كان نتيجة لتقدم الانسان العقلى وتفكيره فى مصلحة المجتمع وبوضع القوانين التى تمنع الجريمة وتعاقب عليها فى رأى أصحاب مذهب المنفعة والعقل .

لقد نظر الناس من بضع مئات من السنين الى أمور على أنها أحسن الخير ونحن نعتبرها الآن شرا ما بعده شر وكذلك ستكون الحال عندما ينظر أحفادنا ومن بعدهم الى الكثير مما نحسبه نحن خيرا فيرون فيه الشر والاثم .

اقرأ شيئا عن الحياة فى العصور الوسطى مثلا لتحكم على مدى تطور المثل العليا للسلوك والأخلاق ، انظر الى الرقيق وكيف كان الانسان يبيع الانسان وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، أو انظر الى الرجل يسجن الرجل طول حياته بغير محاكمة فلا يجد الناس فى ذلك سوءا ، وانظر كيف كانت الناس تحرق أحياء بتهمة السحر مرة والزندقة أخرى .

اننا نرى فى ذلك وحشية بينما كان الناس يتلهون بالحديث عنها فى ذلك الزمن ويهرعون للاستمتاع برؤيتها .

ولا نذهب الى ما طواه التاريخ ولكن لننظر حولنا نجد الخلاف بين الناس اليوم لا يقل عن الخلاف منذ بضعة قرون .

فالخلاف شديد فى وقتنا هذا على ما يعتبر خيرا أو شرا وحتى اذا اتفق الناس على أمهات المسائل نجد خلافا على الفـروع ، والقانون فى كل أمة يصور ما بلغ الضمير فى أوساط تلك الأمة من تطور ، ولو أنه كما قلنا من قبل متخلف دائما بعض الشيء كما أن الضمير متقدم دائما بعض الشيء عن متوسط قواعد الأخلاق .

الرجل العادى — المتوسط — دائما راض قانع بما يفرضه القانون من قيود وبينما يرى المتخلفون أن للقانون وطأة ثقيلة ويدا حديدية وانه وضع طبقا لمثل أعلى من مستوى الناس ، ترى الصفوة التى نمت أرواحها انه قاصر لا يفى بالحاجات وانه وضع على أسس أحط مما كان يجب أن يوضع عليه وانه كان يجب أن يحلق الى آفاق أعلى من الآفاق التى رسم عليها دوائره .

وكما أن الأشياء التى يراها الناس خيرا تصبح فى نظرهم شرا مع تطور الحال ومضى الزمن ، كذلك بعض الأشياء التى تعتبر شرا قد تصبح مع الوقت خيرا عندما يرتفع مستوى الناس ويزداد علمهم

ونضجهم فكم من المحرمات التى حرمتها أديان غابرة لأمر رآه الكهنة اما لصالحهم أو لصالح الدين رفعت من قائمة المحرمات عند زوال تلك الديانات .

ولا بد أنكم تلاحظون أن متوسط الذكاء ومتوسط وعى الضمير متمثلين فى الرأى العام والقانون يفرضان على الانسان مزيدا من الرعاية لبنى جنسه ويطالبانه بأن يكون أكثر رحمة وتعاطفا مع مضى الزمن ، ذلك لأن وعى الانسان وفهمه لقرب أخيه الانسان منه يزداد كل يوم اشراقا ولو لم يشعر الانسان بهذه الحقيقة لأنها كامنة فى وعيه الباطن .

ونعود الى دارما وحكمها بأن ليس ثمة خير مطلق ولا شر مطلق ، وان الخير والشر يتغيران تبعا للمقاييس التى يقاس بها فعل الانسان فى مراحل تطوره المختلفة ودرجات وعى البيئة التى يعيش فيها ، فنقول : ان هذه الفلسفة لاتبيح للانسان أن يفعل شرا أو قبيحا مما تحرمه العقائد أو المذاهب الاجتماعية الأخرى فليس اعتناق مبادىء هذه الفلسفة وانكار وجود الشر المطلق مبررا لمقارفة ما يراه الناس سوءا وشرا ، انما هذه الفلسفة تلزم اتباعها بالسير على أسمى ما ارتقى اليه مستوى البشر من الخير والحق ، وأن يسير السيرة المثلى حتى ولو لم يكن القانون والمجتمع قد بلغا مستواها حبا فى المثل العليا لا رهبة للقانون . وكذلك تطالب

اتباعها بالترفع عن فعل ما يرونه باطلا أو شرا ولو كان النـــاس والقانون يرون فيه غير رأيهم . ان تابع هذه الفلسفة يسبق الناس والقانون ولا يسير معهم ولا خلفهم .

ودارما لا تقول بأن الرجل المتخلف يجب أن تترك له الحرية فيأتى الجريمة ما دام يرى أن فيها خيرا ، ان فى فعله أذى لجيرانه واعتداء عليهم ولذلك فانها تمنعه من أن يفعل السوء ولو اعتقد انه ليس بسوء ، ألا ترى أن القط وهو يسرق الطعام أو الثعلب وهو يقتل الدجاج دون أن يعتبر القط لصا ولا أن يعتبر الثعلب قاتلا ولا جناح عليهما ولا يقال لهما انهما أشرار ، ألا ترى أنه من الحق مع أنهما يسيران على طبيعتهما أن يمنعا من السرقة والقتل ما أمكن المنع ؟ كذلك الرجل المتخلف اذا قتـــل لأنه لم يبلغ من التقدم المرحلة التى تمنعه من القتل أو لجهله أو لأن المثالية لم تبلغ فيه المبلغ الكفيل بمنعه من ارتكاب هذه الجريمة ، كل هـــذه الأسباب لا تبرر تركه يعيث فى الأرض فسادا ويقتل من شاء متى شاء ، ولكن يجب منعه لوقاية المجتمع لا للاضرار به هو . ويجب أن نعتبر عقوبتـــه لاصـــلاحه لا للتشفى فيه والانتقـــام منـــه والواقع أن المجرمين بدائيون متوحشون وأن (جرائمهم) ليست جرائم اذا نظر اليها من مستوى نضجهم أو من المستوى الذى كان الانسان يعيش فيه فى عصوره البدائية ، عصور التوحش ، ويجب

علينا أن ننظر اليهم على أنهم أخوة صغار فى البشرية لم يتعلموا بعد ولم ينضجوا ولكنهم أخوة على كل حال[1] .

ان دارما تأمر بأن يعيش الانسان كأحسن ما وصل اليه علمه ووعيه سواء كان ذلك عن طريق الوحى السماوى أو الالهام والضمير أو العقل . والواقع أن هذه الثلاثة لها فى كل انسان أثر لحد ما ، وان الدرجة التى بلغها من الوعى تشترك فى تحديدها هذه الثلاثة مجتمعة ، فاذا غم على الانسان أى السبل يسلك وأى الأفعال أقرب للصواب والحق . لجأ الى ضوء روحه فاستهداه الطريق واستلهمه الصواب . وفى ذلك الضوء يتضح له الطريق المستقيم فيتبعه .

وأمر آخر تأمر به دارما ذلك أن تمسك عن المعيرة والنقد وادانة من لم يبلغ ما بلغنا من مستوى فانه وان لم ينظر الى الأمور نظرتك ولم يقف منها موقفك ؛ فلعله يلتزم اتباع أحسن ما تهديه اليه نفسه أكثر مما تلتزم أنت اتباع أحسن ما تأمرك به نفسك فكيف تجرؤ على أن تدينه ؟ أبلغنا حد الكمال حتى نجعل أنفسنا ديانين للناس نلزمهم بفعل ما نفعل واجتناب ما نجتنب ؟ أين يقع ما بلغنا نحن من كمال المولى سبحانه اذا قيس به ؟ هل فكرنا فى

(١) هذه نظرة أكثر انسانية من نظرة علم الاجتماع الحديث الذى يعتبر المجرمين مرضى فهم ليسوا مرضى بل انهم أخوة صغار فى الروح . (المترجم)

أننا لو كنا مكان ذلك الأخ أو تلك الأخت لما فعلنا خيرا مما فعل أو مما فعلت ؟ وحتى لو وضعنا أنفسنا مكان أيهما فاننا نحكم بما اكتسبنا من تجارب وما بلغنا من نضج ، لا بما اكتسب هو أو اكتسبت هى من تجارب ، ولا بما بلغ أو بلغت من نضج ، ولذلك فحتى لو وضعنا أنفسنا مكانهما لما استطعنا أن نحكم هل عملا بما اعتقدا أنه الخير كله أو لا ، فلكى يكون حكمنا صحيحا يجب أولا أن تتجرد من شخصيتنا وتجاربنا وما بلغنا من وعى ثم نستولى على تجاربهم ووعيهم وبعد ذلك نرى ماذا يكون عملنا فنحكم على عملهم . ولن نستطيع أن نفعل واذن فليس لنا أن نعير أو ندين المخطئين[1] .

ولابد للطالب الذى تتبع ما قلناه عن المذاهب الثلاثة التى يقوم عليها كلها هيكل دارما وبنيانها من أن يسأل عن قمة البناء وتاجه الذى يعلوه ، وعن المثل الأعلى الذى تقدمه دارما لمن يدخل الهيكل القائم على الأعمدة الثلاثة ما الذى يجده هناك حتى يتبعه ؟ فلننظر ما تقوله دارما .

ان النقطة الرئيسية التى يجب أن نجعلها نصب أعيننا عند بحث (العمل الصالح) فى رأى دارما ونظرها هى أن روح الانسان

---

(١) واياكم والمعيرة فاننى والله ماعيرت أحدا بشىء الا عيرت بمثله
(من وصية عمرو بن كلثوم لبنيه)   المترجم

فى تطور لا سكون فيه ولا توقف ، انها تتحرك صعدا من مستوى الى مستوى ومن طبقة الى طبقــة ، من حيث اعتقاد الانفصــال والانفراد الى العلم بالاتحاد والوحدة ، ان التقدم هو هدف الحياة وسنة الخالق فان صح هذا وضح ان كل ما يدفع الانسان الى الأمام نحو الهدف صالح أو خير أو حق وكذلك يتضح أن كل ما يعيق التقدم أو يؤخره أو يعود بالانسان الى الوراء سوء وشر وخطــأ .

قد يكون الأصح بدل قولنا سوء وشر وخطأ أن نعبر بقولنا ليس صالحا أو ليس خيرا أو ليس حقا أو أن نقول أقل صلاحا وأقل خيرا وأقل حقا ، ولكن النتيجة واحــدة وان اختلف التعبير فالصالح أو الخير أو الحق يساعد على التقدم والتطور بينما السوء والشر والخطأ يحول دون التقــدم أو يرد الى الوراء أو يهبط بالانسان الى مستويات كان قد ارتقى عنها بفعل الخير من قبل .

انه من اللائق للنمر أن يكون شارب دماء شرسا لأن مستواه يتفق مع هذه الصفات ، ولكن الرجل الذى ارتقى فى سلم الحياة أن فعل مثله كان فعله خطأ وشرا لأنه ينزل به الى مستوى خلفه منذ أمد بعيد . ان الرجل الذى تتردد فى نفسه أفكار القتل والثــأر والحسد وما اليها مما ينهاه ضميره عن مقارفتها لأنه جاوز مرحلتها وارتقى الى ما فوقها ، هذا الرجل أن يعمل ســوءا ينزل به عن

مستواه بدل أن يرتقى ويرتفع الى المستوى الذى يليه بفعل الخير والابتعاد عن هذا السوء .

وفى فلسفة دارما قد يكون رجل على الدرجة الثالثة من السلم ورجل آخر على الدرجة الخامسة فان هبط الأول بعمله الى الرابعة كان عمله شرا لأنه نزل به عن مستواه ، وان ارتفع الثانى بعمله الى الرابعة كان عمله خيرا لأنه رفعه عن مستواه ، ومع أن الرجلين وصلا الى الدرجة الرابعة الا أن أحدهما عمل سوءا (بجهالة) والآخر عمل عملا صالحا . ان قانون التطور والتفتح الروحى يقود الى فوق ، فكل ما ارتفع بالانسان كان منطبقا على القانون فهو خير ، وكل ما نزل بالانسان كان ضد القانون وهو شر .

اذا كان المدرس يبذل مع تلميذ كسول متأخر جهدا يثمر ولو تقدما بسيطا يبديه ذلك التلميذ فان المدرس يسره من غير شك ذلك التقدم مهما كان تافها ويشكر التلميذ تشجيعا له ، ولكن هذا المدرس نفسه لاشك يغضب على أى من التلاميذ النابهين اذا فعل ما استحق الكسول عليه الشكر . ولا شك أن مكافأة الكسول ومعاقبة النابه مع أن فعلهما واحد يبدو تصرفا غريبا لمن ينظر للأمر نظرة سطحية فيعجب لأن المدرس فرق تفرقة لاتدركها تلك النظرة وتعرفها جيدا نظرة الفاحص — نظرة المدرس . لعل الهدف من هذا المثل لا يغيب عن فطنة القارىء .

واصلوا السعى والدأب أيها الأصدقاء وعيشوا أقرب ما تكونون لما تعتقدونه حقا وخيرا مهما لقيتم فى ذلك السبيل من مشقة وارجعوا الى ما سبق ذكره فى درسنا الأول « ابحثوا فى القلب عن مصدر الشر واستأصلوه » وكونوا مروضين للوحوش الرابضة فى حنايا طبيعتكم وتعلموا تطهير تلك الطبيعة من مخلفات الماضى هذه .

وشدوا وثاق الغرائز الحيوانية الكامنة فى داخلكم — احصروا الوحش فى ركن قفصه غير عابئين بما يكشر عن ناب أو بما يقلب من مخلب .

جاهدوا لتنموا بالروح وتتطهروا وترتفعوا على سلم الوصول حتى تبلغوا الدرجة التى ترون فيها دارما وقد أصبحت جزءا من طبيعتكم فعند ذلك تكونون قد بلغتم دائرة صفاء الروح التى ان دخلتموها أشرق نورها على عقولكم من كل مكان كما يدخل نور الشمس الحجرة المغلقة اذا تفتحت نوافذها فيحيل ظلامها نورا يبدو كل شىء فى ضوئه واضحا وتختفى الأوهام التى ولدها الظلام أوهام الوحوش التى كان الظلام سبب وجودها وليس لها فى الحقيقة من وجود .

أعملوا على رفع الحجب عن الروح حجابا بعد حجاب واذكروا ما جاء فى كتيب (ضوء على الطريق) : اسجدوا فى خشوع لذلك

النجم الذى يضىء فى داخلكم ترونه ضوءا خافتا بعيدا أول الأمر فكلما طال السجود وزاد الخشوع ازداد النجم لمعانا وازداد ضوءه قوة . عند ذلك تعلمون أنكم اهتديتم الى بداية الطريق ، حتى اذا وصلتم الى آخره تحول نوره فجأة الى النور اللانهائى — نور السموات والأرض » .

ليكن لكم سلام .

الدرس العاشر

لغز الكون (The riddle of the universe)

أشرنا فى الدرس السادس (جنانى يوجا) الى جانب واحد من جوانب ذلك الفرع من فلسفة اليوجا وقلنا اننا سنعود الى تناول جوانبه الأخرى فيما بعد وها نحن نواصل الحديث .

موضوع (جنانى يوجا) متسع اتساعا يسمح بأن تكتب فيه مجلدات ومجلدات ، والواقع أنه قد وضعت عنه مؤلفات بلغت آلاف الكتب وضعت كلها بوحى تعاليمها وسنتناول فى درسنا هذا بعض نواحيها الهامة محاولين تقديمها فى بساطة تمكن من معرفة أسسها وادراك قواعدها ولو لحد ما لمن وجد صعوبة ومشقة فى فهم الشروح المعقدة العويصة الأخرى .

قلنا فى الدرس السادس ان : كل الوجود الظاهر منه والباطن فيض للواحد الذى لا ثانى له .

هذا الواحد أصل الوجود ، أطلق عليه الكثير من الأسماء نجد أحسنها (الروح) أو (المطلق Absolute) ونقصد بالمطلق غير المقيد بشروط ، المنزه عن الحدود التام بنفسه ، الغنى عن السند

المتعالى الحق ، وبتعبير آخر انه الشيء الحقيقى لأنه دائم وغيره باطل لأنه زائل ونود أن نوضح المعنى المقصـــود من الكلمة فان اختلاف الفهم يؤدى الى الكثير من الأخطاء . سنكثر من استعمال كلمة (نسبى Relative) نريد بها عكس المطلق (Absolute) فانها تعنى — غير التام ، المقيد بشروط ، المحدود ، المفتقر الى غيره، ، الجزئى (لا بمعنى الجزء المنفصل ولكن بمعنى الناقص غير التـــام) . المتغير القابل للزوال .

وعند بحث (الأشياء على حقيقتها أى كما هى) سنستبعد صفة بعد أخرى أو مظهرا بعد مظهر حتى يبقى الشيء الذى لا يتجزأ ولا يقسم ولا يحلل الى أجــزاء يتكون منها — الشيء المطلق . ويتحدث اليوجيون عن هذا الشيء المطلق بقولهم الشيء كما هو كائن ويصفون النسبى بقولهم الشيء كما يبدو أو يظهر .

وللتقريب للفهم نفكر فى المطلق على أنه (الشيء الكلى كما هو كائن) وفى النسبى على أنه المظهر الناقص غير الكامل لناحية أو صفة من (الشيء الكلى) .

انه من غير الممكن وضع الوصف الصحيح لكلمة (المطلق) اذ لو استطعنا وصفه لأدركناه وهـــذا مستحيل فالكلمة ما هى الا محاولة من العقل لنقل ما يتصوره الى ادراك عقل آخر ولما كان العقل فى حالته الراهنـــة (نسبيا) أى (مقيـــدا محدودا) فمن

المستحيل أن يدرك المطلق . وكل ما يستطيعه أن يرسم صورة لحدوده هو وقيوده هو ثم يقول ان المطلق هو ما عدا هذه الصورة .

والعقل عاجز لنفس السبب (أى لأنه محدود) عن ادراك المكان المطلق (اللانهائية) والزمان المطلق (الأبدية) والعقل المطلق ولكنه يتصور قسما محدودا منها ثم يفرض أن (غير المحدود) هو ما عدا صورة ذلك القسم المحدود . فهو مثلا يرسم دائرة على الورق ، انها المكان المحدود أما المكان غير المحدود (اللانهائية) فلا يدركه الا بالقياس لهذا المكان المحدود .

كذلك يحاول أن يعرف الزمان غير المحدود (الأبدية) بأن يحدد الثانية والدقيقة واليوم والسنة وكلها نسبية وما زاد من جانبى الوقت المحدود فى الماضى والمستقبل الى ما لا نهاية له هو الزمان غير المحدود ، الأبد . والمكان اللانهائى والزمان اللانهائى يحويان الزمان النسبى والمكان النسبى اللذين حددهما الانسان بحدود طاقته . ولكن الزمان والمكان النسبيين لا حدود حقيقية لهما فى الزمان المطلق والمكان المطلق (الأبدية واللانهائية) انما هذه الحدود فى ادراك الانسان وتصوره فقط . فاذا قال الانسان أمس أو اليوم ، لا ينفصل هذا اليوم ولا ذاك الأمس من الأبدية بتحديد الانسان لهما . وكما أن الانسان اذا نظر خلال منظار يرى قسما

كبيرا من البحر الا أن ذلك القسم الذى وضع له بصر الانسان حدا لا يفصل بينه وبين سائر البحر شيء . فالعقل عاجز عن ادراك الله (المطلق) الا اذا قصر تفكيره على صفة محدودة من صفات الله يدركها كما يدرك الجزء من الزمان أو المكان اللذين يحددهما من الأبدية واللانهائية .

وكلما ارتقى وعى الانسان واتسع يتفتح روحه واشراق نور الروح على العقل ازداد فهمه وتصوره ، ولكن لا يدرك المطلق الا المطلق نفسه . وعلى هذا فالسر الأعظم لا كاشف له فى عقل من العقول المحدودة ولا يدركه الا هو ، وان كان ازدياد الوعى يجعلنا أقرب الى الحقيقة ، وكلما سقط حجاب ازددنا قربا وازدادت الحقيقة اقترابا وعلى الضوء المتزايد يستطيع العقل أن يرى ما كان من قبل خافيا ، وما كنا نطالب بالايمان به من غير بحث أو تفكير لأنه فوق مستوى العقل البشرى ينجلى الكثير من ألغازه تحت ضوء أشعة الروح التى تنير السبيل أمام القوة العاقلة وتمكنها من تمييز الأشياء حين تخف كثافة الحجب .

صحيح أن أول خيوط الضوء لا تظهر الا نتيجة للايمان الأعمى فى أول الأمر ، وصحيح كذلك أن المعرفة (العلم اللدنى) دائما وليدة الالهام لا نتيجة فحص العقل ومحاولاته ، الا أن هذه القوة العاقلة أداة كبيرة الأثر فى ادراك الكثير من صفات الحق وتلقى

ارشاده . وهي لاتتعارض مع الالهام ولا يتعارض الالهام مع ادراكها السليم الا أن كل ما فى الأمر أن الالهام يزيد عليها وانها دائما متخلفة عنه وهي ليست كما يقول عنها غلاة الروحانيين خادعة كاذبة فانها تمدنا بالكثير من الحقائق السليمة الصحيحة وكثيرا ما تصل بكدحها ودأبها الى ما قد يلقيه الالهام للمحظوظ فى طرفة عين ، وان أخطأت وضلت الطريق فى أحيان كثيرة .

يجب فى بحثنا عن المعرفة وسعينا وراء الحقيقة أن نستعين بكل وسائل الادراك فلا نغالى فى الايمان بغير بحث أو فى الحط من العقل واتهامه بالعجز والقصور والتضليل ، كما يقول رجال الدين ، ولا أن نقول ان العقل هو كل شيء وان الالهام والوعى الروحي والوحي حديث خرافة كما يقول الماديون الملحدون .

الواقع أن القوة العاقلة والوعى الروحي أو الالهام ما هما الا انتاج العقل على مستويين مختلفين انهما شقيقان يسيران يدا فى يد اذا سمحنا لهما بالتعاون والعمل كل فى محيطه ودائرة اختصاصه ولم نكبل أحدهما أو الآخر بقيود التعصب والتحيز لنتركهما يتعاونان ويتقارضان النصيحة ويتبادلان المعونة ذلك خير من أن يقف كل منهما من الآخر موقف العداء .

لنسمع ما تقوله القوة العاقلة المحدودة عن قوة الخالق غير المحدودة ، انها لا تستطيع أن تدركه كما قلنا ، ولكننا بدونها

لا نستطيع فى دورنا هذا من أدوار التطور وفى كياننا هذا البشرى، لا نستطيع بدونها ادراك شىء عن الخالق وقدرته ، فلا جناح علينا أن سألنا العقل رأيه فى الخالق ولكن لابد بعد سماع رأيه أن نلجأ الى ما تسلمناه عن العقل الروحى وما هو الا طبقة عليا من العقل تنكر الطبقات الدنيا وجودها وسلطانها .

عقل الانسان عندما يصل الى المرحلة التى يستطيع فيها أن يفكر فى الكون والحياة والوجود ويحاول أن يتصور مدى صلة الأسباب بالمسببات المترتبة عليها — العلة والمعلول — عندما يصل الى مرحلة — أنا أفكر فأنا موجود — يعقل حتما وجود (شىء) (وراء هذا كله) .

أول ما يتصور العقل من أفكار تكون أفكارا فجة بدائية غير صقيلة ، ولكنه كلما أمعن فى الاستقراء والبحث ازدادت فكرته نضجا وسدادا ، وكلما زاد العقل نضجا ازداد فيه الشعور بوجود (قوة خفية) وراء مظاهر الكون وهذا الشعور هو الذى يتحول مع الوقت فيصير الايمان الذى مظهره الدين ، وينسج العقل حول رأيه فى الكون نظريات تتأثر بالدين والتعليم ويخلق آلهة يدعم بها رأيه ونظرياته ، ثم يتخذ العقل طريقين مختلفين يسير فى كل منهما فريق ، هذا يتفق مع وجهة نظر الكهنة ومصلحتهم وذاك يقول به الفلاســفة .

ويمضى الكهنة فى طريقهم قائلين ان الههم أو آلهتهم هم الذين خلقوا الكون ويصفون ، ما وسع خيالهم ، أسلوب الخلق وغاياته ودعاماته وهذا الوصف يتطور مع الزمن ومع خيال الكهنة .

والفلاسفة وان أنكروا ما يقول به الكهنة ، الا أنهم دائما حذرون يجعلون تعاليمهم ونظرياتهم متفقة مع الدين السائد ويستعير الكهنة أسلوب الفلاسفة فيأخذون فى وضع علوم الدين يضمنونها الآراء التى ترضى العقول بعض الرضى اذ يضعون مقدمات يبنون عليها نتائج كما يفعل الفلاسفة .

ثم يظهر الماديون الذين يريدون أن يجعلوا المادة أصل كل شيء ، وقد اختلف هؤلاء مع الفلاسفة والكهنة وحارب كل منهم الآخرين فى غير هوادة يتهمهم بالغباء والغفلة ويوقع بهم ، ان استطاع ، النكال — هذا فى الغرب .

أما الشرق (اليوجا) فان مفكريه رأوا فى الدين والفلسفة والطبيعة وجوها متعددة لمسألة واحدة ، وسيصل المتنافسون فى الغرب يوما الى التفاهم ، فكل منهم يسلم بوجود قوة وراء الوجود ووراء الحياة وأن اختلفوا فى شأن هذه القوة ومدى اتصالها بالحياة .

يرى فريق ان هذه القوة خارج الكون وانها صنعته .

ويرى فريق أن هذه القوة هى الكون وهى الحياة ويسميها علماء اللاهوت الله .

ويسميها الميتافيزيقيون الحقيقة والفاعلية والحق وغير ذلك من أسماء .

ويسميها الماديون وعلماء الطبيعة المادة والقوة أو الطاقة الكامنة فى المادة وهى فى نظرهم أصل الحياة .

وهذه التسميات كلها يراد بها سر الوجود مجردا من هــذه المظاهر التى تتركب وتتحلل ، تأتى وتذهب .

هذا السر يجمع عليه المختلفون ويرضى العقل عن وجوده وان لم يرض أحد عن التفاصيل التى يأتى بها الآخرون ، ويرضى العقل عن حقائق هى :

الأولى — هناك قوة مطلقة .

الثانية — واذن فكل مطلق هو هذه القوة ولا يمكن أن يكون هناك قوتان وكل ما ظهر فى الوجود فهو من هــذه القوة أو بها أو فيها .

الثالثة — وان كل ما كان وكل ما هو كائن وكل ما سيكون من هذه القوة .

انها الكل الآن وهى كل ما كان وكل ما سيكون .

وان الكل هو الكل لاشىء خارج عنه .

وأن لابداية له فلم يكن قبله شىء .

وان لا نهاية له فلا يبقى بعده شىء .

الرابعة — هذه القوة فى كل مكان فى نفس الوقت ، وهذه حقيقة واضحة اذ لا يمكن أن يخلو مكان من الكل فالمكان جزء من الكل كما أن الزمان جزء من الكل أو هو الكل فلا يمكن أن يوجد مكان خال فالخلاء أو العدم لا يمكن تصوره بالعقل .

الخامسة — هذه القوة غير محدودة لا تعجز عن فعل ولا يقع فعل الا بها ، فهى مصدر القوى جميعا .

السادسة — هذه القوة هى العلم بكل شىء لا علم الا بها ومنها .

السابعة — هذه القوة لا حد لها .

الثامنة — هذه القوة لا أول ولا نهاية لها .

التاسعة — هذه القوة لا تتجزأ ولا تنقسم .

العاشرة — هذه القوة لا تتحول ولا تتغير .

الحادية عشرة — كل شىء من هذه القوة منتسب اليها والا فلا وجود له .

هذه كلها حقائق لا يمكن أن يتصف بها شىء من الوجود ولكن هى صفات حق لأصل هذا الوجود .

المظاهر أو النسبيات الثلاث العظمى

يستحيل على العقل العادى أن يرى أو يتصور المطلق فى ذاته ولكن مظاهر هذا المطلق تبدو واضحة للعيان وقد يسترق العقل الروحى نظرة نحو هذا المطلق حين تصفو الروح ويتسنى للأشعة العليا النفوذ خلالها .

ونود أن نسبق سباق الحديث قليلا فنضع السؤال الذى لابد أن يتردد فى عقل الطالب « وأين أنا من المطلق والمقيد ؟ » أو كما قال أحد الأميركيين أخيرا (أين أدخل أنا فى كل هذا) سنجيب على هذا السؤال بالتفصيل فى الدرس الأخير ولكن نقول سلفا ان الانسان كما يبدو لنفسه الآن فيه كلا الاثنين فيه المطلق والمقيد — يعنى العنصرين ، الروحى والمادى ، فيه الروح وهى من المطلق وحولها النسبى الجسم والقوة والعقل والأسماء بالسنسكريتية هى (أتمان) الروح (اكازا) الجسم أو المادة (برانا) الطاقة والقدرة (شيتا) جوهر العقل ، وترى فلسفة اليوجا ان هذه الأربعة موجودة فى كل شىء .

فالروح وهى الحق موجودة فى كل مكان فى كل شىء ، ولكن لا على أنها وحدات منفصلة ، فى كل شىء قطعة منها يحتويها ذلك

الشيء ، لا : بل يمكن التعبير بأنها تخيم على الوجود ، وأنها فى كل شيء ، تحته وفوقه وحوله ، ولقد سبق القول ان الانسان فيه قطرة أو أن كيانه هو كنقطة فى محيط الروح أو شرارة من نار القدرة أو شعاع من نور الشمس العظمى هـذا كله استعارة ومجاز لتقريب الحقائق ولكن ليس هناك انفصال أو تجزئة للروح . فهذا غير ممكن الحدوث .

ان المظاهر الثلاثة التى يتجلى فيها الحق (الروح) هى كما يدركها عقل الانسان :

١ — المادة (اكازا) .
٢ — الطاقة (برانا) .
٣ — العقل (شيتا) .

هذه الثلاثة يعترف بها علماء الغرب الحديثون وان حاول بعضهم التملص من القوة الثالثة بينما يرى اليوجيون أن هذه ليست ثلاثة أشياء انما هى ثلاثة مظاهر لشيء واحد اذ يرون أن المادة ما هى الا طاقة كثيفة وكذلك الطاقة ما هى الا عقل كثيف . وان العقل فى أعلى درجات صفائه يقترب كيانه من كيان الروح التى انبثق عنها !

المـــادة

المادة كلمة يستعملها العلماء للتعبير عن كل ما صنعت الأشياء منه وهى منتشرة فى (المكان) وليس فى المكان خلاء غير مشغول

بها ، والمادة صلب وسائل وغاز لا قرار لها على حال ، والمادة هى هى تختلف الطاقة التى تتخللها — كالحرارة مثـلا — فتختلف صورتها كالصخر يتحول الى رماد والجليد الى ماء والهواء الى سائل وهكذا مما يعرفه الناس جميعا ويتحول الرماد الى غذاء للنبات والى مادة الحياة فيه وهكذا ترى ان ما كان جـزءا من الصخر أصبح جزءا من النبات واذا به يتضوع ريحا من روائح الزهر أو لونا من ألوانه ويتحول النبات الى غذاء للانسان حتى يصل الى ذرات المخ وبهذا ينتقل الصخر الى أرقى ما فى الوجود — عقل الانسان — وفى هذه العملية الطويلة المعقدة تتحول المادة من صورة الى صورة ، ومن حال الى حال ، دون أن تتغير ذرة واحدة من عنصرها ودون أن تبيد أو تفنى ذرة واحدة ، وتخرج المادة من جسم الانسان فى أغلظ وأرق صورها — غاز ثانى أكسيد الكربون الخارج مع الزفير من الرئتين بعد أن ينقى الأكسجين الدم وهكذا تعود المادة الى الهواء ليمتصها ورق الشجر غذاء للنبات فتصل الى جذور الأشجار التى تتحول مع الزمان فحما حجرا . وسبحان مسير الكون الخلاق المبدع الحكيم[١] .

يقول فلاسفة اليوجا ان هذه الظاهرة ظاهرة المادة وتسلسل التغييرات فيها ما هى كلها سوى مظهر لعنصر أصلى لا وجود لغيره

(١) هـذه الفقرة ترجمت بتصرف فى الألفـاظ مع المطابقة التامة للمعنى .

المترجم .

وان العناصر المختلفة التى تتحدث عنها الكيمياء ما هى الا مظهر لذلك العنصر الواحد وان الكيمياء اذا بلغت من التقدم درجة أعلى ستكشف عن هذه الحقيقة ، وعلم الطبيعة فى طريقه الى الوصول لنفس النتيجة وأن كان الآن عاجزا عن اثباتها بالتجربة فان العلم يقرر أن المادة تتركب من ذرة غير قابلة للانقسام وقد قال البعض أن هذه الذرات هى أصل الوجود وهى تحل عندهم محل (الله) عند أهل الديانات لولا أن التطور لا يجعل لهذا الرأى قيمة. الا أن العلم يبحث عن ذرة داخل الذرة وقد لمح الى ذلك العلماء نتيجة لبحوثهم وربما ظهر قريبا عندما يتوغل بحث العلماء داخل الطاقة حتى منابعها ، وربما اجتمعت الطاقة وقوة العقل فى مصدر واحد هو القوة المطلقة. أن بين العلم وهذا الهدف أمد بعيد وان كان اليوجيون قد أدركوه منذ زمان طويل [1] .

(١) كتب هـذا سنة ١٩٠٤ ولا شك أن القارىء قد وضح له أن هذه النبوءة قد تحققت فعلا بعد ان اثبت العلم ان المادة كما عرفها علماء القرن التاسع عشر اصبحت فى ذمة التاريخ وبعد أن تحطمت الذرة ونشأت عن تحطيمها قدرة لا حد لها ولا يعرف مدى نتائجها الا الله . (المترجم)

الدرس الحادى عشر

المادة والقوة

انتهى الدرس السابق بالحديث عن المادة وكما قلنا ، أن المادة تتألف من ذرات غير قابلة للانقسام ، وأن العلماء أصبحوا يظنون بهذه النظرية الظنون بعد اكتشاف أشعة اكس والراديوم فأصبحوا يعتقدون امكان تحليل الذرة بعد أن كان العلم استراح الى أنها أصل المادة وأنها عنصر لا ينتج عن تحليله غيره . ويبدو أن العلم الآن على وشك التسليم بتعاليم اليوجا وهى أن المادة فى أرق حالاتها تذوب وتنتهى الى الطاقة وان المادة ما هى الا طاقة غير صافية صفاء الطاقة ، طاقة أقل صفاء من الطاقة البحت .

عنصر المادة كما تقول الصحف والمجلات هو الالكترون وهو شحنة كهربائية وقد قرب أحد العلماء فكرة الالكترون بالنسبة للذرة فقال : تصور غرفة طولها ٢٠٠ قدم وعرضها ٨٠ قدما وارتفاعها ٥٠ قدما وفى فضاء هذه الغرفة ألف شرارة كهربائية كل منها فى حجم النقطة (.) المستعملة فى الكتابة العادية ، وبنسبة الفراغ الذى تتمتع به هذه النقط داخل الغرفة الشاسعة تكون

نسبة الفراغ الذى تتمتع به الالكترونات داخل الذرة . فاذا رجعنا الى حجم الذرة ، وتذكرنا أن العين البشرية لا يمكن أن تراها ، أدركنا مدى العجز عن تصور حجم الالكترون الذى يهيم داخل الذرة كما تهيم النقطة فى فراغ الغرفة الشاسعة .

ولا شك أن هذا العجز سيزيد ويتضاعف اذا قيل لنا أن هذه الالكترونات فى حركة دائبة تدور حول نفسها وحول بعضها كالكواكب فى عالم دقيق .

وقد اضطر العلماء للالتجاء الى هذه النظرية واعتقاد صحتها ليفسروا بها ظاهرات طبيعية . ونحن لا نقول اننا نسلم بها على أنها الكلمة الأخيرة فى الموضوع ، ولكن لأنها اقتربت اقترابا شديدا من نظرية اليوجا التى تقول ان المادة والطاقة شيء واحد وسيرى الطلبة من وقت لآخر أن كل كشف علمى جديد سيشير الى هذه الحقيقة وكيف أنه سيتم آخر الأمر ادراك حقيقة أخرى هى أن الطاقة فى أشكالها الأكثر صفاء تذوب وتنتهى الى العقل . وربما ابتسم قارىء وهو يتلو قولنا هذا بعد خمسين سنة أو أكثر عندما يشاهد مدى تحقق هذه النبوءة[1] ونحن نمد أيدينا عبر الخمسين سنة الى هذا الطالب الذى لعله لم يولد بعد .

---

(١) نحن الآن (فى عام ١٩٥٧) بعد نحو ٥٣ سنة من القاء هذه المحاضرات ولا شك أننا نبتسم جميعا لتحقق هذه التكهنات التى وصل الكاتب اليها وحققها تحطيم الذرة ، وهو تحول المادة الى طاقة ، وربما وصل العلم الى تحويل الطاقة الى عقل فتتم أجزاء النبوءة جميعا . (المترجم)

أما العقل فربما لا يكون أحد قد توصل الى فهم شيء عنه حتى في المستقبل الذى نشير اليه ، اللهم الا اذا فهم على أنه مظهر من مظاهر المطلق يعلو القوة أو الطاقة بقدر ماتعلو الطاقة المادة .

العقل والقوة والمادة ثلاث صور أو ثلاثة أشكال لمظهر واحد وراءهما جميعا (المطلق) (المبدع) (الخالق) مُظهِر المظاهر .

ولنلخص مسرعين النظريات الحديثة العلمية عن المادة لنرى مدى قربها ومسها لتعاليم اليوجا . يرى العلم الغربى أن المـادة تشغل الفضاء (المكان) الى ما لا نهاية (الأثير مادة) وهو يرى أيضا أن المادة لا تتغير ولا تفنى ، وانها غير قابلة للزيادة ولا للنقصان وان كميتها هى هى الآن وكما كانت وكما ستكون ، وانها وجدت منذ الأزل اذ لا يعقل أن تكون وجدت من لاشيء وانها ستبقى اذ لا يمكن أن يصبح شيء لاشيء . وهكذا نرى أن العلم الغربى اتخذ من المادة الها اذ نسب اليها صفات المطلق القائم بذاته الذى لا أول له ولا نهاية ، بدل أن يضعها فى مكانها ويعلم أنها مظهـر فقط للقوة ، فلا ينسب اليها ما ليس لها كما أن القوة أو الطاقة مظهر للعقل وكما أن العقل مظهر للمطلق .

أما فلسفة اليوجا فتقرر أن المادة بنفسها لا وجود لها وما هى الا حالة من حالات القوة انبعثت من الطاقة التى انبعثت من العقل والعقل مظهر لقدرة الله (المطلق) . وهى تتكلم عن العقل والطاقة

والمادة على أنها مظاهر ثلاثة تنبثق كل منها عن الأخرى وسنتكلم نحن أيضا على طريقتهم هذه فى دروسنا هذه .

قال بعض العلماء أن المادة هى (الكل) لا شىء قبلها وأن الطاقة والعقل آثار لهـا . وقال آخرون ان الطـاقة هى (الكل) وأن المادة منها والعقل من آثارها . وقال الفلاسفة أن العقل هو (المطلق) وأن المادة والطاقة مظهر كالسراب لا حقيقة لهما واتبعهم بعض من يخلطون بين الدين والطبيعة وما وراءها .

أما اليوجا وفلسفتها فهى تقبل هذه النظريات كلها على أن فى كل منها شيئا من الحقيقة ولكن وراء هذه المظاهر كلها التى وصفت بأنها الأصل الخالق حقيقة واحدة والها واحدا هو علة هذه كلها وما هى الا مظاهر لقدرته وقوته ، ولا تعارض فلسفة اليوجا أحد هذه الآراء انما توفق بينها وتجمع شتاتها وتقرر أن كل شىء يتفرع من الواحد المبدع الذى يعلو كل شىء ومنه كل شىء .

وقبل أن ندع ما يقول به العلم وما يراه العلماء الطبيعيون فى المادة نود ألا يفوتنا أن نشـير الى نوع من المادة لجـأ العلم اليه يملأ به الفراغ الذى بين النجـوم والكواكب والفراغ الذى بين الالكترونات فى الذرات وما بينها وسموا هذه المادة الأثير وقالوا انها أرق أنواع المادة وألطفها فهى لا تدرك بأية وسيلة من وسائل الادراك أو الحواس ولكن وجودهـا ضرورى لتكون موصـلا

للضوء والكهرباء أنشأ العلماء هذا النوع من المادة حتى لا يكون في الكون فراغ لأنهم قالوا ان المادة فى كل مكان لا أول لها ولا آخر ولا حدود وهكذا قامت نظرية الأثير .

وحتى هذه المادة (الأثير) لا تنكرها فلسفة اليوجا ولا تختلف مع العلم بشأنها لأنها تقول عن المادة (اكازا) انها موجودة فى الكون كله ومنها تتكون أنواع المادة فى صورها المختلفة من الأثير بأنواعه الستة التى تتدرج فى الكثافة ثم الهواء والغازات والأبخرة ثم السوائل ثم الصلب من المواد وان الاكازا (المادة) تتكون منها أدق المواد وأغلظها ، منها الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وأجسام الانسان والحيوان والنبات والأرض والصخر وكل ماله شكل وحجم مما يدرك باحدى الحواس ومن الاكازا ما دق من الأشياء حتى لا تدركه عين ولا حاسة من الحواس .

والأرواح التى تسبح بعد أن فارقت الأجساد لها أجسام دقيقة لا ترى ولا تحس . كذلك الأرواح التى فى عالم أعلى من عالمنا هذا لها أجسام من المادة فى شكل من أشكالها الرقيقة ومن هذه المادة الرقيقة ما يشيع فى أجسامنا فيمسك بعضها ببعض أن تتساقط وتتناثر .

والمادة بصورة من صورها الدقيقة الست ضرورية للطاقة أو القوة تعمل عملها بواسطتها ومن خلالها ، والعقل كذلك لكى يؤدى وظيفته لابد له من مادة كالأثير ينقل عمله خلالها ويظهر أثره فيها .

الله يظهر مشيئته بأن يخلق خلقه والعقل أداته ، والعقل ينقل المشيئة بواسطة الطاقة الى المادة ، انها أدوات أو وسائل للابداع كالورقة والمداد والقلم للخيال يستطيع بها أن يصور صورة يدركها خيال الناس كأقرب ما تكون من الصورة التى ارتسمت فيه .

نذكر ذلك كله ليعلم القارىء أن المادة لها صور وطبقات تدق أعلاها حتى تغيب لرقتها لا عن الأنظار ولكن حتى عن الأفهام . ولقد أدرك الباطنيون منذ القدم ذلك حتى قال أحدهم (ان المادة ثوب الله) وهذا التعريف قد يساعد القارىء على ادراك قداسة المادة وكرامتها ولو كانت هى السفلى فى الميزان .

يجب أن تتجنب السخافة التى تقول ان الله هو المادة .

ويجب كذلك أن نبتعد عن سخافة لا تقل عن الأولى تلك هى قول بعض الغلاة أن المادة شيطان دنىء أو القائلين بأنها لاشىء .

لم نقصد أن نذهب بك فى الحديث عن (اكازا) فى هـــذا الدرس الى تفاصيلها الدقيقة ولكن سنجتزىء بالقول مجملا أن كيان (اكازا) يبلغ من الدقة حدا لاسبيل معه الى ادراكها حتى لأدق الأفهام اللهم الا (أولى الألباب) تلك الأرواح التى تتخذ من هذه المادة لرقتها أجساما لها ، انها حجاب المادة الرقيق الأخير الذى يفصل تلك الأرواح عن القدرة الالهية ، انها ألطف كيان للمادة حتى لقد قال بعض اليوجيين انها (المادة البحت) .

فى بدء الأدوار العديدة الرئيسية فى خلق الحيـاة فى مختلف أجزاء الكون أو الأكوان المتعددة ان شئت تفضيل هذا التعبير ، تكون أكازا فى أنقى صورها هى مادة الكون الأولى ثم يستعمل الله العقل الأول المنبثق عنه وهو أول مظهر لقدرته ، يستعمله فى ايجاد (القوة) أو (الطاقة) أو (برانا) فى هذه المادة النقية وهذه تتصور بصور الأثير الست التى أشرنا اليها على أنها ألطف أشكال المادة ثم تنزل الى شكل الغازات والأبخرة الأكثر كثافة ثم الى السوائل ثم الى المواد الصلبة وهكذا يتم خلق الكون من ألطف الصور (أكازا) الى أكثف أنواع المادة الصلبة . حتى اذا قاربت الخليقة نهاية دورها وخاتمة تطورها انقلبت عملية التطـور من جديد فترتفع المادة من درجاتها الكثيفة الى الدرجات العليا فتبدأ المادة الكثيفة بعد ملايين السنين فى التحول الى ما هو ألطف من سائل الى غاز الى الأثير فى صوره الست الى (أكازا) المادة النقية ثانية فتظل هذه فى نقائها حتى يأتى أمر الله ويبدأ دور خلق جديد — من جديد .

ولابد أن يسبح بالطالب خياله فيتساءل ان كان من المحتمل الممكن فى احدى هذه الدورات العظمى من دورات الخلق أن (أكازا) هذه تتحول من المادة النقية ، غاية النقـاء الى الطاقة ، وتتحول الطاقة فتندمج فى العقل الذى يندمج هو الآخر فى الله .

أوليس القول بأن هذه العناصر تتجلى فى صورها قدرة الله يمكن أن يؤدى الى القول بأن هناك بدءا لمشيئة الخلق هذه وأن هناك نهاية لهذه المشيئة وان هذا البدء وهذه النهاية يترتب على تقريرهما أن عمليات الخلق تتكرر وتتكرر حتى يكل العقل عن الاستمرار فى التصور والادراك ؟

ونحن نجيب على هذا التساؤل المرتقب بأن عمليات الخلق تسمو وتعظم حتى يجل فهمها على أرفع العقول وأعظمها قدرة — على الملائكة[1] وأقطاب الملائكة .

لقد سلمنا المعلمون هذه الكلمات وهم حين سلموها لنا يقررون ويعترفون بأنهم لمحوا بوارق وخوارق تجاوزت حدود ادراكهم بدرجة جعلت عقولهم الجبارة تترنح ترنح الثمل فقد وعيه . فنحن والحالة هذه لنا الحق فى أن نسأل الطالب أن يقصر بحثه على دور خليقة واحد ربما تحدثنا عنه فى درس أو دروس فى المستقبل .

ولكن اذكروا هذا أيها الأخوة فى الطريق . اذكروا أن تأملنا فى عجائب أكوان الله ربما جعلنا نتخيل أن الله بعيد عن هذه الأرض بعيد عنا ولكن الواقع أنه بالرغم من عظم وجسامة تدبير الأكوان

---

(١) هنا يضيف المؤلف كلمة (الآلهة) لأن فلسفة اليوجا تسلم بوجود قوة بين المبدع والملائكة يسمونها (آلهة) ولكن هذه الكلمة ينفر منها المسلم والمسيحى على السواء للايمان بأن الله واحد وتليه الملائكة من خلفه . (المترجم)

فان الله جل جلاله معنا هنا دائما ، هنا حولنا هنا فينا . انه أقرب للأخ من أخيه أقرب من الأم الى رضيعها أقرب من الحبيب لحبيبه أقرب اليكم من قلوبكم من دمائكم من عقلكم .

ان الروح دائما معكم فتشجعوا ولا تخورن عزائمكم فان هذا حق حتى بالنسبة لأخس الناس وأتفه الناس وأقل الناس شأنا ، ان هذا حق حتى بالنسبة لأرفع الناس وأعلى الناس وأطهر الناس والفرق الوحيد كائن فى مدى شعور الانسان نفسه بهذا القرب .

فان كنتم لا تدركون هذه الحقائق العلمية وهـذه التعاليم أو لاتتذوقونها فلا يكونن ذلك سببا لمضض أو أسى . ليس من الضرورى أن تؤمنوا بها وأقل ضرورة أن تفهموها وأقل من ذلك أن تقبلوا على دراستها . كل ما هو ضرورى هو هذا : تعلموا أن تعرفوا أن الله فيكم وفى جميع الآخرين وانكم من الضرورة له بمكان ضرورته لكم لأنكم جزء من فكرته ومشيئته تعلموا أن الحياة فى كل شىء واحدة . وافتحوا قلوبكم لفيض الحب الالهى والحكمة العلوية وكونوا راغبين فى النمو . تقدموا وازدهروا .

ستجدون فى دراستكم أن قانونا واحدا نافذ فى أعظم الأشياء وأقلها فى هذا العالم — عالم الكون والفساد . انه قانون واحد يسير تطور العوالم كما يتحكم فى حياة الذرة — كما فى السماء كذلك على الأرض — وكلما أمعنتم فى الدراسة وضحت لكم هذه

الحقيقة . ادرسوا الأشياء القريبة منكم تجدوا مفتاح الأشياء البعيـدة .

ليس فى العالم كبير ولا صغير . آمنوا وتشـجعوا وامتلئوا أملا . وأكثر من هذا كله اتجهوا للحب والاحسان .

والآن لننتقل لدراسة المظهر الثانى :

القوة أو الطاقه (برانا)

القوة أو الطاقة من خواص الطبيعة ويمكن تعريفها بأنها قوة المقاومة أو التغلب على المقاومة أو ما يسبب الحركة فالقطعـة الحلزونية من الصلب اذا ضغطت كانت فيها قوة تعمل عملا يؤدى الى عودتها الى وضعها الأصلى . وكمية البارود فيها قوة لأنها اذا انفجرت عملت عملا والجسم المشحون بالكهرباء فيه قوة لأنه يعمل عملا عند تفريغ شحنة الكهرباء وكل الذرات التى تملأ الفضاء تموج بحركة دائمة ويعتبر العلم هذه الحركة دائمة أبدية بمعنى أنها لاتنتهى .

وكل تحول طبيعى وكل عملية كيماوية يصحبها تغيير فى الذرات التى تكون المادة وكلأنواع القوة كالكهرباء والمغناطيسية والحرارة وقوة الأعصاب وأنواع الحركة التى تصاحب تغيير مراكز الذرات بالنسبة لبعضها كل هذا فيه طاقة أو فيه مظهر من مظاهرها ولأولئك

الذين لا يشتغلون بالطبيعيات يمكن تعريف الطاقة بأنها الخاصية التى تسبب حركة المادة كلها أو جزيئاتها .

ونظرية العلم الحديثة بالنسبة للطاقة تشابه نظرية العلم بالنسبة للمادة فتقول ان الطاقة مهما تحولت من صورة الى صــورة فان كميتها لا تزيد ولا تنقص .

(الطاقة لاتفنى) كما أن المادة لاتفنى .

يظهر من هذا أن العلم يؤيد أنه ليس فى قدرة أية قوة مادية أن تخلق ذرة من المادة من العدم كما أنه لاتستطيع قدرة مادية أن تزيل من الوجود ذرة من الطاقة الموجودة فكلتاهما ثابتة الكمية .

قد يتغير شكل المادة بتعديل نسب الذرات المكونة لها كما أننا نستطيع أن نحول الطاقة من صورة الى صورة أخرى ولكن لا هذه ولا تلك قابلة للفناء . الطاقة هى التى تتحكم فىصورة المادة وتسبب التغيرات التى تطرأ عليها ويتحدث بعض العلماء عنها على انها صفة للمادة أو خاصية من خاصياتها بينما يعتبرها البعض الآخر شيئا قائما بذاته يعمل جنبا الى جنب مع المادة ويمكن توضيح كيفية تحول الطاقة من صورة من صورها الىصورة أخرى بالمثال التالى:

المصباح الكهربائى يظهر نورا وهذا النور ناشىء عن مرور تيار كهربائى فى خيط من الكربون يقاوم مرور الكهرباء وهذه المقاومة تسبب تحول طاقة الكهرباء الى حرارة ونور والطاقة الكهربائية

يولدها (دينامو) طاقته تولدها آلة بخارية وهذه الآلة البخارية تستمد قوتها من قوة البخار التى تتحول فى الآلة الى حركة ، وقوة البخار أو طاقته تتولد من تمدد الماء فى مرجل الآلة بفعل الحرارة ، والحرارة قوة مستمدة من الفحم يولدها احتراقه وقوة الفحم مستمدة من قوة الشمس التى أودعت فى الأشجار التى تكون الفحم منها والشمس قوتها مستمدة من قدرة الله .

أرأيت أن المسألة مسألة تحول القدرة من شكل من أشكال الطاقة الى شكل آخر ، أو من مظهر من مظاهرها الى مظهر آخر ؟ ويمكن متابعة عملية التحول هذه الى مدى أبعد اذا تابعنا القوة الكهربائية — بدل تحولها الى ضوء فى المصباح الكهربائى — فى مظهر آخر اذ تدير محركا معقدا يدير آلات تولد قوى تستعمل فى أغراض أخرى ولكن النظرية قائمة لانقض لها — تحول الطاقة من شكل الى شكل — ويحسن بالطالب أن يرجع الى بعض المؤلفات فى الفلسفة الطبيعية أو علم الطبيعة ليطلع على المزيد من العلم بالطاقة والقوة والحركة وتحولها .

ان تحول الطاقة لا ينقطع . ومن أمثلة ذلك — وهى ماثلة فى كل شىء — قذف الكرة . نمسك الكرة باليد وباشارة تنتقل من المخ الى عضلات معينة فى الذراع والكتف تنقبض العضلات وتنبسط فتتحرك اليد وتقذف الكرة وتضرب الكرة هدفا تلقيه

أرضا . واذا تصورنا قوالب آجر يستند أحدها الى الآخر فى صف يدور حول الأرض فاننا نستطيع أن نولد حركة حول الأرض اذا دفعنا أقربها الينا فيدفع الذى يليه وهذا يدفع الذى يليه وهكذا . وكمية البارود اذا انفجرت فى المدفع قذفت قوة الانفجار القنبلة فتتحرك حتى تتدخل قوة أخرى — قوة جذب الأرض —فتجذب القنبلة الى الأرض .

يقول العلم (الطبيعى والباطنى المكنون على السواء) ان المادة فى حركة دائبة أى أن الذرات فى حركة دائبة أو ذبذبة وهذه الذبذبة تولدها الطاقة . نحن لانستطيع ادراك هذه الذبذبة لأنها لا ترى ولا تحس ولكن المقرر أنها موجودة ولولاها لكانت الحياة فى شكلها الحاضر مستحيلة . وكل شكل من المادة ناشىء عن سرعة الذبذبات فيه ولا يتسع المقام هنا لبحث هذا الموضوع فان أراد الطالب التوسع فيه فما عليه الا أن يرجع للكتب الخاصة به وهى شائعة .

لقد أجملنا النظرية من الناحية العلمية وننتقل الآن الى تعاليم اليوجا فى (برانا) التى تطابق تماما نظريات العلم فى الطاقة . والواقع أن المجال ضيق جدا لا يسمح بالتعرض لأوجه الخلاف بين المشتغلين بالبحث فى أمهات المسائل .

تقول تعاليم اليوجا ان المادة أو جميع الأشكال التى تتشكل

بها (أكازا) فى حركة دائبة فلا سكون فى عالم المادة وما يبدو ساكنا من الأشياء انما هو أمر نسبى فقط . الحرارة والضوء . ما هما الا حركتان — مظهران للطاقة — .

الشموس والعوالم تتحرك مندفعة فى الفضاء وذراتها فى حركة دائمة وتحول مستمر ، والتفاعل الكيماوى بين المواد دائم لاينقطع والتركيب والتحليل والبناء والهدم ما هى الا حوادث الحياة ، حياة الخلايا وحياة الذرات لا استقرار فى الطبيعة . عمل دائم دائب ينتج شيئا بانضمام خلايا أو ذرات الى بعضها طبقا لقانون معين ولكن لا خلق لجديد اذ لا يتمكن أن يوجد شىء من لاشىء .

هذه القوة أو الطاقة التى تولد الحركة تعرف فى السنسكريتية بكلمة (برانا) برانا كالمادة (اكازا) موجودة فى كل مكان . يقول علم الطبيعة الحديث انهما أبديتان — قديمتان — دائمتان بذاتهما ولكن فلسفة اليوجا تقول انهما مظهران فقط للقدرة الالهية وانهما أبديتان بالقدرة الالهية لا بذاتهما . هما نسبيتان وليستا مطلقتين . ان لهما علة ، انهما قد ظهرتا منبثقتين عن القدرة الالهية وحين تشاء القدرة فانها تطويهما (طى السجل للكتب) فتختفيان وتبقى القدرة . ولولا ذلك ما كان وجودهما هذا الذى جعل العلم اذا تحدث عنهما يقول انهما أبديتان قديمتان . يعتبرهما العلم الحديث — المادة والطاقة — شيئين مختلفين كل منهما مستقل عن الآخر

ولكن فلسفة اليوجا تقول (ان المادة « أكازا » صورة غليظة للطاقة « برانا » وأنها منبثقة عنها) ولكن عند بحث الكون سنتحدث عنهما على أنهما شيئان مســتقلان لأنهما يعتبران كذلك فى كل الأحــوال .

(برانا) تتجلى فى كل صور الفعل والطاقة والحركة كما بينا فى الحديث عن الطاقة ولكن بدرجات وحالات مختلفة وان كان المبدأ واحدا دائما .

ومن الممكن أن تتحول حالة من حالاتها الى حالة أخرى كما ذكرنا . ويتفق العلم الحديث مع الفلسفة الشرقية فى هذا كما يتفقان على أن الطــاقة فى الكون لا تزيد ولا تنقص ولكن — وهنــا الخلاف — يقول اليوجيون أن الطاقة صورة غليظة للعقل وان القدرة الالهية تخرجها من العقل كما تستطيع أن تستردها بنفس الوسيلة وقد نقبل نظرية الغرب على أنها فرض معقول عملى عند البحث بصفة عامة .

يقول العلم الغربى أنه لا يمكن أن توجد المادة بدون الطاقة ولا الطاقة بدون المادة .

وتتفق فلسفة اليوجا معه على أن المادة بغير طاقة غير ممكن تصورها ولكنها تقرر أن هناك طاقة بلا مادة فقد كانت الطــاقة (برانا) موجودة قبل أن توجد المادة (اكازا) ولو أن الذى كان

موجودا فى ذلك الوقت من الطاقة هو جوهرها ، كان موجودا فى الحالة الكامنة بدون حركة كتلك التى تظهر نتيجة لتأثير الطاقة فى المادة ، كانت الطاقة بدون فعل بخلافها بعد أن وجدت المادة (من الطاقة) وظهر أثرها .

على أن الكون بوضعه الراهن كما نحسه لا وجود فيه للمادة بغير طاقة كما أنه لا وجود للطاقة الا فى المادة ونتيجة لها ، وعلى هذا يجوز للطالب أن يقبل نظرية الغرب على أنها فرض عملى بشرط ألا يغيب عن ذهنه التعليم الصحيح .

لقد تكلمنا عن (برانا) أو القوة الحيوية فى كتيبنا (علم التنفس) وفى بعض دروسنا الأربعة عشر السابقة وفى (هاتا يوجا) وسنتناول عند حديثنا عن (راجا يوجا) بعض المسائل الهامة فى (برانا) من نواح أخرى غير اعتبارها قوة حيوية كامكان سيطرة العقل والارادة عليها مثلا .

ولكن الطالب الآن يعلم أن (برانا) مكثفة من العقل وهى فى الواقع مظهر له أو امتداد لحالته الأصلية وان الذى عنده علم بالقوانين التى تتحكم فيه يستطيع بواسطته (العقل) وتحت اشراف الارادة أن يكون ذا سلطان على برانا هذه القوة الحيوية ، وهذا السلطان داخل فى نطاق الراجا يوجا وسنتحدث عنه كذلك عند الحديث عنها .

وحسبنا الآن أن نقول انه معلوم أن الموجب له الاشراف دائما على السالب والتحكم فيه ، وموقف العقل من البرانا كموقف الموجب من السالب بالارادة يمكن أن يتسلط العقل على القوة اذا عرف الطريق . وما يسميه اليوجيون (برانا ياما) هو علم أو فن التحكم فى القوة الحيوية بالعقل والارادة وهذا التحكم فى ذروته الذى يتمتع به الذين تقدموا بالروح فى الشرق والغرب هو الذى يتميز به الأقطاب والمعلمون ويجعل العالم يعرفهم ويعرف به فضلهم . ولكن قواعد هذا العلم الكبرى وأسراره يحتفظ بها قليلون فى حرص شديد خشية أن ينحدر الناس بها فى مزالق الخسة ويسيئوا استعمالها ان ذاعت فيهم أسرارها وشاع بينهم العلم بها ومع ذلك قسما لا يستهان به من هذه الأسرار قد أصبح الآن مسموحا باذاعته بين المستحقين له المستعدين لحمل أمانته وفى مقدرة كل طالب يجد فى نفسه روح المثابرة والانصراف الى النمو الروحى أن يطبق ما يتيسر له من العلم على العمل وأن يستخدم حسب مقدرته علم (برانا ياما) فى التحكم فى القوة الحيوية بعقله وارادته وهناك أمور أخرى بجانب هذا التحكم تدخل فى الراچا يوجا وان كان هذا من أهم أهدافها .

وقبل أن نترك موضوع الطاقة أو برانا نود أن نلفت نظر الطالب الى أن بعض المنقطعين للبحث العلمى فى الطاقة ومظاهرها

قد اتيحت لهم ومضات ولمحات من أسرار تعاليم اليوجا ونظريتها القائلة بأن الطاقة مظهر كثيف للعقل وأنها ترقى وتصفو حتى تمتزج به وأن هؤلاء الباحثين جابهتهم حالات حملتهم على الاقتناع بأن الطاقة فى بعض حالاتها تتصرف كما لو كانت عاقلة لا تخبط خبط عشواء فاذا اتجه اهتمام الباحثين الى هذه الناحية (وهو متجه قبل مضى وقت طويل) فانهم بعد أن يولوها حقها من البحث ستتكشف لهم حقيقتها وسيضعون لها نظريات توضح غامضها وتقربها للفهم ، وعندها يسلم العلم بصحة تعاليم اليوجا ويتقبلها .

وننتقل الآن الى ثالث المظاهر العظمى للنسبية .

العقـــــل

لنستمع أولا الى ما يقوله العلم الطبيعى عن العقل . لقد تقدم العلم الغربى المادى بالكثير من النظريات بعد أن اتفق علماؤه على نبذ نظريات الفلاسفة وعلماء ما وراء الطبيعة السابقين وحاولوا أن يحلوا محلها نظريات مبنية على المادة تفسر الظواهر العقلية فحاولوا أن يضعوا النظرية على أساس أن العقل ما هو الا أثر من آثار المادة أو نتيجة تفاعلات كيميائية فيها أو نتيجة ميكانيكية لها أو شىء ينبت منها أو اشعاع لها حتى لقد قال أحد العلماء أن المخ يفرز العقل كما تفرز المرارة الصفراء !!! :

لقد بدأ العلماء من النهاية فأخطأوا . لقد أرادوا أن تكون المادة أصل الوجود وانها الكائن الأول المطلق وأن الطاقة والعقل أثران لها بينما العكس يجعلهم أقرب للصواب وهو ما يقول به اليوجيون وان كان رواد العلم قد بدأوا يدركون خطأ العلماء هذا وبدأوا يميلون الى الأخذ بأن العقل والطاقة والمادة شيء واحد فى صور متعددة وسموا هذا الشيء (المادة substance) انهم يقتربون بسرعة من أحلام الباطنيين (الحالمين) الذين كانوا يزدرونهم .

ويقول وبستر فى تعريف العقل أنه (القوة المفكرة أو المدركة فى الانسان أى الفهم الذى هو القوة التى تتصور أو تحكم أو تعلل) وهذا التعريف يتغاضى عن الحقيقة الثابتة أعنى وجود العقل فى الحيوانات الدنيا وفى الحياة النباتية وحتى فى المعادن . وان كان الذين يقصرون العقل على الانسان يسمون عقل الحيوان (الغريزة) ويطلقون عليها فى المعادن الجاذبية الكيميائية .

وبذلك يسلم الذين يجعلون العقل وقفا على الانسان بوجود قدرة مشابهة للعقل فى الحيوانات الدنيا والنبات .

ولقد اعتبر بعض الباحثين أخيرا تفاعل ذرات المعادن (بما فيها الزيوت المعدنية) . منقادا وراء نوع من العقل وهذا هو رأى اليوجيين الذين يقولون أن العقل والطاقة والمادة لا تنفصل عن بعضها فى أصغر ذرة وأكبر مجموعة من الذرات ويقولون أن كل

صور الوعى من مجرد الاحساس الى أعلى درجات الوعى الروحى ما هى الا مظاهر للعقل .

ولا يتسع المقام فى هذا الدرس للحديث عن علم النفس فان الحديث فيه يكون غريبا عن أغراض الدرس ولكن لكى ننقل للطالب فكرتنا عن معنى العقل يجب أن نقول اننا نعنى بقولنا (مظاهر العقل) كل عمل فيه وعى ونقصد بالوعى كل دليل أو مظهر للملاحظة أو الانتباه من مجرد الاحساس الى الوعى فى أكمل صوره وسيرى الطالب لماذا وضعنا هذا التعريف .

الاحساس وهو أول درجات الوعى يعرفه وبستر بقوله : أثر ينطبع فى العقل عن طريق أعضاء الحواس : شعور توقظه عوامل خارجية أو تغير طارىء على حالة الجسم الداخلية .

والاحساس هو الوعى المعروف بالشعور وهو يختلف عن الادراك لأن الاحساس عن طريق الحواس والادراك عن طريق العقل ، فمثلا اذا وقفت ذبابة على يد انسان أحس بوجودها على يده ثم أدرك وجودها بعقله . واذا شم الانسان بأنفه عبير وردة تنبه العقل الى وجود الرائحة فيميز أنها رائحة الورد ، لعل الفرق واضح . على أى حال هذا ليس درسا فى علم النفس وانما كل ما نريده تحديد معنى الاحساس عندما نتكلم عنه على أنه دليل على وجود العقل .

لا يمكن وجود احساس بدون وجود العقل بصورة من صوره يتميز أو يدرك بها ، فكما أنه لا يمكن أن يوجد احساس بدون شيء يثيره كذلك لا يمكن وجود الاحساس ان لم يوجد ما يتلقاه وهذا الذى يتلقاه هو العقل بشكل ما وعلى درجة ما . هذه هى النقطة التى نريد أن تذكرها دائما .

والوعى أو الشعور نوع من الاحساس على مستوى رفيع . وأبسط أنواع الاحساس فى المخلوقات البسيطة التركيب يختلف عن أرفع الوعى فى الانسان أو الكائنات الأرقى من الانسان فى الدرجة لا فى النوع .

وما خلا المطلق ، كل كائن ادراكه انما هو من عمل العقل على تفاوت فى الدرجة . فالعقل عنصر شامل للكون كالمادة والطاقة وهو مثلهما فى اختلاف المظهر والتفاوت فى الدرجة .

ولنعد الى آراء العلم الحديث متخذين أرنست هايكل باعتباره رائد علماء الطبيعة فى هذا العصر (١٩٠٤) فكتبه تعتبر آخر ما وصل اليه هـذا العلم وتمثل أصدق وأحدث نظريات الفكر المـادى .

لا يرى هايكل شيئا فوق المادة ولا وراءها ويؤمن بأن الكون وجد بذاته ولم تتقدمه علة ولكن كتبه تدل على أن العلم الحديث قد انشق على رأى نظرية المادية القديمة القائلة بالمادة (غـير

الحية) أو المادة (الخام) وأنه وصل الى أسمى نظرة مادية عرفها العقل البشرى ، والواقع أن المدرسة التى أسسها هايكل والتى تسير على الخطوط التى رسمها لابد وأن تصل سريعا الى حيث لا يفصلها عن رأى الروحانيين التقدميين شيء حتى انى لأذكر الآن كيف ان الذين شقوا النفق الهائل فى جبال الألب الذين شرعوا فى العمل من جانبى الجبل التقوا فى الوسط تماما وتلاقى نصفا النفق وتطابق بدقة متناهية ، كذلك هذان الفريقان الباحثان عن الحقيقة — فريق اليوجيين وفريق العلماء الماديين الطبيعيين — سيلتقيان عند نقطة يجدان فيها المطلق وان سماه كل منهما بتسمية تختلف عن تسمية الآخر .

وضع هايكل فى كتابه العظيم (عجائب الحياة The wonders of life أساس نظرية لوحدة الوجود قوامها (المادة المثلثة) يفصح عنها فى الافتراضات الثلاثة التالية :

١ — لا وجود للمادة مجردة عن الاحساس وعن الطاقة .

٢ — لا وجود للطاقة مجردة عن الاحساس والمادة .

٣ — لا وجود للاحساس مجردا عن المادة والطاقة .

ويسترسل فيقول عن هذه الحقائق :

« هذه الصفات الثلاث الجوهرية الأساسية توجد متحدة لا انفصام لها تتخلل الكون جميعا فى كل ذرة وكل جزىء » .

هذا أعظم تسليم يتقدم به أحد قادة الفكر المادى الحديث اذ لم يكن رائدهم وقائدهم ، ولا شك أن الطلاب الذين يعرفون رأى الماديين القدامى ومناقضته لتعاليم اليوجيين يقدرون قيمة هذا الرأى الجديد الذى يقرره هايكل عميد الماديين اليوم ويضع أسسه .

يقول هايكل فى أوجه المادة الثلاثة « ان المادة تملأ المكان اللانهائى وانها أبدية لا تتغير وان القدرة أو الطاقة مثلها لا نهائية أبدية الحركة ثابتة القيمة طبقا لقانون (الطاقة لا تفنى) وان الاحساس المتحد بالمادة والطاقة على أنه الصفة الثالثة للمادة المثلثة ينطبق عليه القانون نفسه فهو لا نهائى أبدى غير متغير ويرى هايكل ان ما يطرأ على الاحساس من تغيرات مثل ما يطرأ من تغيرات على المادة والطاقة ما هو الا تغير له من حال الى حال آخر من أحواله فيتخذ شكلا بدل شكل .

وواضح أن ما يسميه هايكل الاحساس هو الذى نسميه نحن العقل (فهو يقول « ان الحياة العقلية فى البشر تنبنى على احساسات كل فرد ») ويستدل على ذلك بقول ناجيلى « ان عقل الانسان هو غاية تطور العمليات الروحية التى تبعث الحيــاة فى الطبيعة قاطبة » .

اذكر أن هذا القول صادر عن مركز قيادة الفكر المادى التقدمى

وتأمل الفرق بين فلسفة اليوجيين ومذهب الواحدى العلمى الذى يقول به هايكل وزملاؤه من علماء المادية الحديثة .

تقول الفلسفة اليوجية بوجود حقيقة واحدة مطلقة وان هذه الحقيقة تتجلى فى ثلاثة مظاهر المادة (اكازا) والطـاقة أو القوة (برانا) والعقل أو القوة المفكرة (شيتا) والأخير جوهر لطيف لا قوام له كالمادة .

هذه المظاهر الثلاثة ما هى الا ثلاث صور لقوة واحدة تتطور من العقل الجوهر اللطيف الى صورة تليه لطافة وتقل عنه وهى الطاقة وهذه تتطور الى شكل أقل منها هى الأخرى لطافة وهى أكثف الثلاثة كيانا أو قواما وهى المادة وتتماوج الثلاثة فى بعضها وتتحول الواحدة الى الأخرى كما أوضحنا فى هذا الدرس .

وهذه الخواص الثلاث أو هـذه الصفات الثلاث تنبثق عن الواحد (الحكيم القدير المبدع) ثم تعود اليه يستعيدها بقدرته فتعود فانها منه ولا وجود لها بنفسها فلا وجود لها الا به .

المطلق هو الكائن الوحيد الحق القائم بنفسه لا يستمد وجوده من شىء . لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحول وكل شىء منه وكل شىء زائل الا هو .

ويقول أصحاب المذهب الواحدى العلمى ان كل ما هو كائن شىء طبيعى يسمونه المادة ، وهو ذو ثلاث صفات أو خواص ، هى :

المادة والطاقة والاحساس ، فالمادة هى ما يشغل المكان ، والطاقة هى القوة المحركة ، والاحساس هو الشعور وبالتالى التفكير . ويقولون ان هذه المادة المثلثة كائنة بذاتها لا تتغير كميتها وان تغير المظهر الذى تبدو به .

فلسفة اليوجيين تقول بوجود الروح تلك القوة الالهية المستقلة عن مظاهر الكون الثلاثة (المادة والطاقة والعقل) وليس لدى المذهب الواحدى العلمى ما يقوله عن الروح فانه لا يعرفها ولا يعترف بها . فهو لا يفصل بين مجموع المادة المكون من ثلاثة عناصر وشىء فوق هذا المجموع ينبثق عنه كل شىء فليس لدى هذا المذهب شىء يقابل الروح فهو يرى المادة شيئا طبيعيا وينكر على الأشياء أن يكون فيها عنصر روحى .

نظن أننا قد أحسنا عرض رأى المدرسة المادية العلمية والفكر الحديث أو هذا ما حاولناه على الأقل ، ان هذا المذهب يقول ان العالم قديم قائم بذاته لا مبدع له ولا خالق له وان وجوده محض صدفة . أى أن العالم هو اله نفسه ، وهذا (المذهب) بطبيعة الحال يجحد وجود حياة أخرى بعد الموت أو خلود النفس لأنه يرى أن النفس ما هى الا شىء ناشىء عن الاحساس ، وعلى الطالب أن يتبين أوجه الاتفاق والخلاف . فالمذهبان — اليوجى والمادى — يقولان بالواحدية ولكن شتان بين فهم كل منهما للواحد ، ونحن

نرجـــو أن تشرق روح الطالب على عقله بنور يضىء له الطريق الصحيح فى هذا المضطرب من الطرق التى وان اختلفت تتفق على شىء واحد هو فكرة الواحدية .

وان الذين أشرق عليهم نور الروح ليستطيعون أن يتبينوا فى يسر وجلاء النقطة التى تنحرف عندها الفلسفة الواحدية عن الطريق السوى الى ذلك المسلك الجانبى غير المعبد الذى لابد وأن يرجعوا عنه يوما الى الصراط المستقيم .

سنحاول فى الدرس القادم أن نبسط طبيعة العقل وصـــفاته وكذلك التعاليم المتصلة بالروح (أتمان) وصلة الانسان بالمطلق .

وليكن لكم السلام .

الدرس الثانى عشر

العقـــل والروح

فى هذا الدرس سنتناول الموضوع من حيث انتهينا فى ختام الدرس السابق عند الحديث عن طبيعة العقل (شيتا) وصفاته ، أول مظهر من المظاهر وأعظمها شأنا .

ورأينا من الخير عند الحديث عن هذا المظهر الأعظم أن نذكر الكلمة التى يستعملها اليوجيون للدلالة عليه — شيتا — بالسنسكريتية ومعناها (جوهر العقل ومادته) لا العقل فان كلمة العقل لا تدل على ما يعنيه اليوجيون بكلمة شيتا على التحديد . فبينما (العقل) يقصد به الادراك ، يقصد اليوجيون بكلمة شيتا (المادة التى تدرك) ولا يقصد بالمادة الأجسام التى تتشكل من المادة انما تقصد المادة التى وراء تلك الأشياء والتى تستمد منها الأشياء وجودها ، ولذلك فان استعمال كلمة شيتا حين يراد التعبير عن المادة التى تدرك يؤدى الغرض الذى يقصده اليوجيون عند الحديث عن العقل . انهم لا يريدون الفهم أو الادراك أى ما يقوم بالفهم والادراك ، انما يريدون ما عبر عنه الفلاسفة بالعقل الكلى الذى ليس هو عين المطلق .

يقول اليوجيون ان شيتا (جوهر العقل) موجودة فى كل مكان فى الكون ، وان كميتها ثابتة لا تزيد ولا تنقص ولا تتغير وان كانت كالمادة والطاقة تظهر فى مظاهر متعددة نتيجة وجود مركبات جديدة بنسب مختلفة منه .

ويمكن اعتبار جوهر العقل طورا من أطوار الطاقة أو المادة كما أن المادة يمكن اعتبارها طورا من أطوار جوهر العقل أشد منها كثافة وأغلظ قواما فقد سبق القول ان جوهر العقل هو أول مظاهر المطلق ومنه تكونت الطاقة ومن الطاقة تكونت المادة . وهكذا ترى أن الجميع أجزاء شيء واحد مختلفة الدرجات . انها المظاهر الثلاثة المختلفة للمطلق أو الفيوضات الثلاثة الصادرة عن المطلق .

جوهر العقل يتشابه والطاقة وهو بالنسبة الى الطاقة كالطاقة بالنسبة الى المادة ولنحاول أن نوضح هذا القول نوعا ما .

فى أطوار المادة العليا تكاد صفة المادة أن تكون من مميزات الطاقة . خذ مثلا المغناطيسية أو الكهرباء تجد أن المادة والطاقة تتحدان اتحادا يثير الاهتمام حتى تبدو الطاقة وكأنها شيء يمكن أن يقطع بسكين ، كذلك نجد الكهرباء فى صورها اللطيفة العليا ذات طاقة ومقدرة توحى للانسان أنها تكاد أن تعقل لشدة ما تقترب من الحد الفاصل بين الطاقة والعقل . ان علم الطبيعة سيكتشف فى أعوام قلائل أنواعا أخرى من الطاقة تقدم أمثلة جديدة من

أمثلة التفكير أو العمل المتعقل أكثر من أى شيء معروف ، وستسبب الاختراعات التى ستأتى فى أعقـاب اكتشاف الراديوم تطورا فى محيط الطبيعة يهز الانسان هزا فان العلم يكاد يقف على الحـد الفاصل بين المادة والعقل — سينظر اليهما فى القريب العاجل على أنهما شيء واحد والطاقة كمركز متوسط بينهما .

اننا لا نستطيع أن نضع بين أيدى الطلاب قطعة من جوهـر العقل لعرضها على حواسهم للتدليل على وجوده ومع أن المتقدمين فى دراسة علم النفس والراسخين فى التصوف رأوا رأى العين مظاهر كثيرة له ، الا أن العلم لم يقتنع بعد ولم يأخذ بأقوالهم لاثبـات وجوده ، ولكن انكار العلم لا ينفى ما يحس به كل انسان لجوهر العقل من نشاط يطلق عليه اسم الفكر . يجب أن نسلم بوجود جوهر العقل كما نسلم بوجود الطاقة والمادة على الأساس النظرى لأن هذه المظاهر الثلاثة لا يمكن أن تعرف الا عن طريق آثارها الظاهرية . فالأثير وهو أعلى أشكال المادة لاتدركه حواس الانسان الا اذا تألفت من ذراته الأجسام الصلبة أو السائلة أو الغازية ، كذلك الطاقة المجردة لا سبيل الى اظهارها لعقل الانسان الا اذا ظهرت آثارها عن طريق المادة فى صورة الحركة أو القوة ، وهكذا بجوهر العقل لا سبيل الى معرفته الا على أنه أفكار أو قوة الفكر .

المادة هى الشيء الذى تتشح به النفس لتظهر به ، والطاقة هى

الشيء الذى تستعمله النفس لتعمل بواسطته ، وجوهر العقل هو أداة النفس التى تفكر بها .

جوهر العقل هو الشيء الذى تتولد منه الطاقة التى تتسبب فى حركة المادة ، وهذا قريب من نظرية الماديين التى يطلقون عليها (الحلقة المفرغة) انه قريب الشبه بها قربا يكاد يكون انطباقا بين نظريتهم وفلسفة اليوجيين ، الا أن هؤلاء ينقلون النظرية الى محيط العقل بدل قصرها على محيط المادة .

ونظرية اليوجيين هى :

« ان ذرة المادة (دوامة) صغيرة من الأثير فى الأثير تتكون من فعل الطاقة فى الأثير ، ولما كان الأثير مجردا من الاحتكاك فان حلقة الدوامة لا تفقد شيئا من قوتها وبذلك تصبح حركتها (دائمة) وان كان دواما غير أبدى بالنسبة لدوام المطلق — وهى تتمتع بكل ما ينسب للمادة من خاصيات : الطول والعرض والارتفاع والكمية والمرونة والجاذبية والحيّز والتمدد الخ كما أن لها حركتها الداخلية (ذبذبة) .

وهذه (الدوامات أو الحلقات) تختلف فى أحجامها وسرعة ذبذبتها وهذه الحقيقة هى السبب فى وجود الأنواع المختلفة من الذرات التى حيرت العلم وهى تلقى ضوءا على العناصر السبعين من عناصر المادة التى فرضت نفسها على علماء الطبيعة . وانه لمن

المستطاع أن نرى بوضوح انه اذا أمكن تغيير سرعة ذبذبات هذه الدوامات تحقق حلم الكيميائيين القدامى بتحويل مادة الى مادة وأمكن تحويل الرصاص الى ذهب ، والويل للرأسماليين ان عثر أحد الحالمين صدفة على هذا السر الذى يعرفه الأقطاب والمعلمون ولكنهم لا يأبهون له ولا يستعملونه اذ لا حاجة لهم بالذهب فهو والرصاص فى نظرهم سيان اللهم الا اذا تقرر قلب الأوضاع الاقتصادية السائدة للعودة بالانسان الى حياة الاكتفاء بالضروريات .

لقد اصطدم أصحاب نظرية (الحلقة المفرغة) من رجال العلم أمثال هلمهولتز Helmholtz بما اصطدم به أصحاب نظرية المادة بمواجهة مشكلة السبب الأول فى بدء الحركة فى هذه الحلقات لأنهم لم يسلموا بوجود قوة عاقلة فى الأثير تدفعه للحركة التى تكمن فيه القدرة عليها حين يريد ، وهنا يأتى اليوجيون لنجدة زملائهم علماء الغرب ساعة حاجتهم لهذه النجدة وان كان هناك شك فى أن يقبل الغربى مساعدة أخيه الشرقى ويمد يده لليد التى امتدت لنجدته .

ان فلسفة اليوجا تقول بأن مادة العقل ، بالطبع ، تعرف نفسها وتظهر معرفتها لنفسها (بالفكر) وهذا الفكر حركة فى جوهر العقل والحركة كما نعلم مظهر من مظاهر العقل منبثقة عنه ، وهذه الحركة

تنتقل الى الأثير فينشأ عن ذلك حركة (الحلقة المفرغة) وهكذا تنشأ الذرة أصل المادة وفيها العقل والطاقة والحركة — عناصر الوجود الثلاثة التى ذكرناها فى الدرس السابق (المادة والطاقة والاحساس) وهى نظرية هايكل وأضرابه من علماء الطبيعة .

ويفصل بعض علماء اليوجا وصف العملية كما يلى ، ان الأثير بعد أن ينبثق عن جوهر العقل بفعل الطاقة ، تكون فيه صفات أبيه وجده (جوهر العقل والطاقة أو شيتا وبرانا) بالوراثة التى يملك حق استعمالها ولذلك فهو يفكر فى الحركة والحركة توجد (حلقة الذرة) لتتمكن من الظهور وهذه الفلسفة تجعل المادة حائزة للعقل والقدرة على الحركة وهذا صحيح لحد ما اذ كل من هذه المظاهر الثلاثة تختلف بعض الاختلاف وكلها صادرة عن مصدر أصلى واحد هو المطلق .

وهكذا ترى أن اليوجيين يرون أن المادة كما ندركها بحواسنا نتيجة الفكر وان الفكر هو (العقل فى حالة العمل) وأن العمل وليد الطاقة وأن الطاقة ثمرة جوهر العقل واذن فالمادة فى الحقيقة هى العقل والعقل هو كل شىء ، ليس فى الخيال أو التصوير الصوفى ولكن فى الحقيقة . ان هذه النظرية تحمل الحقيقة التالية — كل شىء فى الدنيا أصله الفكر وهذا يتفق مع أصحاب نظرية (ان كل شىء عقل) وان المادة لا شىء ويبنون على هذا الأساس

مذهبا قائما بذاته وهؤلاء غالبا ما ينسون الحقيقة العظمى وهى ان العقل والمادة كليهما مخلوقان وانهما مظهران للمطلق الذى لا وجود لغيره الا به ولا حق الا هو فاحذروا أن تؤلهوا العقل أو المادة فكلاهما اله باطل والمطلق وحده هو الحق .

لقد أشرنا الى علم الطبيعة الغربى أثناء بحثنا تعاليم اليوجا فيما يتعلق بالمظاهر الثلاثة الكبرى لكى نبين أوجه الخلاف وأوجه الشبه وحتى نسهل على العقل الغربى قبول رأى الشرق عندما يراه مقترنا بما تعوده من رأى ووجهة نظر ، وعلاوة على ذلك لكى يتضح للقارىء أن العقل البشرى فى رحلته نحو النضج يحاول دائما أن يجعل الحق صراحا واضحا أبلج . وكذلك نريد أن نقرر هنا أن أقطاب اليوجيين القدامى والمعاصرين على السواء ولو أنهم يسيرون فى أبحاثهم بالعقل كالغربيين الا أنهم يحققون ما يتوصلون اليه من نتائج بعرضها على مراكز العقل التى تفتح وعيها — العقل الروحى . وفى حالات كثيرة عندما يصل الباحث الى درجة عليا من النمو الروحى يجد نفسه عارفا بغير جهد عقلى يبذله فى سبيل هذه المعرفة . هذه المعرفة لا يستطيع أن يدرك كنهها من يعيشون فى محيط القوة العاقلة العادية ، ولكن الذين أشرقت أنوار الروح عليهم يعلمون أنها نوع من الادراك أسمى من ادراك العقل انها تفوقه ولكن لا تتعارض معه ، وكثير مما بدأ العقل الغربى يدركه الآن شىء مقرر لدى أصحاب الوعى الروحى منذ أمد بعيد .

لقد يحدث كثيرا أن تتكشف للانسان حقيقة من الحقائق عن هـذا الطريق ، ولكنه لا يستطيع التعبير عما يتكشف له تعبيرا واضحا منطقيا يرضاه العقل ، بل انه ليعجز عن تفسيرها حتى لنفسه انه واثق من وجود شيء ولكنه لا يستطيع أن يأتى بدليل يبرر ثقته هذه ، ولا يستطيع أن يفسر وجود هذا الشيء ولا صلته بغيره .

يقول اليوجيون أن علم ما فى السموات والأرض أودع مادة العقل فى طبقة من طبقاتها ولما كانت كل ذرات مادة العقل متجانسة متشابهة تجانس قطرة الماء مع الماء كله ، فان عقل الانسان أو قوته العاقلة فيها أسرار الكون كلها ، والمسألة مسألة كشف تلك الأسرار .

وكلما اتسعت دائرة القوة العاقلة اتسع أفق معرفتها وألمت بشيء مما فى العقل الباطن من معرفة ، ان كل شيء موجـود فى العقل ، ولكن المسألة مسألة الوصول بالقوة العاقلة الى الأسرار التى لم يسبق أن وصلت اليها ، وفى آخر الأمر سينكشف كل شيء وسيعرف الانسان كل شيء . ان وعينا الحالى (الأنا) هو الذى يتقدم الى درجة وعى أكبر وأوسع أفقا حتى يصل الى آخر مدى العقل وأرفع طبقاته . ولكن هذا المدى يقصر عن ادراك ما وراء دائرته ، انه لا يحيط بالمطلق علما ولا يدرك علم المطلق فليس يعلم المطلق الا المطلق ان محيط معرفة العقل يبدأ من حيث بدأ العقل من عند المطلق لا من وراء ذلك .

ان العقل يدرك نفسه وما يليه تحته من طاقة ومادة أما ما يحيط به ويسمو عليه فان معرفته وادراكه يقفان عنده ، عند المطلق . ولكن الروح (الاتمان) ذلك المبدأ الالهى ، ذلك النور الذى يشرق على العقل ، تلك البضعة من روح الله ، أما الروح — النفس الحقيقية أو النفس العليا ، فانها تعلم ، أنها تعرف المطلق وما عند المطلق ، وعندما تنحسر عن الانسان الحجب جميعها حتى العقل الروحى نفسه ، وحين لا يبقى من الانسان الا روحه ، عندها يدرك الانسان بقوتها كل شىء ، وعندها لا يكون الانسان انسانا انه لم يعد بعد انسانا اذ يصبح روحا عادت الى بارئها .

لعل المهتمين بالعلوم منكم يطيب لهم أن يعلموا أن المتعمقين فى الناحية العلمية من الفلسفة من اليوجيين يقررون أنه لا المادة (أكازا) فى أرق صورها وهو الأثير ولا القدرة أو الطاقة (برانا) ولا العقل نفسه ، ليس شىء من هذه كلها ذريا ، ليس واحد منها ذريا ، وما يقال له الذرة منها ما هو الا (حلقة مفرغة) تبدو ذرة ، ومن مجموع الذرات يتكون جزىء تدركه الحواس ، فمثلا جوهر العقل يتكون من الحلقة المفرغة فيه بالاشتراك مع الحركة ، ذرة يقال لها الفكر ، والطاقة تتكون من حلقاتها المفرغة ذرات يقال لها الحركة ، أما الطاقة نفسها فهى سلبية وكذلك المادة (الأثير) اذا تأثرت بارادة العقل تكونت فيها ذرات تقع تحت الحس منها الصلب والسائل والغازى .

وحتى لا تتهم بأننا نستغل ما وصـل اليه الغرب من معرفة فننحلها تعاليم اليوجا ، نرجو القـارىء أن يعـود الى الكلمة السنسكريتية (ڤريتا) التىوردتفى الفيدا (كتب اليوجيينالمقدسة القديمة) ان معناها موجات العقل أو ذبذباته التى يتكون منها الفكر ، والمعنى الحرفى لكلمة ڤريتا (الدوامة) وكما أن الكلمة المستعملة فى الغرب للدلالة على الدوامة هى التى استعملت للتعبير عن الحركة التى تكوّن المادة (الذبذبات) . من ذلك يتضح أن علم اليوجيين انما هو الذى يتردد فى نظريات الغرب الآن .

ليس هذا مكان الاسترسال فى عمل العقل وقوته وما يترتب عـلى قوة الفكر من آثار فان هـذه القوى والقواعد المنظمة لاستخدامها تدخل فى دائرة الراجا يوجا التى سنتناولها بالشرح فى دروسنا القادمة .

وهنا نود أن ننبه القارىء حتى لا يخلط بين المـخ ومادته بجوهر العقل ، فمادة المخ ما هى الا الأجهزة المادية التى يستعملها جوهر العقل ليظهر عن طريقها ، ويجمل بالطالب أن يعتبر جوهر العقل أقرب لأن يكون قوة من أن يكون جسما ماديا . قد يحمل استعمال كلمة (جوهر) فى الحديث عن جوهر العقل على هـذا التصـور المادى ولكن هـذا يخالف الحقيقة والواقع ، ولكننا لا نستطيع أن نقول بدل جوهر العقل قوة العقل خشية أن يفهم

آننا نقصد حركة العقل عندما يعمل ويتكون من عمله الفكر ، جوهر العقل نوع رفيع من الطاقة وهو كالطاقة نفسها يظل سلبيا ساكنا بلا حركة . انه لا يتحرك الا اذا تكونت الأفكار فيه فيتحد عندئذ بالحركة . اذكروا هذه النقاط .

ونختتم هذا البحث فى جوهر العقل بأن نقول انه فى كل مكان وانه كالطاقة والمادة — وليدتيه أو بعبارة أدق احداهما وليدته والثانيــة حفيدته — لا يتغــير ولا يزيد ولا ينقص ولا ينقسم ولا يفصل بين أجزائه فاصل وان بدا انه كذلك ، فان عقل كل فرد يبدو كأنه قدر معين من جوهر العقل منفصل عن سائر جوهر العقل الا أن الحقيقة ان كل العقول متصلة ببعضها البعض وانها جميعا متصلة بجوهر العقل ، بالعقل العام التى هى جزء منه [1] ، ان جوهر العقل لا ينفصل عن بعضه بوجوده مجزأ فى الأفراد أكثر مما ينفصل الأثير عن بعضه فى الأجسام المنفصلة المتباعدة أو كالطاقة اذا ظهرت مقسمة فى حركات الأفعال المتباينة .

---

(١) الدكتور كارل يونج ثالث الثــلاثة — فرويد وأدلر ويونج الذين اشتركوا فى ارساء قواعد علم النفس الحديث — اوضح هــذا الاتصال فى أحدث كتبه (علم النفس والكيمياء Alchemy) حيث قرر أن العقل اللاواعى (البــاطن) فى الانسان متصل ببعض كالمياه الجوفية تتصل ببعضها وأن بدا كل بئر ارتوازى مستقلا عن الآخر) . المترجم

كذلك ننبه الى أنه لا يوجد شيء ميت فى الكون ، لأن الكون حى جميعه ، وكل ذرة فى الكون فيها مادة وطاقة وعقل (جوهر عقل). الكون شيء هائل حى متحرك عاقل من الذرة الى الشمس وان اختلف الفكر بين الاحساس الغامض (حتى التجاذب والتنافر الكيميائى كما سبق القول نوع من الاحساس) فى أبسط أشكاله ، والمجهود الفكرى فى الانسان وفى الكائنات الأرفع من الانسان .

أتمان أوالروح

ننتقل الآن الى بحث (أتمان) أو النفس الحقيقية أو الروح ومظهرها فى الانسان ، وفى بحثنا سوف لا نستعمل الكلمة السنسكريتية (أتمان) وانما نستعمل بدلها كلمة الروح لنعبر عنها وما ذكرنا (أتمان) الا لكى نوضح ما يقصد بها حتى تدركوا معناها فيما تجدون من كتابات عن الموضوع .

ولكى نتمكن من فهم فكرة الروح يجب أن نعود للتفكير فى موضوع المطلق . فى درس سبق حاولنا أن نثبت ما وصلت القوة العاقلة اليه فى معرفة المطلق وكيف انها اضطرت للتسليم والايمان ، وان تسليمها أيده ما تكشف على مدى الأجيال للنفوس التى نضجت وانحسرت عنها الحجب فكان ما رأته مطابقا للتسليم الذى انتهى اليه العقل فى بحثه . ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن ما وصل اليه العقل مهما سما واتسع أفقه لا يتجاوز نطاق نفسه

ومحيط قدرته وحتى العقل الكلى وفيه كل ما انبثق عن المطلق من العقل لا يحيط الا بما فى داخل محيطه — بما فيه لا يتعداه الى ما هو خارج عنه لأنه مقيد محدود قيده المطلق وحدد مقدرته فلا يستطيع أن يحيط بمالا يدخل فى نطاق قدرته ولذلك لا يمكنه أن يعرف شيئا عن طبيعة المطلق أكثر مما أودع المطلق فيه من القدرة على معرفته .

العقل الكلى ليس هو المطلق .

اذكر ذلك دائما ، انما هو منبثق عنه . ولذلك فالعقل يهدينا الى مبلغ ما أودع فيه من العلم عن المطلق ، ونحن نقول اننا بناء على ما شهد العقل به يجب أن نصدق على أساس تلك الشهادة أن المطلق كائن وأن للمطلق صفات تفرد بها .

ولكن من سقطت عنه الحجب يرى أن هذا الايمان وهذه الشهادة حق مخلوق وليس الذى تؤمن به أو نشهد به هو الحق المطلق غير المخلوق لأن الحق غير المخلوق اختص المطلق به نفسه ولا يمكن أن يحيط به العقل المخلوق لأنه غير محدود والعقل محدود ولا يمكن أن يحيط المحدود بغير المحدود .

ان العقل — حتى العقل الكلى — ليس عالما بنفسه وليس علمه من صنع قدرته ولا يحيط بكل شىء علما . انه يعلم بكل ما فى نفسه وما فى الكون لأنه محيط بالكون ، ويستطيع أن ينفذ

فيه حتى الى جوهر الذرة والى ما هو فى داخل الذرة لأنه يحيط بنفسه وبالعالم كله لأنه يتخلل العالم. ولكنه لا يستطيع أن يتطاول فيخترق حدوده التى تنتهى عند الحجاب الذى يفصل بينه وبين المطلق وهذا الحجاب نفسه نسبى مخلوق ، انه موجود بالنسبة للعقل ولكن لا وجود له بالنسبة للمطلق.

العقل الكلى يعرف قطعا ويقينا ان المطلق موجود لأنه يعلم حدود نفسه ويعلم أن المطلق وراء تلك الحدود وانه به محيط ، ولذلك فانه يحس وجود نفسه حتى الحدود التى ينتهى عندها لأنه محدود غير مطلق ويرى وجود المطلق عند نهاية نفسه وهو يعلم ما فى نفسه ولا يعلم ما فى نفس المطلق لأن علمه ينتهى عند نهاية دائرة قدرته على العلم فيعلم ما بداخل الدائرة ولا يعلم ما يخرج عنها ، فيعلم أن مالا يعلمه لأنه خارج عن دائرة علمه هو المطلق الذى لا يعلم عنه الا وجوده الذى ينتهى وجود نفسه عنده ، واذن فهناك مالا يدركه العقل ، لا على أنه لم يصل اليه بعد وانه مع الوقت سيصل اليه فيدركه ، ولكن على أنه فوق علمه وخارج محيط قدرته على العلم رغم احساسه بوجوده. وعلم مالا يعلمه العقل عند الذى لا يعلمه العقل وان كان يراه — عند المطلق. فالمطلق يعلم ما فى العقل كله لأنه محيط بالعقل وبما فى العقل من كائنات وهو يعلم كل شىء ولا يغيب عن علمه شىء فعلم المطلق كامل

محيط بكل شيء وما عدا علم المطلق علم محدود مقيد مهما اتسع أفقه فانه قاصر لأنه ينتهي عند حدود ، وأما علم المطلق فلا حدود له .

ويجب أن يعلم الطالب أن ما نسميه العقل الكلى ليس الوسيلة التى يعلم المطلق بها الأشياء . ليس العقل هو الذى يعلم المطلق به انما هو الوسيلة التى يدرك بها الكون والكون ليس مطلقا انما هو مخلوق محدود لأنه يشمل ما انبثق عن المطلق ولكنه ليس هو المطلق ، بل هو فيض من المطلق .

والنفس البشرية تستطيع أن تستمد من العقل الكلى ما فيه من علم بكل شيء وهذا ما يتمتع به الأقطاب على حسب ما بلغوا من درجة ومكانة فى السمو وهؤلاء الأقطاب يبلغون الناس ما تكشف لهم من وجود المطلق مؤيدين بذلك ما استطاع العقل ادراكه بواسطة القوة العاقلة — من ضرورة وجود المطلق مفيض كل شيء ومصدر وجود كل موجود وكل وجود ، ولكن أولئك الأقطاب يشهدون كذلك بعجزهم عن اجتياز الحدود ، حدود الوجود وحدود كل موجود .

وهكذا ترى أن المطلق لا يمكن أن تعرف ذاته وأن كل ما يمكن أن يعرف عن المطلق للعقل الكلى هو ما عدا الله أما ما فى نفس المطلق ذاته ففى علمه وحده .

اننا نستطيع أن ندرك لغز الكون اذا بلغنا غاية النمو ووصلنا

الى آخر حدود العقل ولكننا لن نعلم شيئا عن ذات المطلق حتى تتجاوز تلك الحدود ، وتتجاوز أعلى مستوى من مستويات العقل وندخل منطقة الروح فهى الحق ، هى فى كل منا ذرة من المطلق غير محدودة ولا مقيدة ، فى كل منا من المطاق الروح (أتمان) انها قطرة من المحيط المطاق غير المحدود. شعاع من شمس المطلق ونوره هى شرارة من الشعلة القدسية .

هذه الروح لأنها من المطلق تعرف المطلق ذاته وصفاته أسراره ومغيباته فاذا اتهينا الى داخل الوعى الروحى لا الاستمداد منه فقط ، عرفنا كل شىء وأصبحنا من المطلق فى كل شىء متحدين به ، هذا من أقدس تعاليم فلسفة اليوجا .

هذا السر هو أن الروح ذلك الجزىء الصغير من المطلق الذى يبدو منفصلا عن المطلق وما هو بمنفصل عن الواحد ، هو المبدأ الأسمى فى كل نفس حتى أحط النفوس فيها ذلك القبس ، انه فينا أبدا لا يزيد ولا ينقص ، ولكننا نحن نزداد ابصارا لنوره كلما تقدمنا وارتقينا على السلم درجة بعد درجة . ان الروح موجـود دائما لا يتغير ولا يتبدل ولكن وعى الانسان ينمو مقتربا من الروح ولابد أن يندمج يوما فيه ، وهذا هو هدف النفس وغاية التدرج والتقدم والغرض من كل جهاد وكفاح . ان الحياة وسيلة النفس وفرصة كفاحها للتخلص من حجبها وقيودها لتصل الى ميراثها وتتمتع به .

لقد أقبلنا الآن على السر الأعظم وأشرفنا عليه فان الطالب الذى واصل تتبع هذه التعاليم لابد وأن يجد فى نفسه السؤال الذى رددته الأنفس فى جميع الأجيال عندما ينتهون فى أبحاثهم الى هذه المرحلة . وهذا السؤال يمكن أن يكون بالصيغة التالية :

لماذا فصل المطلق جزءا منه وقسمه أجزاء أو ما يبدو أنه أجزاء ؟ أو لماذا يبدو كأنه فصل هذه الأجزاء ، ما الفائدة وما معنى هذا كله ؟ ما الحكمة ؟ .

لا يمكن أن تكون هناك ضرورة ملجئة فان المطلق فوق الضرورات ، ولا يمكن أن يكون للحصول على غرض أو هدف فان المطلق يملك كل شىء ، ولا يمكن أن يكون ذلك لرغبة فان المطلق منزه عن الرغبات ، واذن فلماذا أفاض من نفسه الكون ولماذا أوجد هذه الأنفس ولماذا نفخ من روحه بضعة فى كل نفس .

اذا كان كل شىء صدر عن المطلق واذا كان كل شىء يعود الى المطلق فلماذا كل هذا وأية فائدة له ؟ .

لعلنا أوضحنا السؤال غاية الوضوح ويسرنا أن نعلن عجزنا عن الاجابة عليه واننا لم نعثر على اجابة أو تفسير يستحق النظر أو الذكر .

ان الجواب عند المطلق فى حرز حريز ، ولما كان العقل مظهرا فقط فانه لا يستطيع أن يدرك ما وراء المظهر .

لقد حاول كثير من المفكرين الاجابة عن هذا السؤال ، ولجت مدارس الشرق والغرب فى شتى الافتراضات حوله .

قال البعض ان هذا الانفصال لا وجـود له ولا ظل له من الحقيقة فى الواقع وان الجهل أو الوهم يرينا الواحـد الأحد فى صورة الكثير المتعدد ، ولكن هذا القول لا يحوى الاجابة على السؤال اذ كيف حدث هذا الجهل ومن أين صدر وكيف يكون فى المطلق جهل أو وهم (ان كان المطلق كما قررنا مصدر كل شىء ولا وجود لشىء الا به) .

وان كنا نحن الذين انبثقنا عن المطلق نعجـز عن أن ندرك صلتنا به فانه هو سبب عدم الادراك هذا .

يقول البعض اننا نحن الذين أوجدنا فى أنفسنا هذا الخيال فتصورنا أنفسنا منفصلين وليس هذا جوابا شافيا والا كان المطلق صاحب هذا الخيال وهذا التصور ، وهذه فكرة تدعو الى السخرية وشبيه بهذا التعليل قول القائلين بأن الكون ما هو الا حلم أو رؤيا يراها المطلق ، فكيف يرى الله رؤيا ؟ (أهو نائم فيحلم !!) .

وقريب من هذه التفسيرات المزعومة قول القائلين بأن الدنيا بما فيها الانسان وليدة لعب يتسلى المطلق به وهذا قول سخيف لأنه ينزل بالمطلق (براهما) الى مستوى طفل يلهو أو رجل يعبث فيشبه الشيطان لا الاله .

وقال آخرون ان الدنيا لا حقيقة لوجودها وانما هي فكرة لله ، ولا غناء في هذا القول فان في كل نفس ما يحملها على الاقتناع بوجودها ، لا انها فكرة أو حلم من أحلام اليقظة . ان شعور النفس بأنها شخصية مبعثه انعكاس للروح في النفس يشعرها بأنها تنتمي الى الله ولسنا غرباء عنه .

أما القول بأن الله يلهو بالدنيا اذ يبسطها ثم يعود فيطويها عندما ينتهي من اللهو كما قال بعض الهنود اتباعا لما في الخرافات التي وضعها سلفهم فهو نتيجة خيال من خيالات الطفولة البشرية وتصوراتها جريا وراء دين يؤمنون به فتخيلوا الله انسانا يلهو كما يلهون .

اننا مضطرون لأن نسلم بوجود الخداع الذي يسببه النظر غير السليم الى الأشياء فتبدو على غير حقيقتها ، ولا شك أن الطلاب يعلمون أن من لا يزال مقيدا بقيود الجهل يرى الكثير من الأمور على غير ما هي عليه ، وانهم أدركوا الكثير من الأخطاء تذوب تحت ضوء المعرفة . ولكن هـذا الانخداع بمظاهر الأشياء وان ثبت وجوده لا يعتبر حلا للمشكلة ولا جوابا للسؤال انه قد يجيب على السؤال عن الطريقة (كيف حدث) ولكنه لا يجيب عن الحكمة (لماذا حدث ؟) .

أما (كيف حدث ؟) فسؤال داخل فى المظهر والعقل يحده لذلك فى حدوده ويستطيع الاجابة عليه . ولكن (لماذا ؟) هــذا سؤال خارج عن حدود العقل والأبواب دونه موصدة فى وجه العقل .

اننا نستطيع أن نصل الى المعرفة وقد وصل اليها الكثيرون فعرفوا ان الله كائن حقا ، لا لأن العقل مضطر لأن يسلم بذلك ، ولكن لأن الأفق الأعلى من العقل فيه اليقين بوجوده ، والنفس اذا تفتحت تجد فى حناياها الروح وتسلم بأنها شىء آخر غير العقل وأسمى منه ، والأقطاب استطاعوا أن يجولوا فى آفاق العقــل الكونى ووجدوا أن المطلق محيط به فعرفوه معرفة يقينية لا معرفة استنتاج وتفكير أو ايمانه كايمان العجائز . ولكن النفس عاجزة عن ادراك سر الروح بعقلها كما ان العقل الكلى عاجز عن ادراك سر المطلق .

لقد حاولت العقول فى كل العصور أن تدرك سر المطلق وسر الوجود وباءت محاولاتها بالفشل .

لقد رأى أفلوطين الفيلسوف اليونانى أن المطلق لا يمكن أن يكون وحيدا ولذلك فانه يفيض أنفسا من ذاته ، كما رأى بعض الهنود أن الحب وحتى الرغبة كانا السبب فى وجود هذه المظاهر ،

الرغبة فى وجود شىء يجب. كل هذا قيل كما قيل ان روح التضحية هى التى دفعت الواحد لأن يتعدد وهنا نكف عن سرد ما قيل فى هذا الموضوع ذاكرين أنه سبب هذه الاجابات كلها واحد وهو آن أصحابها بنوها على تصورهم ان المطلق مثل الانسان وأنه يعمل بنفس دوافع الانسان ويتأثر بما يتأثر به من مؤثرات .

وهذه طريقة تفكير تحتضر ، ولكن يبدو أنها لا تموت موتا هينا فانها ما زالت ترفع رأسها حتى فى الفلسفات التى تدعى أنها أودعتها الرمس منذ أمد بعيد . وانا لنحذر الطلاب من الوقوع فى حبائل العقل والفكر ونريد أن يعلموا أن السلامة فى البعد عن هذه الأسباب والنظريات والتفسيرات التى مبعثها جميعا أننا ننسب صفات المخلوق الفانى الزائل المحدود الى الحى الباقى الأبدى غير المحدود ، ننسب صفات الانسان الى المطلق .

ان الجواب على هذا السؤال (لماذا ؟) لن يأتى الا من عند الله وموعده اشراق الروح أما الآن فحسبنا أن نعلم أننا بشر وأن نعترف بأن الانسان فى حالته الراهنة لم يؤت من العلم الا قليلا .

واذا كنا لا نستطيع أن نعلم سبب الخلق فاننا نستطيع أن نبحث كيفية الخلق فى كل مظهر من مظاهر الوجود فانها تحت تصرفنا ان أردنا الغوص فى أعماقها والواقع أنها معروفة للعقل

الكونى (العقل العام) وقد عرفها الذين جاسوا خلاله حتى وصلوا الى أقاصى حدوده . وفى العقل البشرى علم العقل العام فى الحالة الكامنة عقل كل فرد فيه معرفة الكون كلها ، وتحليل ماء المحيط لا يتطلب سوى تحليل قطرة منه والراسخ فى العلم يعلم كل علم فى الكون باستقرائه ما فى عقل نفسه ، وعقله يستطيع أنه يحصل على ما فى جوهر العقل من معرفة وأن يستقبل كل ذبذبات العقل الكلى ، فكل قطرة ، فيها ما فى الكل من خواص . العقل الكلى فيه كل المعرفة وما يصل الى علمنا منه ليس جديدا بل هو موجود فى ذلك العقل ميسور لمن يستطيع أن يستمده بعقله الفردى منه كلما اتسع أفقه وزاد عمقه حتى يصل الى محيطه ويلمس وجود ما وراءه — حقيقة وجود المطلق — ويطلع على دورة القدر بل ويشارك فى جهوده ان أراد .

يمكن استخدام العقل فى تشكيل المادة بواسطة الطاقة وبذلك يأتى أمورا ويصنع أشياء تبدو للرجل العادى معجزات ولكنها تدخل فى نطاق الأسباب والمسببات ، نطاق الممكن المعقول لا اعجاز فيها ولا مستحيل .

وتستطيع النفس التى تقدمت أن ترتفع بعلمها الى حيث تكون فوق متناول قانون العلل والأسباب والنتائج الذى يسيطر على مجريات الأمور فى مستويات الوجود الدنيا .

لا يسأل اليوجيون تلاميذهم أن يصدقوا كل شيء على علاته مؤمنين بما يقال لهم لأن ألغاز الكون يمكن أن يحلها العقل ، وكل خطوة يمكن تحقيقها بالتجربة عمليا . من الايمان ايمان يورث المعرفة ومن اليوجيين من يتمتع به ولكن احذروا المعـلم الذى يدعى أنه يستطيع بعقله أن يفسر لعقولكم سر الوجود ويجيب على سؤالك (لماذا ؟) الذى اختص الله به نفسه ولا يعلمه الا هو فان ساوركم الشك وسبب لكم هذا السؤال أسى فاهدأوا والجأوا بالعقل الى الروح وسلطانه تجدوا الهدوء والسلام ، السلام الذى يفوق الافهام .

النفس (مركز وعى) ونصفها بهذا الوصف لأننا لا نجد خيرا منه . وفيها القبس الالهى تحوط به حجب وهـذه الحجب على درجات وأشكال ، من جوهر العقل والطاقة والمادة .

وحتى بعد أن تترك الجسد (عند الموت) لا تتخلص النفس من المادة فان لها مراكب أو أجساما من المادة الشفافة فى درجات مختلفة من الصفاء . فجوهر العقل الفردى نفسه بصوره المتعددة تحوطه طبقة من المادة تحجبه عن العقل الكلى لحد ما ، يجعله وحدة قائمة بذاتها وفى نفس الوقت تتصل بالعقل الكلى والعقول الفردية .

تسمى النفس أحيانا (الأنا) (E.G.O) أو غير ذلك من الأسماء التى لا تقدم ولا تؤخر وتوضع النفس فى جسد من المادة فى أكثف صورها ثم تعمل جاهدة نحو الرقى والتقدم والرفعة متخذة صورا يتسـامى بعضها فوق بعض حتى تبلغ من التقدم درجة الملائكة (فى الأصل الآلهة) وبعدها تندمج فى المطلق لا كما يلقى الشىء فى البودقة فينصهر مع ما فيها ولكن بمعنى أنها تدرك المطلق وتدرك وحدتها معه وهذه الحقيقة الأخيرة عرفت بشهادة أولئك الذين بلغوا المرحلة التى تؤهل لهذه الوحدة — نيرفانا — لأن هناك مرحلة قبل هذه الوحدة تقف النفس فيها فترة قد تبلغ ملايين السنين وفى خلال هذه الفترة قد تتنازل النفس عن امتيازاتها التى بلغتها لتعود الى الكون لتأخذ بيد غيرها من الأنفس المكافحة صعدا .

أما (لماذا ؟) هذه الرحلة الطويلة على الطريق من المادة الكثيفة الى درجات الصفاء العليا ، أما سبب هذا فعلمه عند الله كما أسلفنا .

ولكننا نستطيع أن نرى بكل وضوح خطوات التقدم فى هذه الرحلة كما نشعر بجذب الله وتوجيهه لنا نحوه من ناحية ، وبالدافع الالهى فى نفوسنا من الناحية الأخرى يحدونا الى ارتقاء سـلم الوصول فنستطيع من ذلك أن نستنتج بقوتنا العاقلة وبما أودع فينا من ملكات أسمى من القوة العاقلة ، نستنتج أن تلك القوة التى تقود النفس الى العلا حق وخير وأن ما يعترض تقدمنا فى

الطريق فيعيق اضطراده فى مرحلة من مراحله شر وخطأ . وبين هذا وذاك نستطيع أن نستخلص دستورا للأخلاق والسلوك وان كانت الأخلاق والخير والشر كلها نسبية كما سبق القول فى الحديث عن (دارما) .

كل خطوة تجعلنا نشعر بأن الكل واحد خير من الخطوة التى لا تتميز فيها هذا الشعور بنفس الوضوح ، وعلى هذه القاعدة ينبنى كل ما نعرف بالخطأ والصواب — الخير والشر .

أما كيفية دخول الروح فى المادة أو لنقل كيفية مولد النفس فان بعض النفوس التى سمت وبلغت المستويات التى تستطيع منها أن تطل على الكثير من أسرار أحداث الكون تقول ان ذلك سببه ارادة الهية تشبه الرغبة الملحة فى الانسان . يريد الله فيكون ما يريد ويحدث ذلك المظهر وبديهى أن ما يحدث ليس ارادة بالمعنى الذى نعرفه للكلمة ولكننا لا نجد له تسمية أخرى أو وصفا آخر .

واذا جاز لنا أن نستعمل تشبيها مأخوذا من الحياة العادية على أن تذكروا رأينا فى سخف كل مقارنة بين فعل الله وفعل الانسان ، يمكن القول ان عملية تكوين (مركز الوعى) أو مولد النفس أو دخول الروح حجب العقل والطاقة والمادة تشبه فى طبيعتها ما يسبق تكوين الجنين ومولده فالارادة الالهية تشبه الخلية المتكونة من بويضتى الذكر والأنثى ، والروح تشبه الطفل الذى

يتكون منها ولابد أن تكون فى الطفل طبيعة الوالدين وصفاتهما أى أن الروح من الله وأنها نفس النفس ، وان الحجب — العقل والطاقة والمادة — هى جسد الطفل وكل من نفس الطفل وجسده لابد أن يكونا من نفس العناصر التى تكون منها الوالدان فليس ثمة شىء آخر يمكن أن يتكون منه الطفل . ويقول كاتب غربى اسمه كالتروب Calthrop بحق (من جوهر المطلق نفسه « طبقا لقانون الأبوة » نأتى نحن أطفاله جسدا وروحا على السواء اننا مولودون ولسنا مصنوعين اذ أننا أولاد فى الحقيقة ونفس الأمر) .

وكالطفل الذى يولد ويكون فى صورة مادة بسيطة أول الأمر ثم ينمو فيعى ثم يعقل ثم يدرك ثم يبلغ مبلغ الرجال حتى يصبح كأبيه شكلا وعقلا ، كذلك هذا الطفل الالهى يبعث فى أبسط شكل من أشكال الروح (التى يمكن أن تسمى جسد الله) وكلما نمت ارتفعت وارتقت وبلغت ذرى الارتفاع التى يصاب فيها العقل بالدوار ، حتى اذا بلغت آخر الطريق وجدت نفسها أمام بيت أبيها فتقرع فتفتح لها الأبواب وتدخل وتلقى نفسها فى أحضان أبيها الذى يكون فى انتظارها ثم تقفل الأبواب فلا نعلم مما يجرى فى الداخل شيئا . لقد عادت لنفس آمنة مطمئنة بعد أن بلغت الغاية من النضج عادت بعد أن عانت مشاق الطريق ووعثاء السفر عادت ودخلت بيتها بسلام .

وتشبيه آخر فيه معنى يروق للطلاب المتقدمين .

كما تنعكس الشمس على البحر وعلى كل نقطة فيه اذا انفصلت عن غيرها كذلك ينعكس نور المطلق على صفحات العقل الكلى الأعظم وعلى كل ذرة من ذرات ذلك العقل ، على كل نفس .

اذا انعكست الشمس على بحر العقل الكلى فهى نور المطلق . واذا انعكست على قطرة من العقل الكلى التى يقال لها النفس سميت الروح .

ليس ذلك الذى يبدو فى الانعكاس هو الشمس نفسها ولكنه فى نفس الوقت ليس وهما ولا خيالا ولا شيئا مزيفا فان الشمس قد أرسلت جزءا من نفسها من قدرتها من حرارتها من نورها من مادتها ، ولهذا فالبحر والقطرة تأخذان من نفس الشمس . ان روح القطرة حق وهذه معجزة السر . فعلى حين تكون الشمس حاضرة فى القطرة الا أن الشمس نفسها بعيدة ، وليس الحاضر منها الا مظهرا فقط . انمن يرى الانعكاس فى القطرة يرى الشمس ، شكلها ونورها ، ومع ذلك فالشمس فى السماء ، وهكذا نرى الشمس فى القطرة وهى فى السماء ونرى الشمس فى السماء وهى فى القطرة . هذا هو اللغز الالهى الذى فى طياته الواحد المتعدد والمتعدد الواحد الحق الكل الذى يبدو منفصلا ولا انفصال .

تنعكس الشمس على ملايين القطرات فاذا ملايين من الشموس ولكن مع أننا نرى فى كل قطرة شمسا الا أن الشمس واحـدة والشمس فى السماء ، ان من يستطيع أن يدرك هذا اللغز يدرك سر الصلة بين الروح والمطلق بين المتعدد والواحد . هذه رسالتنا الى طلابنا نختتم بها هذه الدراسة فأصيخوا اليها .

ألا ليت كل قطرة تدرك أن فى داخلها شمس الحياة وتعرف كيف تدرك وجودها فيها الادراك الصحيح . والسلام لكم ومعكم .

النهـاية

فهرس

صفحة

إهداء ٣
كلمة الناشر ٥
الدرس الأول :
بعض الضوء على الطريق ٧
الدرس الثانى :
مزيد من الضوء على الطريق ٤٦
الدرس الثالث :
الوعى الروحى... ... ... ٨٣
الدرس الرابع :
صوت الصمت ١٢٠
الدرس الخامس :
كارما يوجا ١٥٨
الدرس السادس :
جنانى يوجا ١٩٢
الدرس السابع :
بهاكتى يوجا (طريق الإخلاص والعبادة) ٢٢٥

صفحة

الدرس الثامن :

دارما ٢٦٠

الدرس التاسع :

مزيد من الدارما ٢٩٢

الدرس العاشر :

لغز الكون ٣٢٩

الدرس الحادى عشر :

المادة والقوة ٣٤٢

الدرس الثانى عشر :

العقل والروح ٣٦٨

الناشر

عريان يوسف سعد

٤ شارع عبد السلام زكى ـ بمصر الجديدة

تليفون ٦٦٦٧٠

س . ت : ١٠١٩٨٤

